دكتور عبد اللطيف حمزة

أدب المقالة الصحفية

الجزء الثاني

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

أدب المقالة الصحفية



تأليف

دكتور عبد اللطيف حمزة

أستاذ ورئيس قسم الصحافة
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

١٩٦٥



دار الحمامى للطباعة
شارع الجيش - ٢ كنيسة الأرمن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى الجزء الأول من أجزاء هذا الكتاب ، أذكر أنى تحدثت إلى القراء عن نشأة الرأى العام فى مصر ، ثم عن نشأة الصحافة بها . ثم عن الحركة الفكرية المصرية منذ بداية القرن التاسع عشر ، ثم عن تطور الأساليب الكتابية العربية منذ بدايتها إلى ذلك القرن ، متخذاً من الفصول الأربعة السابقة تمهيداً للحديث عن المدرسة الصحفية الأولى فى مصر وعلى رأس هذه المدرسة رفاعة رافع الطهطاوى. وقد أفضى بنا البحث إلى أن تلك المدرسة الصحفية فى مصر كان قصاراها أن حاولت إنشاء ما يسمى « بالمقال الصحفى » .

ذلك أنها كانت مقيدة فى هذه المحاولة بقيود كثيرة ، كان معظمها نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التى اكتنفت رجال تلك المدرسة .

وحسبنا أن نشير من الظروف السياسية إلى واحد فقط ، ونعنى به الظروف الذى قضى على الصحافة المصرية أن تكون فى أول أمرها من وحى الولاة والحكام ، وأن تولد فى حجورهم ، وتعيش بأموالهم ، وتتغذى بأفكارهم ، ولا تكاد تتحدث إلا بألسنتهم ، بل لا تكاد تعبر إلا عن رأيهم وبقيت الصحافة المصرية رسمية على هذا النحو ، حتى ظهرت إلى جانبها صحافة أخرى هى الصحافة الشعبية وحتى هذه الأخيرة لم تكن فى أول أمرها إلا صورة دقيقة من الصحافة الرسمية التى نتحدث عنها .

ثم حسبنا كذلك أن نشير من الظروف الاجتماعية والفكرية إلى واحد فقط ، ونعنى به الجهل ، الذى خيم على مصر طوال الحكم العثمانى ، وجعل

فى سمائها سحباً كثيفة داكنة مظلمة ، يركب بعضها فوق بعض ، فتحجب النور عن أهل مصر ، فلا يصل منه قبس إلى عقولهم ، وتذود عنهم الدفء ، فلا سبيل إلى أن تستمتع به أجسامهم ولقد ظل المصريون على هذه الحال السيئة من الحرمان ، حتى أتت الحملة الفرنسية ، وأتى محمد على ، وكان لهذين الفضل فى إنهاض المصريين من سباتهم ، ثم فى الأخذ بيدهم إلى السير فى ركب الحضارة الحديثة والعلوم الحديثة ، وذلك هو السبب الذى من أجله قضى المصريون ، حكاما ومحكومين ، أكثر من نصف القرن الماضى فى شىء واحد فقط ، « محاربة الجهل » ، واشترك كثيرون فى هذه الحرب التى شنتها مصر يومئذ على ذلك العدو ؛ فنهم الولاة بأموالهم وسلطانهم وتوجيهاتهم ، ومنهم طوائف الشعب على اختلافهم ، وذلك بدافع من الوعى القوى الذى نما نمواً كبيراً فى بلادهم . ثم منهم رجال الصحافة الذين جرفهم تيار التعليم والثقافة ، فكادت تنحصر جهودهم فى هذه السبيل الأخيرة ، وجاءت أكثر الصحف التى أصدرتها المدرسة الصحفية الأولى مشحونة بالفصول العلمية والأدبية ، مترجمة عن الكتب الأجنبية حيناً ، ومأخوذة من الكتب العربية القديمة حيناً ، ومؤلفة بقصد أن يتكون منها كتاب فى العلم أو الأدب فى نهاية الأمر .

تلك إذن بعض القيود التى تقيدت بها المدرسة الصحيفة الأولى فى مصر ، وتلك إشارة موجزة إلى بعض الظروف التى كانت هذه القيود من نتائجها فى ذلك الظرف وهكذا كانت صبغة المدرسة الأولى علمية أدبية ، أكثر منها سياسية واجتماعية . وذلك من حيث الموضوع .

أما من حيث الأسلوب فقد كان رجال تلك المدرسة مقيدين كذلك بقيود الماضى الغريب ، حين كان النثر العربى يميل إلى السجع وغيره من ألوان البديع ، التى فتن بها أدباء العربية منذ القرن الرابع الهجرى . غير أن البديع أو الزينة اللفظية لا تحسنان — كما أشرت إلى ذلك فى موضعه من الجزء الأول من هذا الكتاب — إلا مع ثقافة واسعة ، وذوق فى اللغة رفيع ، وحسن فى الأدب دقيق ، وهو ما حرمت مصر أكثره طوال القرن الثامن عشر . ومن ثم ورث الصحفيون فى القرن الماضى لونا باهتا من ألوان النثر العربى ، لم يكن خليقاً بأن يحتذى ،

ولا كان جديراً بأن ينسج على منواله . ومع ذلك فقد مضى رجال المدرسة الأولى يكتبون صحفهم بطريقة لاتبعد كثيراً عن هذه الطريقة ، ولا تكاد تتحرر منها إلا فى أوقات قليلة ، حتى جاء الوقت الذى سئموا فيه السجع ، وزهدوا فيه البديع وكان ذلك إيذاناً بمجىء المدرسة الصحفية الثانية . وهى المدرسة التى نعمت بقسط من الحرية فى الموضوع ومن الحرية فى الأسلوب ، ليس شك فى أنه كبير بالقياس إلى القسط الذى نعمت به المدرسة التى سبقتها إلى الوجود .

ولئن كانت المدرسة الأولى للصحافة فى مصر تجاهد فى ظلام حالك ، ولم يكن أمامها مثل واضح يحتذى فى الكتابة أو الصحافة ، لقد كانت الثانية تشق طريقها فى شىء من النور الخفيف الذى يشبه نور الفجر ، وكان أمامها مثل — إن لم يكن كامل الوضوح — فهو كاف لأن يهدى القوم سواء السبيل .

ولئن كان رجال المدرسة الأولى يمثلون من الصحافة دور الطفولة ، لقد كان رجال المدرسة الثانية يمثلون من الصحافة دور الغلومة ، أو قل إنهم تجاوزوا هذه الغلومة إلى حيث قطعوا بالصحافة أول مرحلة من مراحل الشباب .

ولئن كانت المدرسة الأولى قريبة عهد بالعلوم الحديثة ، والأخذ بنصيب من الثقافة الأوربية الجديدة ؛ بحيث قصروا جهودهم ، أو كادوا يقصرونها على نقل هذه الثقافة لقد كانت المدرسة الثانية قد تخففت نوعا ما من هذا الجهد ، وحطت عن كاهلها بعض هذا العبء ، والتفتت إلى لون آخر من ألوان الجهاد القومى ، ونزلت ميادين أخرى من ميادين الإصلاح ، ونعنى به الإصلاح الاجتماعى والإصلاح السياسى ، والإصلاح اللغوى .

وأخيراً — لئن كانت المدرسة الأولى تحاول إنشاء المقال الصحفى ، وتجد عسراً شديداً ومشقة كبيرة فى هذه المحاولة ، لقد كانت المدرسة الثانية قادرة على إنشاء المقال ، بالغة منه ما أريد به .

ومهما يكن من شىء ، فقد أبلى رجال المدرسة الصحفية الأولى فى مصر بلاء حسناً فى نشر الثقافة ، والتمكين لها ، ثم فى إنشاء الصحف ، واقتناع الناس بها ، ثم فى محاولة إنشاء المقال الصحفى بالطريقة التى أملاها جو العصر

من جهة ، والأسلوب الأدبى الذى كان من وحى ماضيهم وحاضرهم معاً من جهة ثانية .

ألا ما أعظم الجهد الذى بذله الرعيل الأول فى ميدان الصحافة المصرية ، وما أجل خطر المهمة التى ألقيت على عاتقه ، وما أعظم الواجب الذى قام به هذا الرعيل نحو الوطن ، حتى خطا خطوات سريعة إلى نهضة شملته من جميع جوانبه .

ومضى عهد المدرسة الأولى حميداً فى مصر على هذا الوجه ، وأتى بعده عهد المدرسة الثانية ، فوجدنا المقالة الصحفية بالمعنى الصحيح تولد على أيدى رجالها ، ويتمتع القراء فى مصر والشرق بطائفة من المقالات السياسية حيناً ، والاجتماعية حيناً آخر ، وإذا بإعلام هذه المدرسة لهم قدرة على أداء هذه المعانى فى أدق صورها ، وأجمل مناظرها وأيسر طرقها . أو قربها إلى أذهان الخاصة والعامة على السواء .

ألا ما أعظم الوثبة التى وثبها الرعيل الثانى فى ميدان الصحافة المصرية ، وما أسرع الخطا التى خطاها بالمقال الصحفى ، فى موضوعه وفى أسلوبه فى وقت معاً .

راعنى كل ذلك ، وملأ نفسى إعجابا ، وقلبى غبطة وسروراً ، ، فكتبت هذا الجزء الثانى فى الحديث عن ثلاثة فقط من رجال هذا الرعيل ؛ وهم أديب إسحاق، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم . ولاشك فى أن هؤلاء الثلاثه ليسوا إلا أمثلة فقط لكتاب المدرسة الثانية ، وإن شئت فقل إنهم زعماء هذه المدرسة التى ضمت غيرهم ، ممن لم يتسع الكتاب لذكرهم ، والإشادة بالجهد الصحفى الذى بذلوه فى تلك المرحلة .

وفى ترجمتى لحياة أولئك الثلاثة الكتاب ، انتفعت بطائفة ، من الكتب الحديثة والتراجم الخاصة ، ومنها ترجمة عونى إسحاق لأخيه أديب إسحاق وترجمة أحمد سمير لصديقه عبدالله النديم ، وترجمة رشيد رضا لشيخه محمدعبده . ثم كتاب « زعماء الإصلاح » لأستاذى الكبير أحمد « بك » أمين .

أما أساليب أولئك الثلاثة الكتاب . ودراستها ونقدها وتحليلها وما يتصل

بذلك من أبحاث غايتها استخلاص الطابع الصحفى للمقال . وشرح المنهج الصحفى لكل واحد من أولئك الكتاب وبمجهودى الخاص . الذى أعتقد — فى حدود علمى — أننى لم أسبق إليه

وأنا إذ أقدم هذا الجزء إلى القراء أرجو أن ينتفع به طلبة الجامعة عامة . وقسم التحرير والترجمة والصحافة خاصة . والمتصلون بالصحافة نفسها اتصال حرفة ، أو اتصال بحث وعلم على وجه أخص .

وقد عزمنا على أن نمضى فى الكتابة عن رجال الصحافة طبقة بعد طبقة ، ورعيلا بعد رعيل . حتى نصل إلى الصحفيين الذين نعيش معهم فى هذا العصر .

والله تعالى نسأل أن يوفقنا إلى هذه الغاية ويهدينا سواء السبيل ؟

مصر الجديدة فى فبراير سنة ١٩٦٥

عبد اللطيف حمزه

الفصل الأول

ظروف عاشت فيها المدرسة الصحفية الثانية

واجهت الصحافة العربية فى مصر فى النصف الثانى من القرن الماضى ظروفاً مخالفة بعض الشيء للظروف التى واجهتها فى النصف الأول وهى ظروف أوجبت على الصحافة أن تجول جولات واسعة فى ميدان الإصلاح الاجتماعى وميدان الإصلاح الأدبى أو اللغوى ، وميدان الإصلاح السياسى آخر الأمر ، على حين كانت فى النصف الأول من القرن الماضى تكاد تنحصر جهودها كما قلنا فى الميدان الثقافى وحده قبل كل شيء وبعبارة أخرى فى نقل الثقافة الأوروبية إلى اللغة العربية من جهة ، ونشر الكتب القديمة المعروفة فى الأدب العربى من جهة ثانية .

وإذ أمعنا النظر فى هذا النشاط الكبير الذى استغرق جهود المصريين فى النصف الثانى من القرن الماضى وجدناه موزعا فى الواقع على حركات ثلاث وهى :

١ — حركة التنوير .

٢ — حركة الدستور .

٣ — حركة المقاومة .

حركة التنوير

فأما حركة التنوير فنحن نعلم أنها بدأت بمجيء الحملة الفرنسية ، ثم بظهور محمد على وعنايته بنشر التعليم الحديث ، وجذب المصريين إلى الثقافة الأوروبية كما سبق أن شرحنا وذلك فى الجزء الأول من كتاب (أدب المقالة الصحفية) .

غير أن أسبابا أخرى جدت فى النصف الثانى من القرن الماضى وكان من شأنها تقوية هذه الحركة والمضى بها أشواطا بعيدة المدى . وأهم هذه الأسباب الجديدة مايلى :

أولا — بقاء المصريين على إصرارهم القديم على التمسك باللغة العربية وإيثارها بالاستعمال على اللغة التركية وذلك فى الصحافة والتعليم والتأليف فى الدواوين الحكومية المختلفة

أجل — إن هذا الاتجاه نحو اللغة العربية والتعصب لها على هذا النحو كان مسايراً للنهضة المصرية منذ بدايتها إلى نهايتها . وكان هذا الاتجاه من اتجاهات النهضة مؤيداً من المجالس النيابية أو شبه النيابية فى مصر تأييداً تاماً وذلك منذ طالبت هذه المجالس بضرورة استخدام العربية فى شئون التعليم . وكان قد ظهر منافس جديد للغة العربية منذ الاحتلال البريطانى . وهذا المنافس الجديد هو اللغة الإنجليزية فأصر النواب على أن تحل اللغة العربية محل هذه اللغة الإنجليزية فى جميع مراحل التعليم ولقى المشروع صعوبات جمة . ولكن النواب ورجال الصحف تغلبوا عليها فى النهاية على نحو ماهو معروف فى التاريخ .

ثانياً — كان من تلك الأسباب التى جدت فى النصف الثانى من القرن الماضى وأصبح لها أعمق الأثر فى تقوية حركة التنوير مجىء السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر وإقامته فيها بين سنتى ١٨٧١ — ١٨٧٩ يبذر فيها بذور الحرية ، ويشجع المصريين والشرقيين على اليقظة الفكرية واليقظة السياسية . وجمع حوله الشباب العربى على هذه الفكرة وكان من هؤلاء على سبيل المثال : أديب إسحق ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم ، وإبراهيم المويلحى ، وسنى اللقانى ، وسعد زغلول ، وغيرهم كثيرون .

ثالثاً — ولعل من أقوى الأسباب التى ساعدت على تنمية حركة التنوير أن حركة الترجمة التى بدأت منذ أيام محمد على واستمرت إلى أيام إسماعيل كانت قد أثمرت وأينعت وبدت آثارها قوية فى الدوائر الثقافية وفى نمو العقل العربى الجديد وهو العقل الذى وجدناه يدين بجزء كبير من تكوينه ونشاطه إلى التيار الأوروبى ممثلا فى ذلك السيل الضخم من الكتب المترجمة فى شتى العلوم المختلفة التى احتاجت إليها النهضة المصرية على النحو الذى فصلنا فيه القول فى الجزء الأول من كتابنا (أدب المقالة الصحفية) .

رابعاً — ثم من الأسباب التى عادت بالخير على حركة التنوير نهضة الأزهر الشريف أو شعور الأزهريين فى تلك الفترة من تاريخ مصر بأن عليهم واجباً هاماً نحو الثقافة الشرقية أو العربية حتى تقف على قدميها بجوار الثقافة الأوروبية . وكان الأزهر إذ ذاك يتأثر تأثراً عميقاً بالنقد الشديد الذى كان يصدر من أحد أبنائه — وهو الشيخ محمد عبده . ولهذا الأخير جهود مشكورة فى نشر التراث العربى الإسلامى والعناية بطبع الكتب القديمة التى هى أمهات الأدب العربى . وحذا حذو الشيخ محمد عبده فى ذلك عدد كبير من الذين تلقوا علومهم فى الأزهر الشريف وتألفت لذلك جمعيات أدبية كثيرة لهذا الغرض ونحن نعلم أن الحكومة المصرية شاركت من جانبها فى هذا المشروع وذلك منذ عهدها بشيخ الصحافة المصرية رفاعة رافع الطهطاوى وتلاميذه من بعده .

خامساً — من أسباب تقدم هذه الحركة وهى حركة التنوير استمرار تدفق السوريين إلى مصر وعنايتهم إذ ذاك بالصحافة وبالأدب وبالمسرح وبالقصة المترجمة والقصة المؤلفة . والذى لا شك فيه أن جهود السوريين نجحت نجاحا كبيرا فى تنوير الذهن المصرى ، وكانت فى ذاتها مشاركة قوية فى بناء الثقافة العربية .

سادساً — فى ذلك الوقت كانت الحرب الروسية التركية قائمة (سنة ١٨٧٧) وكانت هذه الحرب - كما قلنا فى الجزء الأول من أدب المقالة الصحفية - حجر الزاوية من النشاط الذى بدا من جانب الصحافة المصرية ، فقد انقسم الصحفيون المصريون وقتئذ فريقين :

فريق يؤيد الأتراك ضد الروس .

وفريق يؤيد الروس ضد الأتراك

وبسطت الحكومة المصرية الحبل للصحافة فى هذا المجال لأول مرة فى حياتها . وكان ذلك من دواعى ظهور ما يسمى بالرأى العام فى مصر وظهر فيها لأول مرة على هذا النحو .

غير أن الاتجاه العام من جانب الصحف الوطنية إذ ذاك كان ضد قيام الحرب

من حيث هى . وكان يهدف إلى إشاعة الكراهية لها أو الترويج لدعاتها . وجاءت مقالات أديب إسحق معبرة عن هذه الكراهية ، فقدم الكاتب للحرب صورة منفرة ؛ كتبها على طريقة الأدباء ، ولم يكتبها على طريقة السياسة ، ومن ثم جاءت هذه المقالات وهى لوحة فنية لا تقل فى كمالها الفنى عن أروع قصيدة من قصائد الحرب نظمها شاعر من أكبر شعراء العربية كأبى تمام أو المتنبى وغيرهما .

هذه عوامل قليلة من أخرى كثيرة أفضت إلى التحول الصحفى من المدرسة الأولى إلى المدرسة الثانية ، كما أفضت إلى ازدهار حركة التنوير ، وكان لها فضل عظيم فى الانتقال بالمصريين من مجرد الاكتفاء بالثقافة العربية إلى التطلع إلى المزج بين الثقافتين العربية والأوربية ، وقد كان تلاميذ المدرسة الصحفية الثانية فى مصر من دعاة هذا التحول ، وثمر من ثمراته فى مصر والعالم العربى .

حركة الدستور

أما عن حركة الدستور فخلاصة القول فيها أننا نجد الحياة النيابية فى مصر تتمخض عن دساتير ومجالس نيابية أو شبه نيابية على النحو التالى :

أولا — مجلس شورى النواب (١٨٦٦ — ١٨٧٩ وهو المجلس الذى أنشأه إسماعيل .

ثانياً — المجلس الذى تمخضت عنه الثورة العرابية ولو أنه لم يدم أكثر من أربعة شهور (من ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٨١ إلى ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٢) . ثم أتى بعده الاحتلال البريطانى .

ثالثاً — مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية (١٨٨٣ — ١٩١٢) وهو النظام الذى اقترحه الاحتلال البريطانى .

رابعاً — الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ وهى الجمعية التى توقفت عن العمل بنشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

خامساً — مجلس النواب المصرى سنة ١٩٢٤ وهو المجلس الذى كان ثمرة من ثمرات الثورة الكبرى سنة ١٩١٩ .

فإذا نحن أغفينا النظر عن المجلسين اللذين لم يدوما طويلا وهما مجلس الثورة العرابية من جهة والجمعية التشريعية من جهة — قلنا إن الحياة النيابية فى مصر خضعت لأطوار ثلاثة تمثلها مجالس ثلاثة وهى :

١ — مجلس شورى النواب
٢ — مجلس شورى القوانين
٣ — ومجلس النواب المصرى .

فأما المجلس الأول فكان رأيه استشارياً محضاً . وبالرغم من ذلك ظهرت فيه المعارضة شيئاً فشيئاً حتى بلغت غايتها فى وزارة رياض باشا منذ اصطدم بنائبين جريئين هما محمد رضى وعبد السلام المويلحى ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى الجزء الأول من أدب المقالة الصحيفة .

وأما المجلس الثانى — وهو مجلس شورى القوانين — فكان أعضاؤه يتألفون من عنصرين متعارضين كل التعارض وهما :

العنصر التركى أو الشركسى ومنه يتألف حزب السراى، والعنصر الوطنى وقوامه الأعيان وأصحاب المصالح الحقيقية فى البلاد ، ومعهم المثقفون فى الأمة . وقد تألف من العنصر الأخير حزب أطلق على نفسه (حزب الفلاحين) تمييزاً له عن حزب السراى أو حزب الأتراك أو حزب الشراكسة . وكان الخلاف شديداً بين الحزبين . وكان لهذا الخلاف نتائج فى غاية الخطورة على البلاد ، وسنعود إلى الحديث عن بعض هذه النتائج عند الكلام عن حركة المقاومة .

ولا نستطيع أن ندع الكلام عن حركة الدستور دون أن نشير إلى الانتصارات الباهرة التى أحرزها النواب المصريون فى داخل هذا المجلس الأخير ، برغم الظروف العصيبة التى أحاطت بأولئك الأعضاء ، والضغط الشديد الذى عانوه من قبل حكامهم الشرعيين من ناحية ، ورجال الاحتلال البريطانى من أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد من ناحية ثانية .

ومن هـــذه الانتصارات على سبيل المثال مايقترن بشخصية الأستاذ الشيخ محمد عبده فقد كان له أعمق الأثر فى مجلس شورى القوانين ، وذلك منذ دخل هذا المجلس فى يونية سنة ١٨٩٩ ، ومنذ صار عضواً بارزاً فى كل لجنة من لجانه وحركة من حركاته . وكان الشيخ محمد عبده يبنى سياسته دائماً على الوقوف موقفا وسطا بين الحكومة المصرية والاحتلال البريطانى ، وذلك فى كل خلاف يقع بينهما حول مسألة من المسائل الهامة . على أن الشيخ لم يدخـــر وسعاً كذلك فى بث روح المسئولية والكرامة فى نفوس الأعضاء فيما يتصل بالمصلحة العامة (١) .

حركة المقاومة

وتنظر كذلك فى هذه الحركة الأخيرة فنجد أنها مرت فى طورين كبيرين لا يعنينا منهما الآن إلا الطور الأول ، وهذان الطوران هما:

١ — طور التخلص من النفوذ التركى .

٢ — طور التخلص من النفوذ الأوروبى .

والذى لا شك فيه أن جميـع حركات المقاومة التى ظهرت فى مصر فى طـور التخلص من النفوذ التركى إنما صدرت عن (حزب الفلاحين) وهو الحزب الذى أطلق على نفسه أسماء أخرى منها (الحزب المصرى) و (الحزب الوطنى) وهو غير (الحزب الوطنى) المنسوب إلى مصطفى كامل ، وظهرت معه الأحزاب المصرية الأخرى بين عامى ١٩٠٦، ١٩٠٧ .

من ذلك الحزب الذى أطلق على نفسه (حزب الفلاحين) نبعت جمعيات سرية كثيرة منها :

(١) عبد اللطيف حمزة : أجواء فكرية وسياسية عاش فيها الأدب الحديث والصحافة المصرية . بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة : الجزء الثانى ، المجلد السادس عشر بتاريخ ديسمبر سنة ١٩٥٤ .

١ — الجمعية السرية للضباط المصريين سنة ١٨٦٧ .

٢ — جمعية مصر الفتاه التى ظهرت بمدينة الإسكندرية سنة ١٨٧٩ .

والأولى من هاتين الجمعيتين تسمت باسم (الحزب الوطنى) . وكانت الحرب عوانا بين هذين الحزبين الكبيرين أو التيارين المتنازعين وهما :

حزب السراى أو الشراكسة من جانب ، وحزب الفلاحين أو الحزب المصرى من جانب آخر . كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وانظر إلى عبارة وردت فى تقرير أحمد عرابى تعليقا منه على الحادث الذى وقع فى الحادى عشر من شهر يونية سنة ١٨٨١ وكان مقدمة من مقدمات الثورة العرابية وفيها يقول : (إن حزب السراى المكون من الأتراك والشراكسة عدو للانسانية. فهم يعتقدون أن الله القدير لم يخلق المصريين إلا ليكونوا عبيداً لهم وخدامهم الذين يتخذونهم آلة لنشر سلطانهم المطلق وهم فى كل ذلك يعاملونهم بكل قسوة واحتقار حتى رأوا أن مجهودات الحزب المصرى بدأت تؤتى ثمارها ، وأن فريقا نابها من هؤلاء الذين كانوا يظنونهم عبيداً لهم قد خطوا خطوات شاسعة إلى الأمام ، وأصبح منهم وزراء يجلسون معهم على قدم المساواة فى مجالسهم المقدسة . . . الخ) (١) .

* * *

تلك إشارة عابرة إلى بعض الظروف التى عاشت فيها المدرسة الصحفية الثانية. وهى المدرسة التى كان من تلاميذها أديب إسحق ، ومحمد عبده ، وعبدالله النديم ، وإبراهيم المويلحى .

ومن هنا وجدنا صحافة هذه الطبقة تخوض فى موضوعات اجتماعية ولغوية وسياسية . منها على سبيل المثال :

---

(١) عبد اللطيف حمزة : العقدة الشركسية عند مدرسة الشيخ محمد عبده وأثرها فى صحافة هذه المدرسة ، بحث مستخرج من مجـلة كلية الآداب جامعة القاهره المجلد الثامن عشر الجزء الأول بتاريخ مايو سنة ١٩٥٦ نقلا عن التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر (للمستر بلانت) الترجمة العربية ص ٣٧٨ .

موضوع الخلاف بين الباب العالى والخديو إسماعيل ، وموضوع الدستور والمجالس النيابية أو شبه النيابية فى مصر ، وموضوع إصلاح اللغة العربية والسير بها إلى الدرجة التى تستطيع فيها مواجهة المطالب الحضارية الجديدة ، وموضوع الثقافة الأوربية والمنافسة التى بينها وبين الثقافة الشرقية ، وموضوع التبشير والمبشرين المسيحيين ، وهذا كله فضلا عن الموضوعات الاجتماعية الكثيرة التى أثارها الصحفيون وكان لها أكبر الأثر على الأدب المصرى والفكر المصرى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين .

شهدت الصحافة المصرية على يد المدرسة الثانية كل هذه الظروف . وكان وجهاً لوجه كذلك أمام التدخل الأجنبى الذى ظهر بأشكال كثيرة من أهمها الوزارة الأوروبية . ومعناها فى التاريخ المصرى الحديث اشتراك عضوين أوروبيين فى الوزارة المصرية ، أحدهما فرنسى والآخر إنجليزى ، ومن أهم أشكال هـذا التدخل كذلك منافسة العناصر الشركسية للعناصر الوطنية فى الجيش ، وفى وظائف الحكومة ، وفى المجالس النيابية كما قدمنا . فامتلأت قلوب المصريين شعوراً بالكراهية الشديدة لهؤلاء الأتراك الشراكسة الذين ظفروا بثقة الحاكم الشرعى ثم نجحوا فى إيغار صدره ضد الوطنين . وكان ذلك سبباً من أهم أسباب الثورة العرابيـة التى قامت تطالب بحقوق المصرين فى مناصب الجيش . كما قامت هـذه الثورة لغرض أهم من الغرض الأول ؛ وهو هنا المطالبة بدستور سليم يكون على غرار الدساتير الأوروبية الحديثة ، ومن ثم ذهب التاريخ إلا أن الثورة العرابية ثورة دستوريه فى جوهرها .

وأخيراً شهدت صحافة المدرسة الثانية التى نؤرخ لها فى هذا الكتاب فى أواخر عهدها بداية الاحتلال البريطانى نتيجة لفشل عرابى فتشرد كثيرون من رجال هذه الطبقة كما تشرد الكثيرون من رجال الثورة العرابية ذاتها . واختفى الزعماء الصحفيون فترة من الميدان ، هى الفترة التى أصيبت فيها النهضة المصرية والأقلام المصرية والصحافة المصرية بشلل مؤقت لم يكد يزيد عن عشر سنوات عادت بعدها هـذه الأقلام إلى الظهور من جديد لتقود حركة صحفية كبيرة بدت فى نهاية المدرسة الصحفية التى نؤرخ لها هذا الكتاب . ولكنها بلغت أقصى قوتها على أيدى

المدرسة الثالثة من مدارس الصحافة فى مصر . وهى المدرسة التى كان من أعلامها السيد على يوسف صاحب المؤيد ، والزعيم الشاب مصطفى كامل صاحب اللواء والأستاذ أحمد لطفى السيد محرر « الجريدة » .

* * *

(وبعد) فأود أن أختم هذا الفصل بما بدأته به ، وهو الطابع العام لصحافة المدرسة الثانية فى مصر ؛ فأقول إنه الطابع الاجتماعى لا الثقافى أو السياسى

وتفسير ذلك بإيجاز أنه إذا كانت المدرسة الصحفية الأولى فى مصر تمتاز بالطابع الثقافى البحت . وكانت المدرسة الصحفية الثالثة فى مصر تمتاز بالطابع السياسى ، فإن المدرسة الصحفية الثانية التى نؤرخ لها هذا الكتاب تمتاز بالطابع الاجتماعى .

فهذا أديب إسحق — من تلاميذ هذه الطبقة — يعلم الناس معانى الحرية والوطن والوطنية ، ويصبح بذلك حلقة الاتصال بين المدرسة الأولى والمدرسة الثانية .

ثم هذا هو الشيخ محمد عبده يقيم من نفسه مصلحاً اجتماعياً لبلاده مصر ؛ حتى إذا نفى إلى باريس والتقى فيها بالسيد جمال الدين الأفغانى انقلب مصلحاً اجتماعياً للعالم الإسلامى كله .

ثم هذا هو السيد عبد الله النديم يصدر جريدته (التنكيت والتبكيت) لغرض أساسى هو الإصلاح الاجتماعى .

ثم هذاهو إبراهيم المويلحى من رجال هذه الطبقة الثانية من طبقات الصحفيين فى مصر يسلك نفس السبيل ، وينادى بإصلاح الأزهر من جانب ، وإصلاح المجتمع المصرى الذى خضع لتيارات أوربية جديدة من جانب آخر .

وهكذا غمرت موجة الإصلاح الاجتماعى جميع الصحف المصرية التى صدرت فى تلك الفترة وكانت صدى لاحتياجات الشعب المصرى بعد إذ تم تحوله إلى الحالة الجديدة التى وجد نفسه فيها خاضعاً لتأثيرات الحضارة الأوربية يصالحها حيناً ، ويخاصمها حيناً ، ثم يعقد الصلح النهائى بينهما فى نهاية الأمر .

الفصل الثانى

حياة أديب إسحاق

(١٨٥٦ — ١٨٨٥)

لم تكن فى مصر أو الشرق جامعات فى القرن الماضى — وذلك باستثناء الجامعة الأزهرية — وكانت هذه الأخيرة من الركود على نحو ما وصفنا فى الجزء الأول من هذه السلسلة . ومع ذلك فقد يعجب الباحث من أولئك الكتاب الذين أنجبهم الشرق العربى فى ذلك القرن ، كيف نشئوا أنفسهم هذه التنشئة الأدبية القوية . بل كيف كشف لهم فى أنفسهم عن تلك المواهب ، التى انتفع بها الشرق العربى فى أنسب وقت لهذا الانتفاع .

وهذا فتى من فتيان تلك الحلبة (وهو أديب إسحاق) ، ولد بدمشق عام ١٨٥٦ للميلاد ، ثم أدخله أبوه مدرسة « الآباء العازاريين » حيث تلقى مبادىء اللغتين العربية والفرنسية ، وفى تلك السن المبكرة التى لم تنس بعد عهد الفطام يلفت الطفل نظر أستاذه فى اللغة العربية ، حتى يقول أستاذه لأبيه يوما ما : « إن ابنك هذا سيكون قوالا » يريد شاعراً ، لكثرة ما كان يرد من كلام هذا الصبى مسجوعا عفو القريحة . ثم سرعان ما حقق الطفل نبوءة أستاذه ، فتعلق بالشعر ، ونظم القصائد وهو بعد لم يتجاوز العاشرة من عمره .

وقيل أن أسرة الطفل تعرضت بعد ذلك للتعطل ، واحتاجت يومئذ إلى معونة هذا الصبى . فالتحق وهو فى الحادية عشرة من عمره بخدمة « الجمرك » . وكان راتبه إذ ذاك لا يزيد على مائتى قرش .

فهل كان اضطلاع الصبى بتبعات أسرته فى تلك السن المبكرة ، سبباً فى حدة المزاج التى وصف بها فيما بعد ؟ أم كانت هذه فى مزاجه طبيعة فيه ولدت معه ؟ لست أدرى .

مهما يكن من شيء ، فإن هذا العمل الذى اشتغل به الصبي لم يكن ليشغله عن صوغ الشعر ، وعمل الموشحات ، ونحو ذلك من الجهود الأدبية التى كان يملأ بها وقت فراغه .

ثم عرض لوالده بعد ذلك السفر إلى بيروت ، والاشتغال بخدمة « البوسطة العثمانية » ، وهناك استدعى الوالد ابنه ليلحق به ويعينه فى عمله ، فسافر الصبي فى الخامسة عشرة من عمره إلى بيروت ، تنفيذاً لأمر والده ، وهناك تعرف هذا الصبي الشاعر بطائفة من رجال الأدب ، وكانت له معهم مطارحات ومراسلات شعرية .

واشتهر أمر الفتى فى بيروت . ولفت إليه أنظار الناس هناك ، ثم نزعت به نازعة العلا إلى الاشتغال بفن الكتابة ، فتولى تحرير جريدة التقدم . وذلك بعد نشأتها بزمن قليل ، وجدد فى هذه الجريدة ، وملأها بكثير من فصوله الأدبية ، التى كان لها أكبر الأثر فى ترويض قلمه ، وإعداده للجهاد الصحفى الذى كان ينتظره فى حياته المستقبلة . ثم لم يكتف الفتى بذلك حتى سمت نفسه فى بيروت إلى المشاركة فى التأليف الأدبى ، كما سنذكر ذلك فيما بعد . ولم نلبث بعد ذلك أن رأينا هذا الفتى عضواً عاملا فى جماعة « زهرة الآداب » ، وقد كشفت هذه الجماعة الأخيرة عن موهبة ثالثة من مواهبه ، هى موهبة الخطابة ، وأتاحت له مساجلات هذه الجماعة فرصة المران فى هذه الناحية . كل ذلك وسنه دون العشرين . وكان موضوع أول خطبة ألقاها فى جماعة زهرة الآداب «اليونان والرومان» ، ثم ألقى بعد ذلك خطاباً ومحاضرات كثيرة فى موضوع « التعصب والتساهل » ، وموضوع الحرية ، وموضوع « نابليون الأول هل كان خيره أكثر من شره » الخ .

وفى بيروت كان الفتى قد ترجم رواية « أندروماك » لراسين ؛ وذلك بإشارة من قنصل فرنسا هناك ، بل إنه نظم أشعار هذه الرواية ، وقام بتدريب الممثلين على أدوارها ، وذلك فى مدى ثلاثين يوما ، ثم مثلت الرواية ؛ وخصص ريعها لمساعدة البنات اليتيمات فى المدينة .

وسافر الشاب بعد ذلك إلى الإسكندرية ، بمشورة بعض أصدقائه . وهناك ترجم رواية « شرلمان » ، وأعاد النظر فى « أندروماك » ، ولقيت الروايتان رواجا عظيما .

ثم لم نلبث أن رأينا هذا الفتى بالقاهرة ، وبها رجل الشرق وواحده السيد جمال الدين الأفغانى ، فاتصل به أديب إسحاق ، وحضر كثيراً من دروسه فى المنطق والفلسفة ، وتوسم السيد جمال الدين فى هذا الشاب النجابة واللسن وحسن الكتابة ، فأوعز إليه يومئذ أن ينشىء جريدة مصر ، فقام بإنشائها أديب إسحاق عام ١٨٧٧ ، وقيل إنه لم يكن فى جيبه يومئذ أكثر من عشرين فرنكا !.

وأقبل الناس على هذه الجريدة ، ومالوا إليها ، وبقيت إدارة الجريدة قائمة بالقاهرة حتى أشار عليه بعض أصدقائه أن ينقل إدارتها إلى الإسكندرية ؛ فوافقهم على ذلك ، وشاركه فى تحريرها يومئذ صديقه « سليم النقاش » ، وبذل الرجلان فى هذه الجريدة جهداً لغوياً مشكوراً ، لا يترك مجالا للشك فى عظم الدين الذى لها فى عنق اللغة والأدب . وكان أديب إسحاق – وهو بالإسكندرية – يشترك فى تحرير القسم الفرنسى من جريدة « مصر الفتاة » ، وله فيها بحوث قيمة ، أهمها بحث بعنوان «سكون الأمة المصرية بإزاء التاريخ» كتبه بالفرنسية ، وترجمه بعد ذلك بنفسه إلى اللغة العربية (١) .

ولم يكتف الأديبان – إسحاق والنقاش – بذلك بل اشتركا معاً فى تحرير جريدة أخرى اسمها « التجارة » ، أصدراها أسبوعية ، كما كانت جريدة « مصر » أسبوعية أيضاً . فكانتا فى الحقيقة من أقوى دعائم النهضتين القومية والأدبية ، ثم دعت شئون وأحوال إلى إلغاء الجريدتين معاً :

وربما كان من أهم هذه الأحوال التى نشير إليها تعرض أديب إسحاق فى جريدته «التجارة» لنقد الحكومة المصرية نقداً جارحاً فى أمور كثيرة ، كاعتمادها

---

(١) ظهرت هذه الصحيفة بالإسكندرية فى عام ١٨٧٩ وكانت لسان حال الجمعية السرية التى أنشئت ذلك باسم (جمعية مصر الفتاة) وكان من أعضائها أديب إسحاق والسيد عبد الله النديم.



أديب إسحاق

١٢٧٣ – ١٣٠٢ هـ

١٨٥٦ - ١٨٨٥ م

على الأجانب إلى درجة كبيرة ، فقد وصف أديب إسحاق ذلك بأنه « بربرية أوربية لا يجوز السكوت عليها ، لأن القوم نازعونا الأرض المجبولة بدم آبائنا ؛ وأصبحوا أمراء فى بلادنا الخ » . ثم عادت الجريدتان فظهرتا ، ومضت كل منهما تناضل عن قضية الوطن ؛ حتى عطلت أولاهما « مصر » لمدة أسبوعين ، وبقيت « التجارة » وحدها فى الميدان ، وطفقت تقابل قرارات الإلغاء والتعطل بازدراء وعناد ، وأمعنت فى خطتها التى ترى إلى حماية مجلس النواب من نفوذ الوزيرين الأجنبيين وهكذا هددت « التجارة » هى الأخرى بالتعطيل فكتبت فى عددها الصادر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٧٩ تقول :

والتجارة تحسب حب الوطن دينا ؛ والمدافعة عنه جهاداً ؛ فإن عاشت فيه فهى سعيدة ، وإن ماتت فهى شهيدة ، ولقد آتاها الله النعمتين وأتاح لها الحسنيين ، فعاشت به ، وماتت عليه . وستبعث بعد أسبوعين رافلة فى ثوب الشهادة ، مزينة بحلى السعادة ، وعلى رغم أنوف حاسديها الذين أولوا كلامنا بما لم نقصد وحاولوا إطفاء نور الحق ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المبطلون » .

ولكن أديب إسحاق بعد إذ ألغيت جريدته التجارة ، فكر فى السفر إلى فرنسا فسافر إلى باريس مدينة النور ؛ حيث لاذ بموطن الحرية ، ويومئذ كان الخديو قد نفى السيد جمال الدين الأفغانى من مصر ، وتخلص منه ، وكان قد أقال الوزارة المصرية ذات الميول الوطنية ، ونعنى بها وزارة شريف . وإذ ذاك أيضاً كان الخديو قد أسند الوزارة إلى رياض باشا ، فقبل هذا أن يتولى رياسة الوزارة ؛ وكان قبوله لها فى تلك الظروف معناه العودة إلى الحكم الاستبدادى . وفى ذلك الوقت ألفت فى حلوان الجماعة المعروفة باسم « الحزب الوطنى (١) » ، وقيل إن هذا الحزب فكر يومئذ فى أن يرسل على نفقته أديب إسحاق إلى باريس ، ليصدر هناك جريدته « مصر القاهرة » .

وكان رياض هو الذى أمر بإلغاء جرائد أديب إسحاق ، فرحل هذا الأديب

---

(١) وهو غير الحزب الوطنى المنسوب إلى مصطفى كامل. وهذا الاسم يقابل (حزب السراى) الذى كان يضم إليه الأتراك والشراكسة، على حين كان الحزب الوطنى يضم إليه الفلاحين المصريين (راجع التاريخ السرى لاحتلال الإنجليز مصر. للمستر بلانت : ص ٣٧٨ ، وراجع برنامج الحزب الوطنى ـــ الترجمة العربية : ص ٤٤٠).

الصحفى إلى فرنسا والغيظ يأكل قلبه ، والثورة تحتدم فى نفسه ، والدم يغلى فى عروقه والمرجح أن ذلك عام ١٨٨٠ ميلادية . وهناك فى باريس صب الرجل جام غضبه أولا على رياض باشا ، فلم يكد يخلو عدد واحد من أعداد صحيفته من سخرية خبيثة ، تناولت كل جانب من جوانب هذا الرجل ، وتعرضت لخلقه وعرضه ، وهذه النقطة الأخيرة هى الجانب السىء فى كتابة أديب إسحاق ، أو الخطة الخبيثة التى لا نوافقه عليها ، فإذا صرفنا النظر عن هذه النقطة الأخيرة ، ونظرنا فى صحافة أديب إسحاق ومقالاته التى كتبها فى باريس ، فهنا نبدى إعجابنا به وبقلمه ، على النحو الذى سنشرحه فيما بعد .

والعجيب أن أديب إسحاق بدأ يحرر هذه الصحيفة فى باريس بخط يده ، وينسخ منها نسخاً عديدة بخط يده ، ولم يشأ أن ينتظر حتى يظفر بالمطبعة التى تقوم له بهذا العمل وكان يكتب فى صدر صحيفته دائماً كلمات «مساواة ،حرية، إخاء» وجاء فى الأعداد الأولى من هذه الجريدة قوله :

« . . . ما تغيرت الحقيقة بتغيير الرسم ، ولا تغيرت الصحيفة بتغيير الإسم ، بل هى . . مصر خادمة مصر (١) . . . » .

ومنذ يومئذ وهذه الجريدة متنفس لهذا الشاب الثائر، الذى أحس بحريته فى باريس ، وشعر بأنه أصبح أشبه ما يكون بوحش قد أطلق سراحه . وهناك فى باريس أقام أديب إسحاق قرابة تسعـــة أشهر ، أفاد فيها من الفوائد السياسية والأدبية شيئاً كثيراً ؛ من ذلك أنه تعرف بكثير من رجال فرنسا ، حتى كتبت عنه بعض الصحف الفرنسية . ومن ذلك أنه شهد مجلس النواب الفرنسى ، ورأى بنفسه كيف يخطب الخطباء فى نقد الحكومة ، وكيف يعارضونها فى حرية وصراحة ، وكيف يوجهونها توجيهاً سليما فى الناحيتين السياسية والاجتماعية . وكان ذهنه فى هذه الحالة ينتقل سريعاً إلى مجلس النواب المصرى ، وكانت تسوؤه الموازنة بينه وبين مجلس النواب الفرنسى ، فكان يعد من المقالات اللاذعة فى نقد نوابنا المصريين ما سنرى أمثلة يسيرة منه بعد قليل .

---

(١) انظر عدد ديسمبر ١٨٧٩ ، وهو بدار الكتب المصرية .

ولم ينس أديب إسحاق فى أثناء مقامه بفرنسا أن يكتب المقالات الكثيرة عن الشرق ، ولم ينس كذلك أن يفرغ لتأليف كتاب له باسم (تراجم مصر ، فى هذا العصر) . والظاهر أن الكتاب الأخير قد من جملة ما فقد من آثاره ، والظاهر أيضاً أنه تعرض فيه لكثير من الشخصيات المصرية ومن أهمها شخصية رياض باشا التى تناولها على عادته بالنقد والتجريح

وانتهز أديب فرصة وجوده بباريس فزار المكتبة الأهلية زيارات كثيرة ، واطلع فيها على طائفة كبيرة من المؤلفات الفرنسية والمخطوطات العربية . ويقال إنه نسخ منها قطعاً ليست باليسيرة وفى باريس بقى هذا الشاب الممتلىء بالحياة حركة دائمة ، ونشاطاً مستمراً ، وجذوة لاتنطفىء حرارتها ، حتى ظهرت عليه أعراض مرض قديم ، كان قد بدأ معه وهو بالإسكندرية ، وهذا المرض هو مرض الصدر . وحين سافر إلى باريس كان البرد قارصاً ، حتى قيل إن ميزان الحرارة قد سجل فيها درجة الثلاثين تحت الصفر . وكان أديب يستجيب فى باريس لدواعى الشباب ، فكان لا يرى إذ ذاك إلا مخموراً . . . . وأخيراً عاد هذا الشاب المصدور إلى بيروت . وكان عليه أن يأخذ نفسه بالراحة والهدوء ، ولكن أنى له ذلك وهو لم يتعود قط أن يستريح . فهذا هو صاحب جريدة « التقدم » يعرض عليه أن يتولى تحريرها للمرة الثانية ، فيعاوده الحنين إلى أول جريدة عمل بها فى حياته ، وسرعان ما يقبل على تحريرها ، فيسكد خاطره ، ويقسو على نفسه فى كتابة المقالات الشائقة ، والفصول الضافية سنة كاملة .

ثم دعاه إخوانه وأصدقاؤه فى مصر إلى اللحاق بهم ، واتصل دعاؤهم له وإلحاحهم عليه ، فلم يجد أديب بداً من الخضوع لهم ، والذهاب إلى مصر ، فخرج من بيروت ، وودعه فيها أصحابه توديعاً حاراً .

ووصل إلى القاهرة ؛ وعين بها ناظراً لقلم الإنشاء والترجمة بنظارة المعارف ، وسعى حتى حصل من الحكومة المصرية مرة أخرى على ترخيص له بنشر جريدته « مصر » فأصدرها أولا فى شكل كراسة ، ثم أعاد مظهرها

الأول فى أربع صفحات . وأشارت إلى ذلك جريدة « المفيد » لمحررها « حسن الشمسى » وذلك بعددها الصادر بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٨٨١ — قالت :

« سينشأ فى نظارة المعارف قلم تحرير وترجمة ، يكون المتعلمون فيه هم التلامذة الذين تمموا الفنون التى تدرس فى المدارس العالية ، وصاروا صالحين للخدمة فى دوائر الحكومة الخ ، وقد تعين لرياسته حضرة الجهبذ الحاذق ، والكاتب الماهر ، صديقنا أديب إسحاق . ويقال إنه مع ذلك سيصدر جريدته الملغاة « مصر » ، لكن على شكل كراسة تصدر فى العاصمة سواء كانت سياسية أو أدبية ، تاركة ذكر الأخبار الطارئة الأسبوعية أو اليومية إلى قرينتها : جريدة العصر الجديد ، وجريدة المحروسة . ولا شك أن هاتين الخدمتين سيقوم بهما هذا الفاضل فوق مايؤمل ؛ فتروج بذلك صناعة الأدب ، وتتغير عما قليل هيئة الكتابة فى الدواوين إلى الفصحى ؛ وتنشر فيما بيننا الكتب العلمية المؤلفة بلغة الأجانب . التى تشوقنا إلى رؤيتها لابسة الحله العربية ؛ ولم يظفر بذلك من عهد وفاة المرحوم رفاعة بك ، لفقدان معلمى الترجمة ، فحبذا المشروع ، ونعم الغرض » .

ثم أضيفت إلى أديب إسحاق وظيفة أخرى إلى جانب الوظيفة الأولى إذ عين كاتباً لأسرار مجلس النواب . وإذ ذاك منحه الخديو رتبة البكوية من الدرجة الثالثة . قال أخوه عونى إسحاق فى ذلك :

« ومما اتفق له — رحمه الله — أنه لما التمست له الرتبة المشار إليها . سعى أحدهم فى إيغار صدر الخديو عليه ، ليحول دون صدور البراءة . فاتصل نبأ السعاية بأديب إسحاق — وكان مريضا ملازما فراشه — فهب على الفور متأثراً منفعلا ؛ يغالب المرض والضعف ؛ وجاء إلى إدارة المطبعة التى كانت تطبع فيها جريدة « مصر » ؛ فرأى الجريدة تحت الطبع ؛ فاستوقف طبعها . وكتب فى بضع دقائق مقالة عنوانها « الجاسوسية » . جاء فيها قوله : « أو ما رأيت فيمن رأيت دميا قميئا مسيخا ضائع نور الحياء ناضب ماء الوجه زائغ إنسان العين

معلول عقدة اللسان . سريع حركة القدم ، جرباوى لون السحنة كلبى الطباع فيما عدا الأمانة ، خنزيرى النفس ؛ يرى فى الساعة الواحدة على عشرة أبواب ، وينطق فى اليوم الفرد بمائة لسان ساعيا إلى زيد بما يقول عمرو . وإلى عمرو بما يفعل زيد وإلى خالد بما يقول ويفعل الإثنان متجسسا للكل فى الكل على الكل كاذبا مداهنا مواربا ، محتالا مخالبا ، ختالا منافقا ، مغتالا أعراض الكل ، كاسبا مستهزئا ؛ سالبا غاضبا ضاحكا من الكل . فهذا المسخ من تنزلات إبليس أخزاه الله بين عباد الله . فإن رأيته بين أقدامك ، فارفع أطراف الثوب عنه ، وإن مسه فطهره من رجسه تطهيرا ، ثم ارمه بحجر الاحتقار ، إنه الكلب الأجرب ، فلاتخش منه هديراً . . الخ (١) .

تلك حادثة بسيطة ، وهى مع بساطتها تصور لنا جانبين من جوانب أديب إسحاق : أحدهما العنف الذى جبل عليه وأضرّ به . والثانية الموهبة الكتابية التى كانت تطاوعه . وتمده أحيانا بقوة غريبة ، يتغلب بها على المرض والضعف .

وهكذا كان أديب فى الواقع قاسياً على نفسه طول حياته . ومن الناس من يحملون على أنفسهم ، ويتكئون على أعصابهم ، إلى حد يودى بحياتهم ، ويصورهم للناس بصورة النار التى تأبى إلا الإحراق ، أو يتم إخمادها ، أو تصير رمادا .

وأخيراً فكر أديب إسحاق — أو على الأصح أشير عليه بذلك من الجهات العليا — أن يترك العمل فى الجريدة ، ليتفرغ لمهام منصبه ، فأحال امتيازها لأخيه عونى إسحاق ، وكتب يومئذ يودع جريدته ، فقال :

« قفى ودعينا قبل وشك التفرق »

وإن كنت أرجو الحياة إلى حين نلتقى ، فما باعدتك اختلافاً إلى سواك ، وما فارقتك انحرافا عن هواك ، فإننى :

---

(١) انظر الدرر لعونى إسحق ط بيروت ص ٢٤١

خلقت ألوفاً لو رجعت لصحتى لفارقت سقمى موجع القلب باكياً (١)

فكيف وأنت الحديقة التى غرست فيها غصون آدابى ، وبذلت ماء شبابى ، وأنفقت دينار قوتى ، وصرفت مدخر صحتى ، حتى نمت هاتيك الأغصان ، وصار عليها من كل فاكهة زوجان ، وأنت الطريقة التى أدرعت فى سلوكها الليل ، وشمرت لها الذيل ، وعودت بها التقدم خوض الأهوال ، وعلمت النفس اقتحام الأوحال ، حتى سهل الصعب عندها وهان ، فلحقت بمنزلة أهل العرفان وأنت الصديقة التى واستنى فى الضراء ، وزادتنى فرحاً فى السراء . وصرفت عنى الضجر فى الوحدة ، وأزالت عنى الكدر فى الشدة ، حتى اجتنبتنى صروف الحدثان ، ولم يبق للخوف فى القلب مكان ، وأنت الرفيقة التى ألفتها والعمر فى نضرته ، والشباب فى مبتدأ قوته ، فلزمتنى فى الإقامة ، مع الهناء والكرامة ، وصحبتنى فى الغربة ، أيام العناء والنكبة ، حتى عاد لنا الزمان ، بعد البعد والهجران .

ولكنها خدمة حبست بقية العزم عليها ، والتزمت الانقطاع إليها ، وهى من لازم الوفاء ، وهى حق واجب القضاء ، على أنها من تجلياتك فى المقصود منها ، ومن مظاهرك فى الناشىء عنها ، فهى أنت ولكن تغير الاسم ، وأنت هى ولكن تبدل الرسم . فبلغى — يارعاك الله — أولياءنا المحسنين ، ونصراءنا الخيرين ، سلام محب يذكر نعمتهم ، ولا يهمل إن شاء الله خدمتهم :

وإن تذكر أياماً بها سلفت يقـــول بالله يا أيامنا عودى (٢)

وقامت الثورة العرابية فى مصر ، وكان أديب إسحاق يتصل بجريدته من حين لآخر ، ويحرر فيها مقالات شتى ، وهنا قد يعجب الباحث من أن أديباً كان إذ ذاك من أصحاب الدعوة إلى الاعتدال فى طلب الحرية ، وأن ذلك أسخط عليه رجال الثورة العرابية ، ومنع جريدته من أن تكون لسان حالها : واستعاض الثوار يومئذ . . . بصحف أديب إسحاق صحفاً أخرى أهمها : جريدة «المفيد»

---

(١) عبث الكاتب ببيت شعر للمتنبى يقول فيه :

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

(٢) أنظر الدرر ص ٣٨٦ — ٣٩٠

وجريدة « الطائف » . بل إن جريدة المفيد كتبت فى عددها الصادر بتاريخ ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٢ بعنوان « الجرائد الشامية » تقول :

« وكل من جريدة الأحوال والمحروسة ومصر أتانا أصحابها وجيوبهم أفرغ من فؤادهم من الوطنية التى ادعوها ترويجاً لمقاصدهم ، فأنشئوا بين أيدينا جرائدهم ودعوا باسم الوطنية والخدمة الإنسانية والحال فى سكون . فلما ارتبكت الحال قطعوا ألسنة جرائدهم ، ورجعوا إلى بلادهم بجر الحقائب (١) . فنعم الأحباب لازمونا فى الهناء وفارقونا فى الشقاء » . وهكذا أخذت جريدة المفيد تهاجم الصحافة السورية فى مصر ، فاضطر كثيرون من السوريين إلى الهجرة من مصر . وساء ذلك جريدة « الطائف » . فراحت تعالج الموقف وكتبت مقالا بعنوان « المصريون والشاميون » ، سمت فيه هجرة السوريين إلى بلادهم نزوحا سيعودون بعده إلى مصر بسلامة الله (٢) .

وكان من أثر هذه الحوادث أن قطع أديب إسحاق — وهو موظف بالحكومة المصرية — كل صلة له بجريدة مصر . ولم يبق من الصحف السورية يومئذ غير جريدة (المحروسة) لصاحبها سليم النقاش . إذ بقيت هذه الجريدة الأخيرة موالية للحكومة (٣) حتى عطلها عرابى حوالى ثلاثة أشهر . وأخيراً هاجر أديب إسحاق إلى بيروت فى جملة من هاجروا إليها من السوريين . وهناك تولى تحرير جريدة (التقدم) للمرة الثالثة فى حياته . وهناك أيضاً قام أديب إسحاق بطبع رواية « الباريسية الحسناء » . وكان قد ترجمها فى أوائل صباه .

وبعث أديب إسحاق وهو فى بيروت بقصيدة طويلة إلى شريف باشا وهو رئيس الوزارة المصرية التى أسقطها الثوار . وتلتها وزارة محمود باشا سامى

---

(١) كناية عن امتلاء جيوبهم بالمال .

(٢) جريدة الطائف فى ٢١ يونيو سنة ١٨٨٢ .

(٣) كانت المحروسة لسان حال شريف ثم عمر لطفى الذى كان محافظا للاسكندرية عند حدوث الاضطرابات بالإسكندرية فى ١١ يولية سنة ١٨٨٢ وهى الاضطرابات التى أثبتت خيانة عمر لطفى وأنه كان ضالعاً مع الخديو والإنجليز .

البارودى . وفى هذه القصيدة يصف لنا أديب إسحاق حوادث الثورة العرابية . وخاصة ما وقع منها فى عام ١٨٨٢ . ونعنى بذلك ضرب الإسكندرية فى الحادى عشر من شهر يوليو من تلك السنة . ومن هذه القصيدة قوله :

« عج بى على تلك الطلول وناد — أنى تحمل أهل هذا الوادى ؟
هل صادهم شرك الردى فأبادهم — صرف أناخ على ثمود وعاد ؟
ما غادروا الأوطار فى أوطانهم — مذ حاذروا غدر الزمان العادى

ومنها .

يا وارد الإسكندرية طامعا — بمنافع الإصدار والإيراد
كانت ملاذ الخائفين فأصبحت — والخوف منها مقصد القصاد
كانت مراتع نعمة فغدت وما — فيها سوى البأساء للمرتاد
فأبادها جهل خفى ما بدا — مثل له من حاضر أو باد
جهل الذى رام الأمانى وهى فى — قمم الجبال وكان دون الوادى
وغدا وما لقى الثعالب عمره — يبغى اقتحام عرائن الآساد
وسعى إلى الشورى ولكن خالها — لما تهتك برقع استبداد
شقيت بزلته الجموع وطالما — أشقت جموعا زلة الأفراد
وتلاه فى سبيل الغواية معشر — زلوا وضلوا حيث ضل الهادى
غرسوا الجناية فى الجنون فما جنوا — مما جنوه غير شوك قتاد
خلعوا الشعار المستعار من الحيا — فتمموا عاراً إلى الآباد
فأتاهم رعد المدافع مبرقا — فنبوا عن الإبراق والإرعاد
وسطوا على المستأمنين خيانة — لم تشف منهم غلة الأحقاد
ورموا بنارهم الديار وبددوا — ما استجمعت من طارف وتلاد
نكر عرفنا منه أن لبعضهم — بز اللصوص وبزة الأجناد
ونقيصة يسعى بها أبناؤهم — لمقابر الآباء والأجداد

إلى أن قال :

ياهولها من ساعة مرت بها — زهقت به الأرواح من الأجساد

نشروا عراة واجفين فيومهم يوم الميعاد أتى بلا ميعاد
والنار موقدة سرت من خلفهم فكأنها حيات بطن الوادى
والجند شردهم قتال عدوهم فرقا فلم يتجلدوا لجلاد
فهم اللصوص وإنهم قد أوهموا أن ليس ما ارتكبوه غير جهاد
وبلادهم قد نالها من عارهم ما لم يحق فى عهدنا ببلاد

والقصيدة طويلة نكتفى منها بهذه الأبيات التى وصف فيها الشاعر هذا الحادث وبكى مدينة الإسكندرية بعد إذ تعرضت لقنابل الإنجليز ، وسخرية الشاعر سافرة فى أكثر قصيدته من العرابيين حيث قال :

جهل الذى رام الأمانى وهى فى قمم الجبال وكان دون الوادى

كما أظهر الشماتة بهم وبزعيمهم حين قال :

شقيت بزلته الجموع وطالما أشقت جموعا زلة الأفراد

كما وصف الشاعر هول تلك الساعة الرهيبة ؛ التى فر فيها جند عرابى من وجه الإنجليز . وأساءوا فى طريقهم إلى كل من لقيهم من المصريين :

والجند شردهم قتال عدوهم فرقا فلم يتجلدوا لجلاد
ونضوا على هذا السبيل بواترا فى الحرب ما نضيت من الأغماد

وأخيراً قذف العرابيين بقوله وقد أساء فى حقهم إساءة بالغة :

فهم اللصوص وإنهم قد أوهموا أن ليس ما ارتكبوه غير جهاد

ومهما يكن من شىء فهو رأى رجل سورى فى الثورة العرابية ، ولسنا فى مقام المحاسبة له أو لرجال الثورة ، ولكننا فى مقام العرض لهذه القصيدة التى نظمها يومئذ ، وهى كما رأيت قصيدة رجل محنق شديد الغيظ قد شفى بعد غيظه إخفاق هذه الثورة ، والقبض على رجالها ، وإن كان قد آلمه ما انتهت إليه من احتلال الإنجليز مصر ، واحتلال الأمن بها ، لولا حزم نفر من عقلائها كشريف باشا الذى أهدى إليه هذه القصيدة وقال له فى نهايتها :

عيبت فلولا السابقون ومجدهم وبقـــاء من ولوا من الأمجاد
ومؤيدٌ ملكٌ أمـــيرٌ عادلٌ أربى بمفرده على الأعداء
وعصابةٌ كانت قلائد فضلهم أبهى من الأطواق فى الأجياد
لم تلق فى مصر ومصر عزيزة من قائل : هاذى البلاد بلادى

واشتدت علة الصدر على أديب إسحاق وهو فى بيروت ، فأشار عليه أطباؤه بالذهاب إلى مصر مستشفياً ، فالتمس الإذن بذلك من الحكومة المصرية ، فأذنت له ، وأقام بالقاهرة أياماً قليلة ، ثم عاد إلى الإسكندرية وأقام فيها أياماً بمحطة الرمل ، لالتماس العافية ، « ولكن ضاقت عليه سعة العمر ، فلما لم يرج الأطباء له شفاء أقنعوه بالعودة إلى أهله فى ثغرة بيروت . فعاد إليها . وذهب إلى مصيفه فى الحدث « بجبل لبنان » ، ولم يمض على عودته ثلاثون يوماً حتى توفاه الله غير متجاوز من العمر تسعة وعشرين ربيعاً » « كان رحمه الله طويل القامة والعنق مع انحناء قليل ، أبيض اللون . براق العينين ، عريض الجبهة بارزها ، جهورى الصوت ، طلق اللســان ، ثبت الجنان ، لطيف الحديث ، ذكياً نبيهاً ، مقداماً حاد الذهن « أبى النفس ، سليم القلب ، حسن الطويلة » .

« كان زهرة الأدب فى الشام ، وريحانة العرب فى مصر ، لو فسح الله فى عمره لخدم الأوطان خدمات قل أن يستطيع سواه مثلها الخ » .

قالت مجلة الهلال فى نهاية تأبينه :

« وإنما يؤخذ عليه رحمه الله تساهله فى طرق معاشرته ، وإطلاق هوى النفس فيما تسوق إليه الشبيبة حتى أثر ذلك فى مزاجه ، وعجل منيته ، فقصفت غصناً رطيباً لم يبلغ ثلاثين ربيعاً ، ولاريب عندنا أنه لو عمل بالقانون ، وأصغى لنصيحة الشيخ الرئيس ، لعمر طويلا ، وخدم الأوطنان خدمات قل أن يستطيع الناس مثلها ، ولله فى عبادة حكمة لا تدركها العقول .

وهكذا رثته الصحف فى مصر والشام ، ورثاه رجال الأدب على اختلافهم رثاء حاراً لا يتسع المجال هذا لوصفه ، أو للإلمام به .

الفصل الثالث

أسلوب أديب إسحق

من قراءتنا لحياة أديب إسحاق نعلم أنه كان مثقفاً بالثقافتين العربية والفرنسية، تعلم مبادئهما بالمدرسة، ثم ترك وشأنه فيهما، فحذقهما بجهده الشخصى، وذلك بأسرع مما لو كان بالجامعة حيث المنهج والأساتذة، وبحسبنا أن نعلم أن أديب إسحاق قام بترجمة روايات فرنسية كثيرة، كراوية « أندروماك » ورواية « شرلمان » وهو بعد لم يتجاوز العشرين من العمر.

والحق أن بينه وبين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فروقاً من نواح عدة: منها الثقافة، والخلق، والمزاج. فأما من حيث الثقافة فأديب إسحاق يحذق العربية والفرنسية، وله كتابات ومؤلفات فيهما معاً، على حين أن الشيخ محمد عبده لا يعرف غير العربية، وأما من حيث الخلق فأديب إسحاق أدنى إلى التحلل من القواعد الدينية، فى حين أن الشيخ محمد عبده رجل ورع القلب نقى النفس شديد الغيرة على الدين وآدابه كما سنعرف. وأما من حيث المزاج فأديب إسحاق رجل ثائر الأعصاب، سريع الهياج، فى حين أن الشيخ محمد عبده هادىء بطبعه، لا يهتاج إلا إذا اتصل بأستاذه السيد جمال الدين الأفغانى كما سنشرح ذلك فيما بعد.

على أن هناك فرقاً أهم فى نظرنا من جميع الفروق المتقدمة، وهو فرق من ناحية الأسلوب. ويمكن أن يتلخص هذا الفرق فى كلمة واحدة لها تفصيلها فيما بعد، وهى أن أسلوب أديب إسحق أكثر جمالا من أسلوب الشيخ محمد عبده. وهما بعد يتفقان فى قوة التأدية. ومصدر الجمال فى أسلوب أديب إسحاق أشياء كثيرة، منها سرعة الانفعال عند هذا الشاب، مما يجعل أسلوبه إلى طبيعة الشعر أدنى منه إلى طبيعة النثر؛ ومنها تلوين الكلام عنده بالمحسنات اللفظية والمعنوية، مع قدرة ظاهرة على هذا التلوين فى غير تكلف ممقوت ولا صناعة مرذولة ومنها الثقافة الأجنبية، وهى التى زودت أديب إسحق بالمعانى التى لا سبيل للأستاذ الإمام

إليها . وباختصار نرى أن أسلوب أديب إسحق يلذ الأديب أكثر من الصحفى . وربما كان الأمر على عكس ذلك بالقياس إلى أسلوب الشيخ محمد عبده .

ومما تقدم أيضاً فى ترجمة أديب إسحق نعلم أنه كتب فى الصحف الآتية :

(١) صحيفة التقدم ببيروت(١) .

(٢) صحيفة مصر الفتاة الصادرة بالإسكندرية عام ١٨٧٩(٢) .

(٣) صحيفة مصر الصادرة بالقاهرة ثم الإسكندرية .

(٤) صحيفة التجارة بالإسكندرية .

(٥) صحيفة مصر القاهرة . الصادرة بباريس سنة ١٨٨٠ .

جريدة التقدم :

فأما جريدة التقدم فلم تكن له ، وإنما تولى تحريرها ثلاث مرات فى حياته : الأولى قبل سن العشرين يوم آثر العمل فى الصحيفة على المضى فى مزاولة العمل بالجرك . والثانية بعد عودته من باريس وإنشائه جريدة (مصر القاهرة) فيها . والثالثة بعد عودته من مصر عقب قيام الثورة العرابية ونشوب الفتنة بين المصريين والسوريين ولم نستطع نحن للأسف أن نحصل على نموذج لأديب إسحق من مقالاته فى صحيفة التقدم حين كان يتولى تحريرها المرة الأولى ، وإن كنا نرجح أن أسلوبه فى هذه المرحلة كان أميل إلى السجع ، وأكثر تكلفاً للمحسنات اللفظية .

ولكنه حين تولى تحرير التقدم للمرة الثانية كان أسلوبه قد تكون وتكامل فى مصر ، وازداد فى باريس قدرة على توضيح أفكاره ، ومسايرة انفعالاته . فلما أتى إلى بيروت كان يشارك فى إصدار الجريدة مرتين فى الأسبوع . وإذا ذاك قال فى مقدمة العدد الأول من أعدادها :

النموذج الأول

« تتعدد مظاهر الوجود فى الكائن الموجود ، فيتدرج فى مراتب الكمال بما له

(١) انظر منتخبات جريدة التقدم فى كتاب الدرر ص ٢٧٢ .

(٢) انظر منتخبات جريدة مصر الفتاة فى كتاب الدرر ص ١٢٤

من معدات الكون والبقاء ، والحركة والنماء ؛ فلا تأسف على الحبة مدفونة فى الأرض شتاء ، إنها ستنبت نامية تتوجا [1] ، ولا تبك على الشجرة مجردة فى الخريف ، إنها ستبدو فى الربيع خضراء تسر الناظرين ، ولقد أتى على هذه الصحيفة حين من الدهر دفنت فيه حبة قصدها ، وجرد غصن نفعها بما طرأ عليها من حوادث الأيام ، وعاديات الحدثان . ثم تجلت بهذا المظهر ، ولم تنشأ من العدم البحت ، ولم تبد بعد المحو المطلق ، ولكن تقمصت من الحياة ثوباً جديداً فهى الآن رسول رجائنا إلى الذين عرفنا من أحياء الأدب ؛ تصدر إليهم يوم الإثنين ويوم الخميس من كل أسبوع ، مشتملة على المهم من أخبار السياسة ، والراجح من آراء ذوى النقد ، والنافع من شذور الأدب ، والمأثور من خطرات الألباب ، نجمع فيها السياسات تحصيلا ، ونبسط الأدبيات تفصيلا ؛ لا نسود منها بالرياء وجهاً ، ولا نملأ لها بسفاسف القول وطابا وإن سطراً مما يؤلف بين القلوب لخير من فصل مما تختلف عليه الآراء ، وإن كلمة مما تدعو إليه الحكمة ، لأنفع من كتاب مما تبعث عليه الأهواء . وقد اخترنا لها ما يرى فى هذا المثال من الترتيب والتبويب ، معولين فيه على عذوبة المورد ، وسهولة المقصد ، وجودة الإيضاح ؛ لا نتكلف لجميع ذلك إلا الإفهام ، ولا نعتمد غير تقدير المعانى فى الأفهام ، من أقرب وجوه الكلام . وما ندعى فى هـذا الأسلوب كمالا ولا إحسانا . إن هو إلا جهد مقل ينطق عن غيرة وإن فاته العلم . ولو فعل كل امرىء ما يستطيع من منفعة لما رأينا على سطح الأرض شقياً . فإذا بلغنا المأمول من القبول ، فتلك يد عندنا لذوى الفضل والحلم ، من أهل العدل والعلم وإلا لحسبنا من العذر بذل الجهد ، ومن التأساء [2] حسن القصد ، مقضياً علينا بالعجز ، ولا نرجم محكوماً علينا بسوء النية ، نعرف بالضعف فى جملة كثير من الأنام ، ولا نرمى بنقص القادرين على التمام ، على أننا فى أيام ليست كالأيام ؛ وموقف ضنك المقام » .

« نعم . إن دولتنا العلية ، حقق الله بها آمالنا وأصلح بعنايتها أحوالنا ، قد وضعت للمطبوعات قانوناً ليناً فى غير ضعف ، ووازعا فى غير عنف ، يؤمن

---

(١) التتوج : التى حان نتاجها .

(٢) الاقتداء .

المستعصم بعروة الحق والصدق ، ولكننا بين أمور عظام ، ومشاكل جسام ، لا يغنى فى مباحثها حسن النية ، ولا تكفى سلامة القصد ؛ فربما انحبس عنا القول من حيث لا نعدم فعالا ، وربما ضاق علينا المجال من حيث نرى مجالا ».

« بل لا ينحبس القول ، ولا يضيق المجال إن للتقدم أنصاراً من أهل الغيرة العلمية ، وأولياء من أهل النجدة الأدبية ، لا يضنون عليه بما يجدون من فرائد فوائدهم ، وفواضل أفضالهم ، وليس ما يجدون من ذلك قليلا .

فانظر كيف بدأ مقاله الافتتاحى بقوله « تتعدد مظاهر الوجود فى الكائن الموجود » معبراً بذلك عن عودة (التقدم) للظهور .

ثم انظر إليه كيف ساق هذا التشبيه المحسوس الذى يدل على أنه أديب ، وهو قوله « فلا تأسف على الحبة مدفونة فى الأرض شتاء ، إنها ستنبت فى الصيف نامية نتوجا (أى كثيرة الإنتاج) الخ .

ثم انظر إلى الكلام الذى يورده الكاتب موارد الحكم كما فى قوله « إن سطراً مما يؤلف بين القلوب لخير من فصل مما تختلف عليه الآراء » ، وقوله « إن كلمة مما تدعو إليه الحكمة لأنفع من كتاب مما تبعث عليه الأهواء » وإلى قوله « ولو فعل كل امرىء ما يستطيع من منفعة لما رأيت على سطح الأرض شقياً » .

وانظر كذلك إلى التضمين فى قوله « ولا ترى بنقص القادرين على التمام » وإلى ختامه فى قوله « نرحم مقضياً علينا بالعجز ، ولا نرحم محكوما علينا بسوء النية » .

مهما يكن من أمر فإن مقالات الكاتب التى كتبها فى جريدة التقدم ببيروت لا تعنينا كثيراً بقدر ما تعنينا مقالاته التى كتبها فى صحفه بمصر ، وأهمها فيما نعلم صحيفتان ، هما : (جريدة مصر) التى قلنا أن مقرها كان بالقاهرة ، ثم انتقل بها إلى الإسكندرية ، و (جريدة التجارة) التى جعل منهـــا رداً لجريدته الأولى وأختاً لهـا . غير أن هذه الأخيرة لم تدم لصاحبها كثيراً إذ عطلت بعد العدد الخامس عشر من أعدادها ؛ بسبب المقالات الثورية التى كان يكتبها أديب بعنف فى هذه الجريدة .

* * *

ولقد كان الموضوع السياسى الهام الذى يشغل بال الصحافة المصرية فى تلك الفترة ، ذاشقين : الشق الأول يتصل بالسياسة الخارجية ، وأهم ما فيها الحرب الروسية التركية ، والشق الثانى يتصل بالأحوال الداخلية المصرية ؛ وأهم ما فيها مسألة الدّين ، وهى المسألة التى عجلت بتدخل الدول الأجنبية ، ومكنت إنجلترا وفرنسا من الإشراف على مالية البلاد ، وجاءت روسيا تزيد الطين بلة ، وطلبت خراج مصر رهناً تسدد منه تركيا غرامة الحرب . فكتبت الصحف المصرية فى كل ذلك ، وكتبت فى موضوع « الحرية » كل بطريقتها الخاصة ، وكانت طريقة أديب إسحق فى ذلك الوقت تقوم على وصف الحريات التى تتمتع بها الدول الغربية ، وكانت ثمرة لجهادها فى سبيل الحصول عليها .

جريدة مصر[(١)] : سنة ١٨٧٧ (٣٠ يوليو : تاريخ صدور العدد الأول)

من أجل هذا كتب أديب إسحق فى جريدة مصر عام ١٨٧٨ — أعنى بعد مرور سنة تقريبا على إنشاء هذه الجريدة مقالا بعنوان (الملك والرعية) تحدث فيه عن الملك الاستبدادى والملك الشورى ، ليصل من ذلك إلى السخرية بنوع الحكم الروسى ؛ ثم قال :

النموذج الثانى

« ولم يكف الروسية بقاؤها مستبدة على حين تحول سائر الدول إلى الشورى ، حتى كانت سبباً فى توقيف غيرها عن ذلك القصد النبيل ، فإنها قد منعت الدولة العثمانية حيناً عن إنجاز ما شرعت فيه من إصلاح دخليتها وتنظيم شوراها بهذه الحرب العنيفة التى دعا إليهـــا الغرور . على أن الدولة العثمانية لم تكن ليمنعها من ذلك مانع ، فإنها لم تهمل ذلك الشأن مع اهتمامها بالدفاع عن وطنها الخ » .

إلى أن قال « وغاية ما أرجوه أن أرى حكومة الدولة العثمانية حكومة شورية ، والله أسأل أن يؤهلنى لصنع الخير فى قومى ، ويجمع على محبتى قلوبهم ، ويعيننى على أن أقيم فى بلادى بعد هذه الحرب الظلمية ، حكومة جيدة تضمن لها مستقبلا حسنا » .

---

(١) كانت جريدة مصر أسبوعية . وأما شقيقتها (التجارة) فكانت يومية ، وصدر أول عدد من أعدادها بتاريخ ٢٣ مايو سنة ١٨٧٨ .

وأثنى أديب إسحق فى هذه المقالة ثناء مستطابا على السلطان . وكان يصدر فى جميع مقالاته فى الواقع عن ولائه له ، ونظره إلى كل مصرى وسورى على أنه عثمانى .

ثم كتب أديب إسحق بعد ذلك فى (الحرب) ، وفى (جرحى الحرب) ، وفى (إعانة الجرحى) ووشى هذه المقالات بالأشعار والمقابلات ؛ فمن الأشعار التى استشهد بها قوله .

النموذج الثالث

الحرب أول ما تكون فتية ... تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشب شرارها ... عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت ... مكروهة للشم والتقبيل

ومن هذه الكلمات فى وصف جرحى الحرب قوله :

فى معترك أومضت فيه بروق المرهفات ، ولعلعت رعود المدافع فتلتها غيوث الكرات ، وسكرت السيوف بخمر من الدم ، فعربدت فى الرؤس . وعقد العثير لملك الموت سرادقا مطنبا بالقنا والخيل ساغبة تقبل ثقالا ، وتعود خفافا ، وكأنها وقد أعياها الفارس حياً غضبت على الإنسان فداست هامه انتقاما . وقد استحيت الشمس من خشونة الإنسان فاحتجبت بحجاب الضباب ، وتململت الأرض من أعماله فزلزل زلزالها ، وكادت تخرج أثقالها ، فارتعد الرعديد ، وثبت الصنديد ، ونادى منادى الحرب من فر من الموت وقع ، ومن كان ينوى أهله فلارجع ، طريح على الأرض جريح ذو كبد حرى ، يستجير بإحدى يديه وفوق الكبد اليد الأخرى ، يذكر خليلة أو « حليلة » آلمه فراقها مع أمل الرجوع ، فما الظن به وقد اختفى نورذلك الأمل ، ووالدة تألمت به حنينا وأرضعته طفلا ، وربته يافعاً ، وسهرت عليه حالماً . ووالداً واساه فى كآبته ، وسلاه فى حزنه ، وتوجع له فى مصابه ، ثم تنجلى له الدنيا بزخرفها وزينتها . فيرى مرير عذابها حلواً ، وكدر مشاربها صفواً . فهذا هو الإنسان الجريح بسلاح الإنسان ؛ المطلوبة مساعدته من الإنسان(١) .

(١) الدرر ص ٩٨—٩٩

النموذج الرابع

ثم كتب أديب إسحاق فصلا بعنوان (الأمة والوطن) . وآخر بعنوان (حرية الأفكار) والأخير موضوع الثورة الفرنسية ، بدأه بقوله :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

بل هى شعلة إصلاح كانت فى كون الدهر فى عالم الضياء والنور . فساقتها يد الحكمة بمعدات الحركة إلى عالم الظهور ، وسرت فى أوربا من جانب الغرب الأقصى ، وكمنت فى ماوراء المانش أياماً وأعواماً ، متنقلة من صورة إلى صورة ، ومن كيفية إلى كيفية ، حتى أعدت لها طريق البروز ، فظهر ضرامها بعد الخفاء ، وانبعث منها جراثيم الضياء ، فغيرت هيئة الأرض ، وحالة الناس . وطهرت ذلك الجانب من الأرجاس : تلك ثورة الفرنسيس الخ إلى أن قال وإنا

نرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام

فإن النهلست فى الروسية ، والسوسيالست فى ألمانيا ، طائفتان قد استفحل أمرهما وعظم شأنهما ، وحسبك أن فتاة من النهلست يقال لها (ساسولتش) قد تجاسرت وهى فى أرض السلطة ، تحت سماء السطوة ، أن ترمى والى الشرطة بالرصاص عمداً . وأنه قام لها بين قومها نصراء وحامون ، وشفعاء ومدافعون ، وأن فتى من الطائفة الثانية يسمى (لهان) قد تجرأ وهو فى أرض القوة تحت سماء العظمة ، أن يرمى الملك الفاتح الكبير بالرصاص ثلاثاً ... الخ ...

ثم أراد الكاتب أن يقول إن الشعلة التى استضاءت بها الثورة الفرنسية قد انتقلت إلى الشرق موطنها الأول ، ولكنه عبر عن ذلك بطريقة أدبية شاقة هى طريقة التكنية ، التى اضطرته إلى الشرح فى غضون المقال ، وذلك حيث قال :

« ثم ذكرت تلك الشعلة وطنها القديم ، فحنت إليه ، ولا غرو أن يحن الغريب إلى وطنه (نعنى الشرق) مقر جراثيم الحركات الدينية والسياسية التى غيرت هيئة الأرض ، وأحوال الإنسان ، فسرت إليه تنبه غافله ، وتفقه جاهله ، وظهرت فى بلاد (أهورا مازدا) بين أبناء (زرودشت) تحت سماء التقاليد (نريد بلاد الفرس) فإن مذهب البابيين نسبة إلى السيد على محمد الملقب (باب

المهدى) قد ظهر فى تلك البلاد منذ نحو ثلاثين سنة ، وعلق بقلوب الناس فتمذهب به جمع كثير منهم ، وأثاروا الفتنة على الحكومة » .

وطفق أديب إسحق يذكر ما يعرفه عن أخبار هذه الثورة الأخيرة ، قائلا إنه إنما يستمد جميع ذلك « من بحر معارف أستاذنا الكبير الفيلسوف الشهير ، درة تاج الحكماء ، وواسطة عقد العلماء الفضلاء ، السيد جمال الدين الأفغانى نزيل المحروسة » .

ومعنى ذلك إذن أن هذه المقالة الأخيرة إنما هى من وحى السيد جمال الدين .

ورأينا له — أى لأديب إسحق — بعد ذلك مقالات أخرى فى جريدة مصر بعنوان (أمانى وطنية) وبعنوان (توفيق مصر) وأكبر الظن أنه قصد فى هذا العنوان الأخير إلى التورية ، وفى هذا المقال أثنى أديب إسحق كثيراً على ولى العهد الأمير توفيق ، وأتى بهذه العبرة التاريخية التى تفسر له حقيقة العظمة فى نظره حيث قال :

النموذج الخامس

« فمن لنا بذى همة علية . ونفس ذكية ، ينصب قسطاس العدل فى محكمة الإنسانية ، ليعلم الناس على اختلاف مراتبهم ، وتنوع مشاربهم . أن من أصلت سيفه ، وأعلن شره ، وقاد الرجال ، وسلك بهم مسالك الأهوال ، لحطام ينتهزه ، أو ثأر يدركه ، أومقت يقوده ، فجعل رؤوسهم صوامع تصلى عليها رهبان الغربان ، وأجسامهم مطاعم للعقبان ، لا يقاس بمن أصلح من قومه ما فسد . وروج من أحوالهم ما كسد ، ورضى من الأجر ، بحصول الخير ، ومن المغنم اندفاع الشر . وإن الإسكندر بمجده اللامع ، وصيته الشائع ، لا يقاس بسنسناتوس الأكار الرومانى الذى انتخب قنصلا لجمهورية رومه عام ٦٤٠ قبل الميلاد ، فنهض بأعباء الخدمة ، وحمى أطراف الدولة والأمة ، ولما أتى من ذلك على مافى الرغبة والنية ، عاد إلى مهنته يطلب منها رزقه . ثم ألمت بقومه الأخطار ، فانتخبوه لحكومتهم رئيساً . وذلك عام ٤٥٨ قبل الميلاد ، فدفع الأذية عنهم ، ورد الراحة إليهم ، ورجع إلى شأنه الأول لستة عشر يوماً من رياسته . وفى عام ٤٣٨ انتخب مرة ثالثة لرياسة الجمهورية . وقد مر من عمره يومئذ ثمانون عاما . فنهض بأعبائها ،

وأصلح خللها . وجدد بها نظام الأمن والراحة ، ثم استقال منها لواحد وعشرين يوما من عهده بها ومع ظهور فضله ومزيته فى ما أجرى ، لم يقبل عنه مكافأة ولا أجرا ! !

فما أجدر مثل هذا الرجل بالثناء والإكرام ؛ وماأولاه بالإطراء والإعظام، بل ما أظهر الشبه بينه وبين ولى العهد توفيق مصر أعزه الله ، فى ظل الجناب الوالدى الخديوى ، حفظ الله وجوده وصان علاه .

إلى أن قال : وكيف لا يحمدون الله وقد خصهم بمليك :

ذكرَ الأنام لنا فكان قصيدةً وهو البديع الفرد من أبياتها

وأمير :

رأيت جميع الناس دون محله فأيقنتَ أن الدهر للناس ناقد

ثم قال :

وقد علم قراء صحفنا أن ليس من شأننا الإطراء استجداء ، ولا الوقيعة افتراء . وإننا ننظر إلى الفعل لا إلى فاعله ، وإلى القول لا إلى قائله . فإنه ليس وراء الصدق رفعة ؛ وليس بعد الكذب ضعة ، والحق ملك لا ينكسر لواؤه ، وإن قل أولياؤه ، فإن لم يشرب هذا الماء على صفائه . ولم يلبس هذا الثوب على بهائه . فرب نفيس رمى به من حالق ، ورب حسناء طالق . . . . وقد جاء فى الأثر الكريم (من نشر معروفا فقد شكره ، ومن ستره فقد كفره) .

إذا أنا لم أشكر على الفضل أهله ولم أذمم الوغد اللئيم المذمما
ففيم عرفت الخير والشر باسمه وشق لى الله المسامع والفما ؟

وفى جريدة مصر أبلى أديب إسحاق بلاء حسناً فى الدفاع عن المصريين ضد الامتيازات الأجنبية . ومما كتب فى ذلك فصل قيم عنوانه (أمانى)وجاء فى بعض هذا المقال .

النموذج السادس

ولا ريب فى أن امتياز بعض الناس عن بعض فى وطن واحد ، يلحق بذلك الوطن الضرر العظيم حساً ومعنى . ووجه الضرر الأول أن معاملة سفلة الإفرنج

بما لا يعامل به وجوه الوطنيين ، من الإكرام لغير علة ؛ والعفو عن الذنب الواضح ، قد بعثهم على التمرد ، فاعتسفوا وأفسدوا ما شاءوا ، بحيث لم يمض علينا يوم لم نسمع فيه بأن فلاناً الإيطالى أو المالطى ضرب وطنياً بخنجر ، فحمل الجريح إلى المستشفى ، والجارح إلى دار قنصله ، فأودع فيه غرفة رفيعة يأكل بها عيشه رغداً هنيئاً . ثم لم يلبث فيها أن أطلق ، فازداد بما أكل شرهاً ونهماً . وعاد إلى مثل حاله السابقة ، وأما وجه الضرر المعنوى فهو أن انحطاط منزلة الوطنيين ، وانخفاض جناح ذلهم بالنسبة إلى الأجانب ، يولد فيهم الحسد والكسل ويشرب قلوبهم التهيب والخوف ، فلا يحتملون الرعائب ، فى طلب الرغائب .

وقد حان لهذه البلاد أن تنتعش من عثرتها ، وتفلت من ربقتها ، بعد أن ضربت عليها الذلة ، وتطامن أهلها للرق صاغرين ، مئات بل ألوفاً من السنين ، حتى ضربت الأمثال بطاعتهم العمياء ، للأمراء والرؤساء ؛ وكيف لا — وهم الذين احتملوا ظلم الفراعنة ، وقوة الرعاة . وعسف اليونان ، وجور الحاكم بأمره الذى لعب بهم لعبة الكرة والصولجان . . ثم صبروا بعد ذلك على عتو المماليك وجندهم ، وناهيك به صبراً لا تحمله الجمال ، بل لا تقله الجبال ولا نحمدهم على ذلك .

فغاية المفرط فى سلمه كغاية المفرط فى حربه

وأنا لنجلهم عن أن يكونوا قد ألفوا الذل فرضوا به ، أو خافوا أن يكون الإكداء مع الكد ، والخيبة مع الطلب ، فقالوا إن رزقنا سوف يأتينا نسعى له فيجهدنا ، ثم نسكن فيأتى ولا يعنينا الخ . . .

والظاهر إن هــذا المقال الأخير الذى كتبه أديب إسحاق كان من وحى السيد جمال الدين ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، لأنه من معينه ، وعلى طريقته فى تأدية هذا المعنى .

وحين انتقل أديب إسحق بجريدة (مصر) إلى الإسكندرية ، سار على هذا النهج ، وكتب بهذا الروح ، وصدر عن هذه الثقافة الأوربية الواسعة .

جريدة مصر القاهرة :

ثم انتقل الرجل بجريدته (مصر القاهرة) إلى باريس وهو على الحال النفسية التى أشرنا إليها . فأخذ يكتب المقالات الحادة التى منها مقال له بعنوان « السعادة بعد الشهادة » ، جاء فيه قوله :

النموذج السابع

« الحمد لله وحده ، هذه صحيفة مصر ، طواها الاستبداد فماتت شهيدة ، ثم أحيتها الحرية فعاشت سعيدة . توسل إلى المريدين والأولياء ، ونبهاء القراء ، منهية إليهم أن قد آتانى الله نعمة الحرية ، ومن أوتى هذه النعمة فقد أوتى شيئاً كثيراً ، ولسوف ترون منى رواية الصادق ، فى رأى الآمل ، فى عزم الآيس .

« حاول رياض باشا المتصدر فى بلاد مصر إطفاء نورى ، وأبى الله إلا أن يتم نوره وإن كره الظالمون ! أماتنى بدعوى الحرص على الخواطر أن أثيرها إلى الفتنة ، بل خاف أن أكشف الحجاب عن حقيقة أحواله ، فزعم أنى ناصبته الشر ، نفرة منه وتشيعاً لسواه ، وما أنا فى شىء من ذلك ، فإنى أعز نفساً ، وأنبل قصداً ، من أن تستميلنى الأشخاص . وإنما أميل مع المقاصد ، فما كان منها ملائماً للمشرب الذى أحسبه حقاً :

فذلك من دون المشارب مشربى وذلك ما بين المذاهب مذهبى

وما كان منها مغايراً للمبدأ الذى أراه عدلا .

رميت به من حالق رمى حانق متى يرم لم يخطىء وإن يبغ يدأب

« على أن ذلك شأن لا ترتفع إليه مدارك ظالمى ، فقد انحطت نفسه عن درجات المعالى ، فلم ير فى جهادى غير القصد الذاتى ، فأخذنى أخذ المعتدى القاسط :

وكان كذئب السوء إذ قال مرة لعمروسة(١) والذئب غرثان مرمل(٢)

أأنت التى فى غير ذنب شتمتنى فقالت متى ذا ؟ قال ذا عام أولُ

فقالت :

ولدت العام بل رمت غدرةً فدونك أكلنى لاهنى لك مأكل

(١) العمروسة النعجة . (٢) مرمل ملتصق بالرمل أو رقيق الجلد من الجوع .

بل دون أكلى خرط القتاد ، بل دونه عرين الآساد ، وسترى منى ناراً ، تثير شراراً تناديه جهاراً :

من أى وجـــه تحترق   أم أى سوء تستحق

فالشر للشر خلق

على أنى لا أقصد الانتقام ، وإنما أروم مقاومة الباطل ، ونصرة الحق ، والمدافعة عن الشر وآله . والفضل ورجاله .

فسلكى أن أكشف حقائق الأمور ملتزما جانب التصريح ، متجافياً عن التعريض والتلميح ، وأن أجلو مبادىء الحرية ، وآراء ذوى النقد ، وأن أبين ما يظهره البحث من عواقب الحوادث ، ومقاصد أهل الحل والعقد ، وأن أوضح معايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحا (أولى الأمر) ، ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهما (أمناء الأمة) ، ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلا (ولاة النظام)، وأن أعين واجبات الإنسان الشرقى بالنسبة إلى نفسه ، وإلى قومه ، وإلى بلاده ، وما يقابل تلك الواجبات من الحقوق ، وقصدى أن أثير بقية الحمية الشرقيــة ، وأهيج فضالة الدم العربى ، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين ، وأحيى الغيرة فى قلوب العارفين ، ليعلم قومى أن لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه ، ومالا منهوبا فيطلبوه ، وليخرجوا من خطة الخسف ، وينبذوا عنهم كل موالس (١) يشترى بحقوقهم ثمنا قليلا ، ويذيقوا الخائنين عذابا وبيلا ويستصغروا الأنفس والنفائس فى جنب حقوقهم ، ويستميتوا فى مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم بما يطمعون فيه من رفعة المقام «فمن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن عاش بعد أولئك الشهداء فهو سعيد» .

بهذه الحدة البالغة ، والثورة الجامحة ، كان الشاب يكتب مقالاته فى باريس ، لا يخشى بطش حاكم يرده إلى الهـــدوء والاعتدال ، ولا يحسب حسابا لقانون المطبوعات .

---

(١) الموالسة الخداع والخيانة ، ووالس الحديث عرض به ولم يصرح : المحيط

وقد اشتمل هذا العدد على مقالات أخرى بعنوان (أوربا والشرق) « وسياسة الإنكليز » و « الوزاره الفرنسوية » و « المفتشان العموميان بمصر » « والمسألة الكلبية (١) فى مصر » ومقالا بعنوان « خرقاء ذات نيقة(٢)) موضوعه التهكم برياض باشا ، ومقتطفات أخرى .

وبودى لو استطعت أن أنقل للقارىء جميع المقالات التى اشتمل عليها هذا العدد . إذ هى فى حقيقة الأمر تستحق أن نبذل فى نقلها هذا الجهد ، ولكنى مكتف هنا بفقرات قليلة من المقالتين الأولى والأخيرة على سبيل المثال ، وسأعود إلى المقالات الأخرى عند الحاجة إلى ذلك ، فمن مقالة بعنوان (أوربا والشرق):

النموذج الثامن

« قضى على الشرق جهل عامته ، واستبداد خاصته ، وخيانة زعمائه ، وتعصب رؤسائه ، أن يهبط بعد الارتفاع ، ويذل بعد الإمتاع ، ويكون هدفا لسهام المطامع والمطالب ، تعبث به أيدى الأجانب ، من كل جانب فمنهم من يغير عليه بحجة الغيرة على الإنسانية ، ومنهم من يتطرق إليه بدعوى إقامة أمر المدينة ، ولم نر منهم من صدق فى دعواه ، بل كلهم تابع فى ذلك قصده وهواه » .

ثم قال بعد فقرات :

« فإذا لم يتنبه الشرقيون من غفلتهم ، ولم ينبذوا عنهم التقاليد الموجبة لتفريق كلمتهم . ولم يغذوا ألباب صغارهم بغذاء الحرية ، ولم يرسموا على ألواح صدورهم رسم الوطنية ، ولم يعرضوا عن وعيد الخائنين ، ولم يقوموا بأمر السراة الصادقين ولم يغضبوا لوطنهم أن يغصب ، ولمالهم أن ينهب ، ولحقهم أن يسلب ، ولمجدهم أن يذهب ، فما يلبثون أن يصيروا عبيد أعدائهم ، وأسراء نزلائهم . لانرى فيهم بعد حين غير البواب يرفع الستارة ، ويسدل الحجاب ، والفراش ، يضع الوسادة، ويمهد الفراش ، والكناس يزيل الغبار والأرجاس ، والسائل ، يطلب الصدقة

(١) ضاع لقنصل أجنبى فى مصر كلب فقامت الحكومة وقعدت ، فاتخذ أديب إسحاق من هذه المسألة موضوع مقال سخر فيه من الحكومة المصرية سخرية مرة « انظر الدرر ص ١٨٠ » .

(٢) النيقة ، بوزن ريمة : اسم من التنوق فى الأمر ، وهو التأنق فيه . وهو مثل يضرب للجاهل بالأمر ومع ذلك يدعى المعرفة .

بالدمع السائل ، أما الأمراء فيحرقون ، وأما الأغنياء فيفتقرون ، وأما النبهاء فيهجرون .

« أفليس الموت ، خيراً من هذا الفوت ؟ أيليق بذى الدم الشرقى أن يصبر على هذا العسف ؟ أم يحسن بذى النفس الزكية أن يرضى بهذا الخسف ؟ أم لا يعلم قومنا أنه :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

النموذج التاسع

وأما المقال الأخير الذى (عنوانه خرقاء ذات نيقة) فبـــدأه بقوله يخاطب رياضا :

خلا لكِ الجو فبيضى واصفرى   ونقرى ما شئت أن تنقـرى

لا بد من صيدك يوما فاصبرى !

وختمه بقوله :

وإذ ما خلا الجبان بأرض   طلب الحرب وحده والنزالا

ومضى (أديب إسحق) يحرر الأعداد الأخرى من جريدته على هذا الغرار ، وهو يتحدث عن الشرق وآلامه وعن الوطن وحقوقه ، وعن الاحتلال وسياسته وعن رياض وحكومته ، وعن المسألة الشرقية وغيرها من المسائل الأخرى .

وكانت مقالاته لا تخلو من رصانة فى الأسلوب ، وحلاوة فى التعبير ، وقدرة على التهكم ، وقصد إلى التطاول على الرئيس رياض بنوع خاص .

ثم فى هذه المدينة الأوروبية التى كان أديب إسحق ينعم فيها بالحرية وهى مدينة باريس ، طفق يكتب الفصول الرائعة والمقالات الذائعة ، فى موضوع الشرق وذله ، والغرب وعزته ؛ كما أخذ يندد بالاستعمار وجبروته ، والظلم وسطوته ، ويتحدث إلى المصريين وغيرهم من الشرقيين عن المجالس النيابية « الأوروبية ، ويوازن بينها وبين المجالس النيابية المصرية والعثمانية ، ويسخر فى أثناء ذلك سخرية مرة من الحال السيئة التى وصل إليها المصريون والعثمانيون ، ولا يكتفى الكاتب هنا بإيراد الأمثلة على الحياة النيابية السليمة فى فرنسا ، بل يرجع بذهنه وبقراءاته إلى التاريخ اليونانى أو التاريخ الرومانى القديم ، فيستمد منها أمثلة حية يحث المصريين على

اقتدائها والسعى وراءها ، وبلغت هذه المقالات غايتها من الحماسة والقوة فى فصل له بعنوان « نفثة مصدور » سنأتى على طرف منه .

ثم فى أوقات قليلة كان هذا الصحفى الثائر يخلو إلى نفسه ، ويجنح إلى شىء من الراحة والهدوء ، ويشتغل بأبحاث هادئة ، موضوعها تاريخ العرب حينا ، وتاريخ المصريين وحدهم حيناً آخر ، وتاريخ جمال الدين الأفغانى حينا ثالثا ، ثم تاريخ الكتابة الإنشائية وهكذا .

ويطول بنا القول لو أردنا أن نقتبس شيئا مما كتبه أديب إسحق فى هذه الفترة لنعرض منه نموذجا كاملا للقارىء . والحقيقة أننا لا نجد فى هذه الفصول قطعة أبلغ من الأخرى ، فنحن مضطرون إلى الاكتفاء هنا بجزء يسير مما كتبه تحت عنوان :

النموذج العاشر

نفثة مصدور :

« وأنا تحت سماء الإنصاف ، على أرض الراحة ، بين أهل الحرية ، أسمع ألحانا فى مجالس العدل ، فأذكر أنين قومى فى مجالس الظلمة ، وتحت سياط الجلادين ، فأنوح نوح الثاكلات ، وأرى علائم النعمة ، فى معاهد المساواة ، فأذكر شقاء سربى فى ربوع الظلمة ، فأذرف الدمع ممزجا بسواد القلب ، فأكتب به إليهم .

« يا قوم ، ظلمتم غير معذورين ، وصبرتم غير مأجورين ، وسعيتم غير مشكورين ، فهلكتم غير مأسوف عليكم . تصبرون على الظلم حتى يحسبه الناظر عدلا ، وتبتسمون للقيد حتى يظنه الناقد حليا ، وتخفضون للظالمين جناح الذل حتى يقول من يراكم ما هؤلاء بشرا إن هم إلا آلة سخرت للناس يفلحون بها الأرض ويزرعون .

« يقلب الجائرون عليكم أنواع المكايد ، وأصناف الحيل ، وألوان الخداع فيما يختلسون ، كما تقلب المشعوذه لدى الأطفال أوجه الودعات فى

استخراج ما يضمرون ، فتارة يضربون المغارم ، لتمهيد المسالك ، وإنشاء المنافع ، وأمرة يفرضون الإتاوات ، لإصلاح الشئون ، وإعزاز الدولة ، وحينا يرسمون بالضرائب لصيانة الحقوق . وتأييد الاستقلال ، وآونة يجلبون المـــال قرضاً يحفظونه لكم على سبيل الأمانة ، حتى إذا ملئت بأموالكم الخزائن ، ولم يبق على أبدانكم ما يباع ولا فى دياركم ما يرهن . سلم الظلمة المنافع التى أنشأتم ، وباعوا المسالك التى مهدتم . وأذلوا الدولة التى عززتم ، وأضاعوا الاستقلال الذى أيدتم ، وأكلوا الأمانة ، فهى فى أحشائهم نار يصلون سعيرها وهم فى جحيمها خالدون ، إلى أن قال :

« ولقد رأيت من نواب الفرنسيس من يصعد المنبر فيقول لرجال الدولة ترومون وضع هذا القانون ، وإبرام ذلك الحكم ، ونقض هاته العادة ، فاعلموا أن هذا القصد مخالف لمصلحة الزارع ، مباين لمنفعة الصانع ، مغاير لحقوق التاجر ، وإنى أعارضكم فيه وأنكره عليكم . فإن كان ما يقول حقاً أيدته غالبية الآراء ، فيعدل أهل الدولة عما عزموا عليه . امتثالا لإرادة الأمة ، فتذكرت زارعكم بين شيخ يأمره وعميده ينهاه ، ومأمور ينهبه ، ومدير يجلده ، ووزير يتصرف فى ماله كيف شاء ، وصانعكم بين شرطى يسرقه ، وضابط يصادره ، وحاكم ينفيه . وتاجركم بين مكاس يظلمه ، وجاب يسرقه وناظر لا ينصفه ، فقلت :

« ورأيت فلاحهم فى حقله الصغير يتناول الطعام أكلا مريئا ، وينام القيولة نوماً هنيئاً ويأوى إلى البيت فيأكل بين عياله ، ويتلو عليهم صحيفة النهار ، ثم ينام ملء عينيه لا يحلم بصوت المأمور . ولا يتصور عصا الشيخ ، ولا يذكر حبس المدير ، فتخيلتكم بين السواقى والأنهار ، تشتغلون سحابة اليوم لتجتمعوا على القصعة السوداء ، فتلتهموا فتات الشعير ، وتنكبوا على الترعة ، فتشربوا الماء الكدر ، ثم تعودون إلى الأرض المريعة تزرعونها والغلة الوفيرة تحصدونها ، لتنصرفوا إلى أكواخ بالية ، تشبه قبوراً توالت عليها السنون . فيجتمع من حولكم صغار لا تعرف أبدانهم الوفاء ، ونساء تعوضن الأقذار عن الكساء . ثم يأتيكم المأمور سالبا ، والشيخ غاصبا ، والمدير ناهبا ، فأنتم فى بلاء مستقر ، وعناء مستمر

تحصدون البر ولا تأكلون . وتملكون الأرض ولا تسكنون ، فقلت ما علة هذا الفرق بين الطائفتين :

والناس من جهة التمثال أكفاء والأصل فيما يقال الطين والماء

« فأجابنى لسان الحال دع الطين والماء . فى صحف القدماء ، فهو العلم يعز طلابه ، ويذل أربابه والأقدام ترتفع به النفوس ،والوهن تنخفض معه الرءوس.

« ورأيت دولتهم تكافىء بالمال رفع الشأن من أنقذ المستهلك . وأجار الخائف ، ورد المغتال ، فتصورتكم على ضفة النهر تبصرون الغريق فى اللجة ثم تصرفون عنه وجوهاً لا تجهل الحياء ، وتعصون فيه قلوبا لا تنكر الرحمة ، مخافة أن تنقذوه فيأتيكم المأمور سائلا من الرجل ، وفيم غرق وكيف لم تخرجوه حيـــاً ، ثم لا يسمع من المنقذ جوابا ، ولا يطلق له سبيلا ، حتى يقرع باب مسمعه برنة الدينار ، ويحل عقدة ظلمه برقية الرشوة ؛ أو تشد رجله بيده ، ويده بعنقه ، وعنقه بالقيد ، وقيده بوتد السجن ، فقلت ما لقومنا يظلمون أحياء ، ولا يأمنون العسف أمواتا » فأجابنى لسان الحال : هو الذل أمات أنفسكم فصرتم أشباحا بغير أرواح تنطقون ، ولكن بحكم العادة ، وتسعون ، ولكن بحركة الاستمرار ، ذلك بأن رضيتم بموت الذل حرصا على البقاء ، ولم تعلموا أن وجود الذليل عين الفناء ، فعدت إلى الدمع أذرفه ، واللهفة أرددها ، والزمان أعاتبه ، ثم نظرت إلى السماء نظرة آيس يوشك لولا العقيدة أن يقول : أى قضاء ظالم قدر علينا هذا الخسف ، وأى حكم قاسط أنزل بنا ذلك البلاء ، فغشينى نور الرجاء ، وخاطبنى لسان الأمل ، من وراء حجاب الإخلاص ، بما سأبديه فى كتابى الثانى إن شاء الله » .

* * *

وهكذا طفق هذا الطائر الفرد — وقد أحس نفسه طليقا فى مدينة النور — يردد شجوه وشكواه من الظلم الذى يرسف فيه المصريون والشرقيون ، ويتغنى بالحرية التى ينعم بها الفرنسيون والأوربيون ولقد شجاه هذا النوح ، واهتزت أوتار قلبه لهذا النغم فاستمر فى شجوه ونغمه وهو يقول :

« لقد آليت أن أبكى الحق فى مصر حتى يعود مخضر العود ، فإن عاد فلا أسف على البقاء ، وإن لم يعد فعلى الدنيا العفاء » . وفى قوله :

« على أنكم لم تأتوا من منكر يوجب هذا القصاص الأليم، بل أستغفر الله ، فقد أتيتم منكراً لا يغفر « فى صبركم على المنكر ، ومن أغضى عن المنكر على علم به ، ومقدرة على إزالته ، فقد شارك أصحابه ، واستحق عقابه ، وأهملتم ما حق عليكم ، فلا غرو أن تحرموا ما حق لكم »(١) ،

وبقى هذا الكاتب الشاعر فى باريس يهتف بالحرية ، ويسبح بحمدها فى صحيفته ، وهو كلما جرى على لسانه لفظ الحرية ذكر الثورة الفرنسية ، ورد إليها الفضل فى إطلاق الإنسان من الأسر والعبودية ، وانظر إليه قد بدأ فصلا من فصوله فى هذا المعنى بقوله(٢) .

النموذج الحادى عشر

« أبدأ مقالى بالثناء على جراثيم الضياء التى بعثتها يد العزمة ، من أفق الحكمة ، فانشق بها ستر الظلام عن ذات جمال ، كللها الحسن بتاج الكمال ، فجرت على هام الأوهام مطارف ثوب نسجته يد الصبح ، بغزل شعاع الشمس ، فانبهرت بها مقل الظلام ، ورآها نبهاء الناس نوراً على نور ، فرفعوا لها بينهم مناراً ، وأوقدوا من حولها ناراً تهدى قوماً وتحرق آخرين ، وما يحترق بها إلا المكابرون ، الذين يقاومون الحق بسيف الباطل وبئس ما كانوا يفعلون .

« ثم سرح طرف المقلة . فى روضة تلك الطلعة ، وأجمل تلو استهلالى ، فى رقعة إهلالى (٣) غزلا أرق من الصبا ، وأحن من عود الصبا ، فى قد لا يحاكيه الغصن ، وطرف لا يماثله النرجس ، وخد لا يعادله الورد ، وثغر لا يقارنه البرق ، وفرق لا يباريه الصبح ، وفرع لا يحار به الليل ، من صورة من تعشقها النفس ، ولا يدركها الحس . فهى مفردة بصفاتها ، لا تشبهُ إلا بذاتها . يموت فى حبها

---

(١) الدرر ص ١٦٧ .
(٢) الدرر ص ١٨٧ — ١٨٨ .
(٣) الاهلال رفع الصوت بالتكبير ونحو ذلك .

العشاق غيرة عليها . ثم لا يمنعونها عن المشتاق إليها فهى المورد يراه الظمآن ، والمأمن يجده الخائف ، والسبيل يلقاه التائه ، بل مقصد الساعى يناله بعد اليأس ، وكلمة العفو يسمعها من كان على النطع . بل هى فوق ما يصف الواصفون ، وينعت العارفون ، بل هى « الحرية » ، وكفى بذلك وصفا لقوم يعقلون . الخ . .

ثم أتبع ذلك بأبيات من الشعر ، أكبر ظنى أنها من نظمه هو ، لا من نظم شاعر سواه . وهى قوله :

إذا غاب وجهى عن حماكم لعلة	فقلبى لديكم كل يوم يسلم
وما عاقنى إلا عدو مسلط	يذل ويقصى من يشاء ويرغم
ولم يستطل إلا بكم وبحولكم	ولا ينبغى أن يمنح العز مجرم
فمكنتموه فاستطال عليكم	وكادت بنا نيرانه تتضرم
وجمع خوانا لصوصا أسافلا	ومناهم أن يقتلوكم ويغنموا
فصار له فى كل يوم جباية	جباية آلاف تمهد وتختم
وصار لأهل الشر روح وراحة	به ولأهل الخير صاب وعلقم
وأنتم عليه صابرون لتؤجروا	ولكنّ صدم الشر بالشر أحزم »

وعلى هذا النحو راح الرجل يتغزل بالحرية غزلا هو إلى الشعر أقرب منه إلى النثر ، وذلك لما فى هذا الغزل من شتى التشبيهات المتلاحقة ، والاستعارات التى يتلو بعضها بعضا ، والصور البيانية التى ازدحمت فى عبارته ازدحاما قل أن يحتمله النثر الأدبى ، بله الصحفى . على أن أسلوبه فى هذه العبارة لم يخل من تكلف سنشير إليه فى موضع آخر .

وأخيراً عاد الكاتب إلى مصر حيث أذن له — كما قلنا — بالعودة إلى جريدة (مصر) ، فأخذ يكتب فيها فصولا عليها طابع الهدوء ، كما شرع يعالج فيها أموراً أخرى غير السياسية البحتة ، كأمر التعليم وأمر السفور ، وبقى على ذلك حتى اضطرته الظروف إلى مغادرة مصر إلى بيروت حيث التقى للمرة الثالثة بجريدته القديمة ، ونعنى بها جريدة (التقدم) كما رأينا .

* * *

من هذه النماذج القليلة التى استعرضناها لأديب إسحق نستطيع أن نقول فى صراحة بالغة : إننا لا نبالغ كثيراً إذا نظرنا إلى هذا الصحفى الشاب على أنه من رواد النهضة الحديثة فى النثر والترسل . بل إنى لا أتردد فى أن أضعه على رأس الصف الأول من صفوة الأدباء الذين نهضوا بالنثر العربى من عقاله . وأضفوا على الكتابة الصحفية هذا الجمال ، ونفثوا فيها ذلك الروح ووهبوا لها تلك الحياة والحركة .

والحق أن أديب إسحق رجل عصامى فى نشأته الأدبية ، فقد نبغ فى الأدب فى سن مبكرة كما رأينا ، يدل على ذلك كثرة ما وضع من الكتب الأدبية ، وما ترجم من الروايات الأجنبية ، فلم يكد يتم الثامنة عشرة من عمره حتى كان له ديوان شعر تزيد أبياته — فيما قيل — على ألف بيت ولقد طبع ديوانه هذا باسم (أنيس الجليس) وبعد هذا الوقت بقليل رأيناه يترجم قسما من (معجم المعاصرين) وإن عجز عن تقديم ما ترجمه من هذا المعجم إلى المطبعة . وألف كتابا سماه (نزهة الأحداق ، فى مصارع العشاق) وترجم لصاحب جريدة التقدم كتابا (فى العادات والأخلاق) واشترك مع سليم الخورى فى إنشاء كتاب (آثار الأدهار)وكان ذلك فى التاسعة عشرة من عمره تقريبا . وفى باريس — كما رأينا — اشتغل بتاليف كتاب (تراجم أهل مصر ؛ فى هذا العصر) وذلك كله عدا الروايات التى ترجمها كرواية (أندروماك) ورواية (شرلمان) أو الروايات التى ألفها كرواية (الحادثة الصينية) ورواية (غرائب الاتفاق) وإن شابا يشتغل بهذه الكتب جميعها ترجمة وتاليفا وتصنيفا ، ثم هو لا يقف عند هذا الحد حتى يروض نفسه على صوغ الشعر . ليعتبر أعجوبة من أعاجيب عصره ، حتى ولو لم تكن هذه الجهود التى أنفق فيها وقته قيمة إلى هذا الحد يرضى عنه ناقد أدبى ينظر إلى المثل الأعلى .

على أن شيئا آخر يدلنا على ميول هذا الشاب الأدبية من جهة . ويزيدنا اقتناعا بأنه من رواد النهضة الحديثة فى النثر من جهة ثانية . وهذا الشىء هو أن (أديب إسحق) كان من أكثر الصحفيين فى القرن الماضى عناية باللغة . وبسلامة

الأساليب . وانظر إلى أديب إسحق يقول فى جريدة التقدم(١) .

« وأما مقصدنا الأدبى فهو تعميم التعليم بتقريب المعانى الأدبية ، والقضايا العلمية لأفهام العوام ، وإيصالها لأذهانهم من طريق الصراحة المطلقة فى الكلام ، بحيث تكون عباراتنا الأدبية والعلمية قريبة المأخذ ، بعيدة من مواضع الأشكال » .

وإلى قوله فى جريدة مصر(٢) .

« ومنها - أى من الأمور التى التزمتها الجريدة — تهذيب العبارة ، وتقريب الإشارة ، وتنقيح الكلام ، وتقرير المعنى فى الأفهام ، وإطراح ما يتجافى من اللفظ عن مضاجع الرقة ، وماكان منه غريباً تنفرمنه الخواطر ، وتشمئز النفوس ، فإنه لا عذر لمن يقول عقنقل ، وفى اللغة كثيب ، وقدموس ، وفيها قديم ، والشهر المنصرم ، وفيها الماضى والسابق ، والغابر . والمنسلخ ، والمنحسم وكثير غيرها ، وذلك مع تجنبنا مبتذل الكلام وسوقيه ، وأطراحنا فاسد التركيب وعامية فإنه داء إذا سرى فى عامة الناس أمات اللغة ، وأغلق على الطلبة معانى كتب العلم .

وإلى قوله فى جريدة مصر أيضا بعد انتقالها من القاهرة إلى الإسكندريه(٣)، رأيت من الواجب على :

أولا : أن أصرف العناية والاجتهاد إلى تهذيب العبارة ، وتقريب الإشارة ، لتقرير المعنى فى الأفهام ، من أقرب وأعذب وجوه الكلام ؛ وانتقاء اللفظ الرشيق ، للمعنى الرقيق ، متجنبا ما كان من الكلام غريبا وحشيا ، أو مبتذلا سوقيا ، فإن التهافت على الغريب عجز ، وفساد التركيب بالخروج عن دائرة الإنشاء داء إذا سرى فى القراء والمطالعين أدى إلى فساد عام ، وأغلق على الطلبة معانى كتب العلم ، والتنازل إلى ألفاظ العامية يقضى بإماتة اللغة وإضاعة محاسنها ، وأن فى لغة القوم لدليلا على حالهم » .

---

(١) الدرر ص ٣٧١
(٢) ص ١٠٨
(٣) ص ١٤٠

بل إن (أديب إسحق) لم يكتف بذلك حتى قام بطائفة من البحوث الأدبية فى صناعة الكتابة ، على النحو الذى نراه فى كتب النقد القديمة فكتب بعنوان « مطلب فى صناعة الكتابة »(١) عن حد الكتابة وأقسامها ، وعن النثر المسجوع ، وعن رأى ابن خلدون فى السجع والمرسل ، وأورد أمثلة من بليغ الكلام فى كل ذلك ، وبحث فى نشأة السجع فى اللغة العربية ، ثم بحث فى صفات الكاتب وما يحتاج إليه ، وتكلم فى الأسلوب وما يراد بهذه الكلمة عند إطلاقها ، وبحث فى اختلاف الأساليب باختلاف أصحابها ، إلى آخر هذه البحوث التى تنهض دليلا كما قلنا على تأصل الميول الأدبية فى نفس هذا الفتى ، وعلى أنه كان من أصلح من رآهم القرن التاسع عشر للقيام بهذه المهمة الشاقة فى ذلك الوقت ، وهى مهمة تقويم الأساليب العربية وإقالتها من عثرتها .

* * *

ونعلم أن منهج أديب إسحق السياسى قائم على تقوية الدولة العثمانية ، والعمل على توحيد الشعوب التى تألفت منها ، وبرغم أن أديب إسحق كان عصبى المزاج ، فإنه كان فى ميدان السياسة من دعاة الاعتدال . ولتلك الأسباب المتقدمة كانت عناية أديب إسحاق بأخبار الدولة العلية وبالشام لا تقل عن عنايته بأخبار مصر . وانظر إليه حيث يقول فى جريدة التقدم حين تولى تحريرها للمرة الثالثة(٢) :

« وأما مسلكنا فى الرواية فهو نقل الأخبار عن نطاق الصحة ، ومواضع الرجوع ، والتثبت فيها قبل النشر ما أمكن ذلك فى صحف الأخبار بحيث لا نخطىء إلا معذورين . ثم إنا نتخذ منها ما كان بمصلحتنا أمس ، ولبلادنا أقرب ، وباهتمامنا أحق مبتدئين بأخبار بلادنا العثمانية ، ثم بأخبار سائر الممالك الشرقية ، ثم بأخبار البلاد الأوربية ، أقربها قبل القريب ، وأهمها قبل المهم ، معولين فى كل ذلك على الصحف الخطيرة المشهورة بصدق الرواية ، واعتدال الرأى » .

وهذه العبارة وإن كان قد صدر بها جريدة التقدم ببيروت إلا أنها توضح لنا السياسية التى كان يسير عليها بمصر .

---

(١) ص ١٤٠

(٢) الدر ص٢٧٢ — وانظر مقالا له بعنوان (الإصلاح) — الدرر ص٣٣١ — ٣٣٨

وأما من حيث منهج أديب إسحق الاجتماعي فإنا نرى له عناية عظيمة بالأخلاق والتعليم العام ، ووجوب جعله إجباريا وفى متناول الجميع على السواء . فالجهل — فى رأيه — ضعف ، والضعف يؤدى إلى الرذيلة(١) وكان يرى أن التعليم حق من حقوق المرأة . ولهذا كان من أكبر المدافعين عن حقوقها ، والداعين إلى رقيها .

واعتمد أديب إسحق فى الإصلاح النيابى بمصر على طريقته التى أشرنا إليها ، وهى الموازنة بين حالة الأوربيين وحالة الشرقيين فى ذلك . وقد رأينا كيف كان أديب إسحق يندد بالمصريين ؛ بل يتهكم بهم تهكما لاذعاً ؛ ويسخر سخرية مرة من خوف المصريين الشديد من الأجانب ويكفى أن تقرأ له فى ذلك كلمة عنوانها (المسألة الكلبية فى مصر(٢)) حكى فيها أن أحد رؤساء الإنجليز فى مصر فقد له كلب ، وجعل من هذه الحادثة اليسيرة مسألة خطيرة ، قامت لها الحكومة المصرية وقعدت ، ولم يقر لأحد قرار فيها حتى عثر على كلب الرئيس الإنجليزى !!

وانظر إلى أديب إسحق يبدأ كلمته هذه بقوله :

« لقد ضربت العرب الأمثال بالمناعة . فقالوا أمنع من عقاب الجو ، وأمنع من لهاة الليث ؛ وأمنع من حمى كليب . ولكن ما كل كلام يصلح لكل عصر ؛ فأنا فى الزمن الذى يقال فيه : أمنع من كلب الأجنبى فى مصر » .

ثم سرد الحادثة التى حدثت سرداً أدبياً ؛ ووصف كيف انطلق القنصل بلباس الصيد إلى وزير الخارجية يطلب رجوع الكلب إليه أو يحمل أمره مسألة سياسية ؛ فاهتز الوزير لذلك اضطراباً ؛ وعد فقد الكلب مصاباً ؛ وكتب إلى مأمور الضبطية يقول . . الخ .

ولأديب إسحق فى هذا الباب مقالة بعنوان (المقيم والمقعد)(٣) لولا أننا فى مقام التلخيص لذكرناها كاملة .

* * *

---

(١) الدرر ص ٢٤٤ (٢) الدرر ص ١٨٠

(٣) الدرر ص ١٧٨

خصائص الأسلوب عند أديب إسحق :

(وبعد) فقد كان علينا أن نأتى بمقال كامل لأديب إسحق أو مقالين كاملين . ولكننا قد أكتفينا بالقطع التى اقتبسناها من أسلوبه ، ونستطيع بعد ذلك أن نلخص مزايا الأسلوب فيما يلى :

أولا : فى أنه أكثر الكتاب الصحفيين جنوحاً إلى الزينة اللفظية ، يصطنعها فى صحفه ولا يكتفى بها فى رسائله الإخوانية وكتبه الأدبية ، كما فعل غيره من أدباء عصره . وهو يحب السجع ويميل إليه . فإن فاته السجع فإلى صنو السجع فى النثر العربى وهو الأزدواج ، وكان هذا السجع أو الازدواج يشبع رغبة ملحة فى أعماق نفسه ، ويريح أعصابه فى الكتابة ، ويتمشى مع حركاته العصبية التى لايجد مفراً من الخضوع لها ، وذلك برغم أنه صرح بأن النثر المرسل من كل قيد أفضل من النثر المقيد بالسجع وغيره ، ولم يكن فى هذا الرأى الأخير إلا مقلداً لابن خلدون وأمثاله من الكتاب ، الذين لم يجدوا فى أنفسهم قدرة على التزام هذه القيود . وكما كانت مدرسة البديع فى الأدب العربى تميل إلى ثلاثة أنواع متلازمة من أنواع البديع هى : السجع والجناس والطباق ، أو المقابلة ، فكذلك وجدنا أديب إسحق يميل إلى هـذه الأضرب الثلاثة المتلازمة ، ومن الأمثلة على جناسه قوله : « حتى صارت مدارسنا دارسة ، لا دارس بها ولا داوسة »[1] .

وقوله : « وقلوبنا تحترق فى بلاد تحت رق »[2]

وقوله « وإلا فما للحجاز محجوز الأنوار ، وما للشام مشئوم الأحوال »[3] .

ومن الأمثلة على الطباق عند قوله .

« فنفرنا إلى لقائه خفافاً وثقالا ، وعرضنا للأخطار والعنا، أرواحاً وأموالا ، وقابلنا سواد ذلك العدو الأزرق ، ببيض خضبناها بالدم الأحمر »[4] . ولكتاب البديع المسرفين فى اتباعه سقطات لاتخفى على الناقد ، ولكن من الحق أن يقال عن « أديب إسحق » أن سقطاته البديعية أقل من أن يعدها عليه النقد ، أو يطعنه من أجلها الناقد الأدبى .

(١) الدرر ص ١٢٠ (٢) ص ١٩٤
(٣) ص ٢٠٢ (٤) ١٢٨

وربما كان من هذه الهفوات البديعية — فى نظرى أنا على الأقل — تلك العبارات التى وصف بها الكاتب أعضاء مجلس النواب المصرى حيث قال :

« فتنطق أوتار أفواههم بما يضع لها الرئيس من تواقيع المآرب ، وألحان المطامع ، ليثبت مايعربون عنه باللحن المقصود فى سفينة أنغام الرياء ، والمعروفة بالوقائع المصرية » .

والشاهد عندى فى قوله « سفينة أنغام الرياء » فلست أرى فى لفظ « سفينة » أية مراعاة للنظير تتفق والألحان والأنغام والتواقيع[1] ؛ وأمثلة هذا التعقيد قليلة كما قلت فى أسلوب أديب ، وهى إنما تأتى من طبيعة هذا الشاب وقصده دائماً إلى أن يشق على نفسه فى الأداء ، وأن يقرب التعبير الصحفى من الأدب الصرف ما استطاع .

ومن هفواته كذلك الإسراف فى حشد ألوان كثيرة من البديع فى جملة واحدة كما فعل ذلك بالجملة التى ذكرنا نصها وهى قوله :

« أبدأ مقالى بالثناء على جرائم الضياء التى بعثها يد العزمة ، من أفق الحكمة ، فانشق بها ستر الظلام عن ذات جمال ، كللها الحسن بتاج الكمال ، فجرت على هام الأوهام مطارف ثوب نسجته يد الصبح ، بغزل شعاع الشمس ، فانبهرت بها مقل الظلام الخ » .

فهى عبارة وإن كانت جميلة إلا أن بها ضربا من التعاظل فى الكلام ، وانظر معى إلى جرائم الضياء ، ويد العزمة ، وأفق الحكمة ، وستر الظلام ؛ وهام الأوهام ، ويد الصبح ؛ وغزل شعاع الشمس ؛ ومقل الظلام ، كيف اجتمعت كلها فى صعيد واحد ، وركب بعضها بعضا فى جمل لاتستغرق من المقال أكثر من ثلاثة أسطر .

ذلك ما قصدنا إليه من وصف أسلوب هذا الشاب فى تلك الفقرة بالتعاظل ، أو اجتماع الصور البيانية وازدحامها على هذا النحو .

---

(١) كان الأولى بالكاتب أن يستبدل بلفظ سفينة لفظاً آخر مثل صندوق . أو لوحة أو غيرها مما يتفق وأدوات الموسيقى .

ثانياً : لأديب إسحاق كلف ما بإيراد كلامه مورد الحكمة ، وصوغه فى قالب المثل وأكثر ما يكون فى ذلك فى نهاية الفقرة أو نهاية المقال . حتى تكون الحكمة بمثابة تلخيص جميل لمعانى هذه الفقرة . أو ذلك المقال ، فوق أنها تقوم فيهما مقام الاستشهاد بالشعر ، أو التسلق على كلام غيره من الكتاب والشعراء .

وقد مرت بنا أمثلة كثيرة من أمثال هذه الكلمات لأديب إسحق . كما فى قوله . « ولو فعل كل امرىء مايستطيع من منفعة لمارأينا على وجه الأرض شقيا» وقوله « أن كلمة مما تدعو إليه الحكمة لأنفع من كتاب مما تبعث عليه الأهواء ». « وأن سطراً مما يؤلف بين القلوب لخير من فصل مما تختلف عليه الآراء » .

ثالثاً : على أن ذلك لم يمنعه من الاعتماد اعتماداً يوشك أن يكون تاما على الاستشهاد بالأشعار . وقد أظهرنا أديب إسحاق من ذلك على مهارة فنية خليقة بالإعجاب ، وعلى ثروة أدبية كنا نستكثرها على هذا الشاب حتى عرفنا كيف تعب فى تنشئة نفسه على النحو الذى شرحناه .

والأشعار التى استشهد بها أديب إسحاق كثيرة . منها على سبيل المثال :

الحرب أول ما تكون فتية تسعى بزينتها لكل جهول(١)

وما حب الديار يهيج وجدى ولكن حب من سكن الديارا(٢)

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام(٣)

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد(٤)

إذا أنا لم أشكر على الفضل أهله ولم أذمم الوغد اللئيم المذمما(٥)

فنيم عرفت الخير والشر باسمه وشق لى الله المسامع والفما

وغيرها كثير . وهذا كله عدا الأشعار التى هى من نظمه لامن نظم سواه من الشعراء أو الأدباء .

رابعاً : ولشدة التحمس الذى كان يبدو من أديب إسحاق ولازدحام قلبه

---

(١) الدرر ص ٩٨ . (٢) الدرر ص ١٠١
(٣) الدرر ص ١٠٣ . (٤) الدرر ص ١١٣
(٥) الدرر ص ١١٦

بشتى المشاعر والأفكار جاء أسلوبه خطابياً فى كثير من المواضع . كما فى قوله يخاطب المصريين فى مقالة (نفثة مصدور)(١) .

« يفتنون ألبابكم بأساليب الرياء ، ويضعفون قلوبكم بصور المخاوف والأوهام ويقتلون أذهانكم بسموم الخــداع ، ثم يحجبون عنكم الحقائق . ويطفئون من حولكم الأنوار ، حتى إذا رأوكم فى ظلمات الجهل لا تبصرون ما بين أيديكم ، ولا تهتدون مسالك النجاة . تداعوا إليكم وتساقطوا عليكم ، ينهبون الأموال ، ويهتكون الحرم ، ويسلبون الحقوق ، ثم يمزقون الأبدان جلداً بالسوط ، وضرباً بالهراوة ، وطعنا بالحربة ، وقطعاً بالحسام » .

خامساً : وكانت لأديب إسحاق مقدرة كذلك على الاقتباس من القرآن ومن الحديث ؟ بل كان يستطيع فى بعض الأحيان أن يصطنع ألفاظ القرآن وأن يصطنع طريقة تذكر بطريقته فى الأداء ، وإن كان الفرق عظيما جدا بين الطريقتين وانظر قوله(٢) :

« لقد أتى النبهاء فى مصر شيئاً إدا ، يكاد يزلزل ربا الحيف ويهد حصون الظلم هداً » (٣) .

وكما فى قوله(٤) :

« والعصر ، إن الظالم لفى خسر ، فإذا الخواطر ثارت ، وإذا الألباب استنارت ، وإذا روائد الأخبار سارت . فبشر أهل الظلمات بعذاب الأنوار ، إنها لتبهر الأبصار وتشرد الأفكار » ثم قال :

« سعيت يابن الاجتهاد ، وجاهدت فى الحق خير جهاد ، وتلوت علينا من آى الحرية ، ما أوحت إليك الإنسانية ، فقلنا ذلك البيان لا ريب ، فيه هدى للشرقيين .

---

(١) الدرر ص ١٥٦ (٢) الدرر ص ١٧٥

(٣) يلاحظ القارىء هنا أن قوله يكاد يزلزل ربا الحيف تساوى بالضبط قوله يزلزل الظلم هذا ، وما هكذا يكون الإسهاب .

(٤) الدرر ص ٢٠٦ .

سادساً : لأديب إسحاق خيال واسع ، فتراه يبدأ مقالاته وفصوله أحياناً بحركة تشبه حركات المسرح ، وخيال كأخيلة الشعراء ، حتى يجذب إليه ذهن القارىء بقوة كما فى قوله فى مطلع مقال له كتبه تحت عنوان (البنت)(١) ،

« إما ترى فى الحجرة مقعداً خشناً عارياً ، وقابلة أو طبيباً متأملا مراقباً ، ورجلا مغبر الوجه يدعو الله قثم امرأة على وشك الولادة ، وإما تسمع من تلك الحجرة صوتاً غريباً ، يليه من جانب الحضور اهتمام وارتباك ، فهناك مولود جديد يتساءلون عنه ، فيقول قائلهم بنت . ولطالما اسودت الوجوه بمثل هذا القول فى العصور الخالية ، بل سل اليوم عنه فلاحاً ما ، يجبك بما أجابنى مزارع بريتونى حين سألته كم ولدك ؟ فقال « آه ياسيدى لا ولد لى ، وليس عندى غير بنات » ! » .

وكما فى قوله فى مطلع كلمة لها عنوانها (إحسان الحسان) لمناسبة جمعية خيرية تألفت من بعض السيدات المحسنات فى بيروت(٢) :

« أأعارك البدر محياه ، وحياك الروض برياه ، فسرت منك نسمات الربا ، سحراً تحمل شيحاً وثماماً ، وتمشت فيك أرواح الصبا ، يتأرجن بأنفاس الخزامى ، أم أنت مخبرى بمكارم الكرائم ، ومبشرى بإحسان الحسان »

وأديب إسحاق إذا قورن بالأستاذ الإمام من حيث استخدام الألفاظ يظهر بوضوح أن ألفاظه أدنى من ألفاظ الإمام إلى الجزالة والفحولة . والجمال . ولتأصل هذا الميل فى نفس هذا الشاب ، تراه لا يرضى لنفسه قط النزول بمقالاته الصحفية — مهما كان لونها — إلى مرتبة الحديث العادى ، أو مرتبة قريبة من الحديث العادى .

وآية ذلك أنك تقرأ فى صحف أديب إسحق كثيراً من المحاورات الفكاهية ، التى يجريها على لسان رجل عامى ، وبرغم ذلك تأبى نفس هذا الشاب أن ينزل فى هذه المحاورات الفكاهية الشعبية إلى اللغة العامية ، مع أنه لو فعل لكان له

---

(١) الدرر ص ٢٩٩

(٢) الدرر ص ٣١١

العذر كل العـــذر فى ذلك ، فقد سبقه إليه لحول الكتاب فى الأدب العربى ، كالجاحظ وغيره . ولكن قلما مثل قلم أديب إسحق يكبر عليه أن يجرى على الصحف بلفظ مما يدور على ألسنة العامة ، ومن هنا كان الفرق عظيما فى ذلك بين رجل كأديب إسحق ورجل آخر سيختص بفصل من فصول الكتاب ، وهو — السيد عبد الله النديم — والأخير — كما سنرى — كاتب شعبى بكل ما فى هذه الكلمة من معنى(١) .

وباختصار نرى أنه قد اجتمع فى يد (أديب إسحق) من الأسباب ما لم يجتمع مثله فى يد غيره ، ليكون رجلا تشعر حين تقرؤه أنه أديب يتعالى فى لفظه، وكاتب يباهى بصناعة الكتابة ، ويعرف لها قدرها . وصحفى ذو قدرة على الأداء، وفى أدائه تسام إلى درجة من الفن والجمال قلما تهيأ لغيره من الناس .

أجل ، كان لأديب إسحاق من المميزات ما يؤهله لأن يكون أديباً هذا شأنه : فمن تنوع فى الثقافة ، إلى استيعاب للأدب العربى والقرآن وبعض الحديث ، إلى معرفة جيدة جداً بتاريخ الشعوب والحضارات ، إلى علم واسع بأصول هذا الفن الذى نبغ فيه منذ الصغر ، وهو فن الكتابة ، إلى رقة فى الإحساس ، وإرهاف فى المشاعر ، لا يظفر بهما إلا شاعر ، إلى خيال عجيب لا يجد مشقة فى إبداع الصور الخيالية الراقية فى أكثر الأحيان إلى غير ذلك من الخصال الأدبية الفنية الخالصة .

والحق أن كتابة أديب إسحاق ليست إلا ذوب قلبه ، وعصارة عواطفه ،

---

(١) انظر « محاورة فكاهية » بكتاب الدرر ص ٣٧٧ بدأها بقوله :

« جاءنا فى مكتب الجريدة أمس قبل الظهر فى خلق الثياب ، مقطوع اليد ، حافى القدمين ، فى كمه شىء من الخضار والبقل والفاكهة خفيا بتردد وخوف ، ثم أدخلنا فى المحاورة الآتية على مسمع من بعض الزائرين »

ثم ساق أديب إسحاق المحاورة التى جرت بينه وبين هذا الفتى ، فجاءت هذه المحاورة كلها باللغة العربية الفصحى ، لا باللغة العامية التى لايحسن الفتى غيرها ، بحكم أنه أمى .

(٢) الدرر ص ٢١١

ولو لم يكن (أديب) كاتبا ممتازا لكان شاعرا ممتازا . ولو تقدم به العصر لكان لنا فيه رجل كابن الرومى رقة حس ، أو كأبى تمام دقة صنعة . ولكنه عاش فى عصر غلبت فيه الصحافة على كل شىء ، وأصبحت اللون السائد على غيره من ألوان الأدب ، فكان لابد له من أن يكون ذلك الصحفى ، الذى إن قلنا أنه كان ديب الشرق الأدنى فى الربع الثالث من القرن الماضى ، لم نبعد عن الحق ، ولم نسرف فى المقال .

والحق أيضاً أنك مهما ذهبت تقسو على هذا الرجل ، أو تتكلف الدقة فى الحكم عليه ، ليقول الناس إنك عادل فى رأيك نزيه فى نقدك ، لم تجد له غير عيب واحد هو أنه شديد الاعتزاز بأسلوبه ، وإن لم يقل للناس صراحة أنه يعتز به . وإذا وافقتك على ذلك ، فإنما مصدره عندى أن هذا الكاتب شاب ، وأنه مأخوذ بفتوة الشباب وعندى أنه لو عاش هذا الأديب المغتر بأسلوبه عشرين سنة أخرى ، لتغير فى أثنائها أسلوبه بتغير أخلاقه ، فكنت ترى فيه تواضعا يحل فى أدبه محل الاستعلاء ، وكنت ترى آثار هذا التواضع واضحة فى تركيب الجملة من ناحية ، وفى اختيار الألفاظ نفسها من ناحية ثانية .

ألا ما أشد الصلة — فى نظرى — بين الطباع التى تميز الأدباء ، وما ينشئون من أدب هو عندى صورة لهذه الطباع .

الفصل الرابع

حياة الشيخ محمد عبده

١٢٦٦ – ١٣٢٣ هـ

١٨٤٩ – ١٩٠٥ م

توحى قراءتنا لتاريخ أولئك الرجال الذين وعدنا بالحديث عنهم فى هذا الكتاب بأشياء ، منها أن حياة كل واحد منهم يمكن أن تلخص حياة مصر كلها ، من النواحى السياسيه والاجتماعية والأدبية ، حتى يخيل إلى الباحث أنه كان هناك شعور عام بضرورة الإصلاح ، وأن هذا الإصلاح لا ينجح فى نظرهم إلا إذا شمل هذه النواحى كلها فى وقت معاً .

وشيء آخر توحى به قراءة التاريخ المصرى من خلال التاريخ الخاص بأولئك الرجال هو أنه فى القرن الماضى كانت بذور الإصلاح السياسى والأدبى والاجتماعى قد بذرت ، وتعهدها أولئك الرجال بالسقى والنماء ، حتى كان القرن الذى نعيش فيه . فلم يزد رجاله على أن جنوا مازرعه الذين من قبلهم .

فالرقى السياسى ، والإصلاح الاجتماعى ، والنهضة الأدبية . والجامعة المصرية ، وغير ذلك من نواحى النشاط المصرى فى الوقت الحاضر ، إنما هى أثر من آثار الجهود التى بذلها عظماء القرن الماضى ، وثمرة من ثمراتهم ، لا أكثر ولا أقل .

غاية الأمر أن كل جماعة منا اليوم تخصصت فى ناحية من نواحى الإصلاح بعد أن كان رجال القرن الماضى لا يعرفون هذا التخصص ، فإذا ذهبت تترجم لحياة رجل من رجال القرن العشرين ؛ لم تجد أن حياته تلخص حياة مصر كلها ، كما تجد ذلك فى كثير من تراجم القرن التاسع عشر ، ومن هذه الأخيرة

ترجمة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وهو كما تعلم من أبناء الفلاحين ، وقد أشرنا من قبل إلى أنه إذا كان عصر محمد علي يمتاز بأشياء ، فأولها أنه اعتمد اعتمادا تاما على هذه الطبقة ، فتألف منها الجيش الذي أعان الباشا على الفتح ، وتألف منهـــا الجيش الذي حورب به الجهل في مصر ؛ وكان محمد عبده من أولئك النفر الذين أعدتهم العناية الإلهية لهذه الغاية الأخيرة .

الأستاذ الإمام محمد عبده

سيرة الأستاذ الإمام

نشأ محمد عبده بقرية « محلة نصر » من قرى مركز شبراخيت بإقليم البحيرة . وهنا نجد الأستاذ العقاد يعظم من شأن هذه القرية فيقول . « قرية محلة نصر هذه إحدى القرى الصغيرة في أقاليم الريف . ولكنها على صغرها كانت من تلك القرى التي يصح أن يقال فيها إنها موصولة التاريخ بتاريخ القطر كله . ذات كيان اجتماعي مكين تتمثل فيه أحداث العهود ويحس أهله فيه طوارىء الزمن من عهد إلى عهد ، بل من ولاية إلى ولاية . . . . ولا يخطر لنا أن هذا شأن عام مشترك بين جميع القرى في هذه الأنحاء . الخ .

أثنى العقاد على هذه القرية وأتى بشيء من أخبارها التاريخية وأشار إلى رحلة معروفة قام بها الرحالة الشهير عبد اللطيف البغدادي إلى هذه الجهة وقال إنه رأى

فيها بيوتا ثلاثة كبيرة وهى : بيت الشيخ محمد عبده ، وبيت خير الله ، وبيت الفرثوانى .

فى تلك القرية نشأ محمد عبده يركب الخيل ويشتغل بالفروسية ، وذلك أنه عاش فى هذه القرية مُعنًى من العمل وكسب الرزق . وتعلم الكتابة والقراءة فى منزل والده . ثم عُهد به إلى رجل من الصالحين فى القرية لتحفيظه القرآن الكريم . ثم بعث به أبوه إلى طنطا ليتلقى العلم فى الجامع الأحمدى حيث قضى سنة ونصف سنة وهو لا يفهم شيئاً كما يقول لرداءة طريقة التعليم وهى بعينها طريقة الأزهر الذى التحق به الفتى فيما بعد . فانقطع عن العلم برهة ، ثم كان الفضل فى عودته إليه بعد ذلك للشيخ درويش وهو رجل من الصالحين وأرباب التصوف .

مع جمال الدين الأفغانى

فى ذلك الوقت أى فى الثلث الأخير من القرن الماضى كانت الصلة بين الأزهر والعالم الحديث توشك أن تكون مقطوعة . ولكن الله تعالى قيض للأزهر من بصّر طليعته بهذا العالم الحديث ـ قيض لهم جمال الدين الأفغانى الذى التف حوله كثيرون من الطلبة ومنهم محمد عبده فوصلهم ببعض العلوم الرياضية والفلسفية ، وخلقهم بذلك خلقاً جديداً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى . وفى ذلك يقول الشيخ محمد عبده فى براءة وإخلاص :

« إن أبى وهبنى حياة يشاركنى فيها على ومحروس ـ وهما أخواى المزارعان ـ أما جمال الدين فقد وهبنى حياة أشارك فيها محمد وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأولياء والقديسين » .



السيد جمال الدين الأفغانى

ومعنى ذلك أن محمد عبده ولد مرتين ، وأنه فى الأخيرة ولد من أب روحى عظيم هو السيد جمال الدين الأفغانى .

حسبنا ذلك حديثاً عن نشأة محمد عبده لننتقل إلى الحديث عن :

المعلم الثانى والعقدة الشركسية :

هناك ظاهرة نفسية طبعت العصر الذى عاش فيه الشيخ محمد عبده . وقد جاءت هذه الظاهرة النفسية من أن ذلك العصر — والشيخ محمد عبده خير من يمثله فى الحقيقة — شهد نوعين قاسيين من أنواع النفوذ الأجنبى وهما :

النفوذ التركى من جهة ، والنفوذ الأوروبى من جهة ثانية ، أما النفوذ التركى فيتمثل فى الطبقة الحاكمة من لدن محمد على إلى عهد إسماعيل فتوفيق فعباس حلمى الثانى .

وهؤلاء الثلاثة هم الحكام الشرعيون الذين اتصل بهم محمد عبده فى حياته ، وأما النفوذ الأوروبى فيتمثل فى الاحتلال البريطانى الذى منيت به البلاد فور انهزام العرابيين للانجليز كما هو معروف فى التاريخ .

والمهم فى نظرنا الآن هو النفوذ الأول ونعنى به النفوذ التركى :

كان محمد عبده يكره من أعماق قلبه جميع أفراد الأسرة الحاكمة . ويعتقد فى قرارة نفسه أنها قد أساءت إلى مصر إساءة بالغة ولايستثنى منهم أحداً حتى (محمد على) نفسه . فينكر عليه كل شىء ، ولا يعترف له بشىء . وكان يرى أن من الخير لمصر أن تتخلص من هذه الأسرة فى أقرب وقت .

وكان يرى هذا الرأى نفسه كذلك أصحاب الإمام وتلاميذه من أمثال : عبد الله النديم ، وأحمد عرابى ، وإبرهيم اللقانى ، والشيخ أبى خطرة ، والشيخ عبد الكريم سليمان وحسن عاصم ، وسعد زغلول ، وفتحى زغلول ، وقاسم أمين والسيد رشيد رضا ، وأحمد لطفى السيد .

وكان أكثر هؤلاء يؤلفون فى الواقع مذهباً فى السياسة المصرية أو حزباً من

أحزابها كان يسمى « بحزب الفلاح » أو « حزب الفلاحين » ومعهم عرابى وسائر ضباط الجيش ، وكان يقابل ذلك مذهب آخر أو حزب آخر ، هو « حزب الشراكسة » .

وكان حزب الشراكسة هذا يضم إليه كثيراً من الباشوات ورؤساء الوزارات ومعهم رجال القصر والقواد الأتراك فى الجيش وغيرهم . ولذا كان يطلق عليه « حزب السراى » وكان هذا الحزب الأخير يتمتع بالمناصب العالية ، والحياة العريضة والإقطاع الوافر . على حين كان رجال الحزب الأول — وهو حزب الفلاحين — يعانون الحرمان ، والظلم ، والاحتقار ، والسخرية من جانب الأتراك الشراكسة ، والنظر إلى المصريين على أنهم عبيد أى عبيد !!! ومن هنا نشأ فى نفوس المصريين ما يمكن أن نسميه « بالعقدة الشركسية » التى ظهرت آثارها أقوى ما تكون فى أصحاب النفوس الأدبية من أمثال الشيخ محمد عبده وتلاميذه والحاطبين فى حبله من رجال الحزب الذى أشرنا إليه من قبل ، وهو حزب الفلاحين » .

مواهبه العقلية والنفسية

كان لابد لنا من الإشارة إلى هذه العقدة الشركسية قبل أن نخوض فى الحديث عن مواهب الشيخ الأستاذ العقلية والنفسية والخلقية ، وأما هذه المواهب فيمكن أن تتلخص فى ثلاث :

الأولى منها المواهب : أن عقلية الشيخ محمد عبده كانت عقلية تطورية إذا قورنت بعقلية السيد جمال الدين الأفغانى ، وهى عقلية ثورية .

والثانية من هذه المواهب أن الشيخ محمد عبده كان معلماً بطبعه شديد الإيمان بالتربية والتعليم وبقدرتهما على تشكيل الشعوب وخلقها من جديد . وبأنه لا شىء غير التربية فى نظره بقادر على الوصول بالأمة إلى هذه الغاية ...

والثالثة من هذه المواهب هى جرأة الشيخ وشجاعته النفسية إلى الحد الذى أزعج الحكام الشرعيين ، وأدهش الإنجليز أنفسهم ، وكان بسببه موضعاً لاحترام

الجميع من أصدقائه وأعدائه فى وقت معاً وسنحاول أن نشرح كل واحدة من هذه المواهب على حده .

الموهبة الأولى أو العقلية التطورية :

كان الشيخ محمد عبده من أكثر الناس إيماناً بالتدرج ، وكان يرى أن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة . ولذلك لم يكن من المؤمنين أول الأمر بالثورة العرابية ، ولكنه انضم إليها بعد ذلك لكى يحمى الدستور الذى طالبت به هذه الثورة .

كان محمد عبده إذا قيس إلى أستاذه السيد جمال الدين يبدو مخالفاً له كل المخالفة فإذا كان الشيخ ذا عقل تطورى — كما قلنا — فإن السيد جمال الدين كان ذا عقل ثورى بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . واجتمع الأستاذ والتلميذ فى باريس فى فترة من فترات حياتهما (بل حياة الأمة العربية) وفكر الرجلان فى أمثل الطرق لإصلاح البلاد الشرقية الإسلامية ، فكان من رأى الإمام الشيخ محمد عبده أن ذلك لايكون إلا بإنشاء ماسماه « مدرسة الزعماء » لتخريج المصلحين والقادة ممن يحملون عبء الإصلاح فى كل بلد من بلاد الشرق ولكن هذا الرأى أسخط عليه السيد جمال الدين الذى لايعرف الإبطاء سبيلا من سبل الإصلاح أو التجديد . فقال لتلميذه يومئذ إنك لمثبط . واقترح عليه أن يشرعا فى الحال فى إنشاء مجلة « العروة الوثقى » .

الموهبة الثانية أو طبيعة المعلم :

نعم — كان الشيخ يؤمن إيمانا راسخا أن إنهاض أمة من الأمم لايكون إلا على أساس قويم من التربية والتعليم . كان يؤمن بأن عمل السنين فى تربية الأمة وتعليمها لن يضيع سدى ولن يندم عليه العاملون ، ولن تندم عليه الأمة نفسها . فإذا أريد لأمة من الأمم المغلوبة على أمرها أن تنال استقلالها فما على قادتها والمصلحين من أبنائها إلا أن يزودوا هذه الأمة بأدوات الاستقلال . وما أدوات الاستقلال هنا إلا التربية والتعليم ، وقد أثر الشيخ بنظريته هذه فى تلاميذه من بعده . وكان من نتيجة ذلك أن تألف فى مصر حزب سياسى يدعى « حزب الأمة »

ولهذا الحزب صحيفة خاصة به هى « الجريدة » التى كان يتولى تحريرها الأستاذ أحمد لطفى السيد . وكانت سياسته فيها تقوم على نظرية الأستاذ الإمام . وهى النظرية القائلة بتزويد الأمة بأدوات الاستقلال . وهى هنا العلم والخلق وتربية الكرامة والشعور بالمسؤلية ، وسنزيد هذه الموهبة توضيحاً عند الكلام عن جهود محمد عبده الصحفية .

الموهبة الثالثة أو شجاعة الشيخ النفسية :

يبدو أن السبب الحقيق فى قوة نفس الشيخ وجرأته كما قال الأستاذ العقاد هو « التصوف » . والتصوف فى ذاته قوة هائلة تميل بصاحبها إلى احتقار الماديات مهما كان شأنها وتقدير المعنويات التى يخفى على الإنسان العادى قدرها . وبسبب هذه القوة كان أسلافنا من علماء الدين مصدر خطر كبير على الملوك والأمراء والسلاطين .

سئل الشيخ عز الدين بن عبدالسلام أحد علماء المماليك فى ذلك ، فكان يقول :

« إننى حين أستحضر هيبة الله تعالى فى نفسى وأنا فى حضرة السلطان يتمثل لى فى صورة لا تزيد على القط » .

وشبيه بذلك تماماً ما حدث لكل من السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده .

حكى عن جمال الدين أنه كان يعبث بحبات سبحته فى حضرة السلطان عبد الحميد ونبهه رئيس الديوان إلى قواعد التشريفة فأجابه جمال الدين ساخراً :

« صه ياهذا .. إن السلطان يلعب بحياة ثلاثين مليونا من بنى آدم . أفلا يلعب جمال الدين بثلاثين حبة من حبات هذه السبحة ؟ » .

أما الشيخ محمد عبده فكان الخديو عباس حلمى الثانى كثيراً ما يشكو من مسلكه فى حضرته ويقول عنه « إنه يدخل علىّ كأنه فرعون » وكان الشيخ محمد عبده يضحك من هذه العبارة ويقول « أينا فرعون أنا أم هو ؟ » .

ثم إن شجاعة الأستاذ الإمام كانت هى الشجاعة التى يمتدحها الفلاسفة والأخلاقيون فهم يقولون « إن الفضيلة وسط بين طرفين » . أى أن شجاعة الشيخ كانت وسطاً بين الخوف والتهور وبين الجبن والاندفاع .

وكما يقول الأستاذ العقاد « الواقع إن تاريخ الشيخ محمد عبده فى خدمة القضية القومية هو تاريخ الإقدام إلى أقصى حدوده . ولكنه لم يكن قط تاريخ الاندفاع أو الخفة أو العجلة ونحو ذلك كان أشد أصحابه إقداماً فى معارضة الثورة العرابية حين عارضها . وكان أشدهم إقداماً فى تأييدها حين أيدها . ولما وقع المحظور ودخل الإنجليز مصر محتلين ، ونفى محمد عبده عن الوطن كان هذا المنفى عن وطنه أسبق أصحابه إلى عاصمة الدولة الإنجليزية ليعلن الحرب على الاحتلال فى عقر داره » .

فإذ ذاك طالب الشيخ فى لندن بجلاء الإنجليز . وقال لهم يومئذ : لقد شكونا من الأتراك لأنهم أجانب عن وطننا . لكننا الآن نعلم أن هناك ما هو شر من الأتراك وليس فى مصر من بلغ به الظلم حداً يرجو معه مساعدتكم . إن لنا إليكم رجاء واحداً وهو أن تغادروا بلادنا حالا وإلى غير رجعة » .

وفى عاصمة الإنجليز لم يأل الشيخ جهداً كذلك فى الجهر بعداوته لتوفيق فقال عنه إذ ذاك :

« إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة . لأنه مهد لدخولكم بلادنا . ورجل مثله انضم إلى أعدائنا فى الحرب لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ، ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه وعجل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه .

إننا لا تريد خونة ؛ وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية » . قال ذلك فى المنفى وهو لا يخشى أن يطول به النفى إلى أبعد مما قرره المحتل ، إلى هذا الحد (وأكثر منه) بلغت شجاعة الشيخ وهى شجاعة تذكرنا — كما قلت — بمواقف أسلافنا من علماء الدين ممن كانت تهابهم الملوك والسلاطين .

ولمحمد عبده حياة رسمية . وأخرى غير رسمية ، ولاتهمنا الأولى ، وإنما تهمنا الثانية ، ومع ذلك فيكفى أن نعلم عن حياته الأولى أنه اشتغل بالتدريس فى الأزهر ، والتدريس بدار العلوم ثم عينه رياض باشا رئيساً لتحرير الوقائع المصرية الرسمية وذلك فى أكتوبر سنة ١٨٨٠ وكان ذلك بتوصية من محمود سامى البارودى ، فرئيساً لإدارة المطبوعات فى نظارة الداخلية ، ثم قامت الثورة


رياض باشا

العرابية ، ونفى عن الديار المصرية ، ثم عاد إليها ، وعين قاضياً بالمحاكم الأهلية ، مع أنه كان يرغب أن يعود مدرساً كما كان ، ولكن الإنجليز خافوا من اتصاله بالطلبة ، وآخر ما وصـــل إليه من الوظائف الحكومية وظيفة مفتى الديار المصرية ، وفى الأزهر الشريف قام الشيخ على تدريس المنطق والفلســفة والتوحيد ، وفى دار العلوم قام على تدريس التاريخ . فقرأ على طلبتها مقدمة ابن خلدون ، وعدل عن قراءة كتب التاريخ المعروفة . وكان الشيخ فى هذه الاتجاهات كلها يتأثر بأستاذه السيد جمال الدين ، غير أن تأثره به لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه إلى الكتابة فى الصحف ، فبدأ الشيخ بجريدة الأهرام وهو بعد طالب فى الأزهر ، ثم نال شهادة العالمية واتصل برياض باشا فعهد إليه فى تحرير الوقائع المصرية . ثم قامت الثورة العرابية وبلغت الغاية منها ، وقبض على زعمائها وفيهم محمد عبده ، فنفى إلى بيروت حيث قضى ثلاث سنوات إلى أن دعاه السيد جمال الدين إلى باريس . وهناك اشترك النشئ والحوارى فى تحرير «العروة الوثقى» . ثم عادت الظروف بالشيخ مرة أخرى إلى بيروت ، فاشتغل فيها بالتدريس بالمدرسة السلطانية ، وبالتحرير فى جريدة يقال لها « ثمرات الفنون »

ومعنى ذلك أن الشيخ كتب فى هذه الجرائد الأربع ، وهى : الأهرام ، والوقائع المصرية ، والعروة الوثقى ، وثمرات الفنون .

فماذا كانت دعوته فى هذه الصحف وما الأهداف التى كان يرمى إليها ؟

دعوة الأستاذ الإمام إلى الإصلاح

لخص الشيخ دعوته إلى الإصلاح بنفسه ، فقال : « ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين :

الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه ، وإنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم ، باعثا على البحث فى أسرار الكون ، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل .

والأمر الثانى : إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير ، سواء كان فى المخاطبات الرسمية . أو فى المراسلات بين الناس ، وكانت أساليب الكتابة فى مصر تنحصر فى نوعين كلاهما يمجه الذوق ، وتنكره لغة العرب :

الأول : ماكان مستعملا فى مصالح الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم ، ولا يمكن رده إلى لغة من لغات العالم — لا فى صورته ولا فى مادته .

والنوع الثانى : ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون من الجامع الأزهر ، وهو ما كان يراعى فيه السجع وإن كان بارداً ، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس ، وإن كان رديئاً فى الذوق ،بعيداً عن الفهم . ثقيلا على السمع، غير مؤد المعنى المقصود .

وهناك أمر آخر كنت من دعاته ، والناس جميعاً فى عمى عنه ، ولكنه الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ،

وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ، نعم — كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهى لم يخطر لها هذا الخاطر على البال من مدة تزيد على عشرين قرنا،دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته — هو من البشر الذين يخطئون ، وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته إلانصح الأمة له بالقول والفعل ، جهرنا بهذا القول والاستبداد فى عنفوانه ، والظالم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم عبيد له أى عبيد .

ولم أكن فى ذلك الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أنى كنت روح الدعوة ، وهى لا تزال بى فى كثير مما ذكرت قائمةولا أبرح أدعو إلى عقيدتى فى الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح فى اللغة ، وقد قارب .

أما أمر الحكومة والمحكوم ، فنتركه للقدر يقدره وليد الله بعد ذلك تدبرة، لأننى قدعرفت أنه ثمرة تجنيها الأمة من غراس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنون الطوال ، هذا الغراس هو الذى ينبغى أن يعنى به الآن ، والله المستعان(١) » .

ومع هذا وذاك فالثابت فى التاريخ أن محمد عبده حاول الاشتراك فى الحوادث التى أفضت إلى خلع إسماعيل . وفى ذلك يقول الشيخ فى مذكراته :

أما ما قاله عرابى بصدد خلع إسماعيل وأنه اقترح ذلك فأقول إنه من المؤكد أننا كنا نتكلم سراً فى هذا الشأن . وكان الشيخ جمال الدين موافقا على الخلع . واقترح علىّ أنا أن أقتل إسماعيل . وكان يمر فى مركبته كل يوم على جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاما نتهامسه فيما بيننا . وكنت أنا موافقاً الموافقة كلها على قتل إسماعيل . ولكن كان ينقصنا من يقودنا فى هذه الحركة . ولو أننا عرفنا عرابى فى ذلك الوقت كان يعتبر من أحسن ما يمكن عمله وكان يمنع تدخل أوروبا .

ولم يكن من المستطاع فى ذلك الوقت تأسيس جمهورية إذا نظرنا إلى حالة الجهل

---

(١) زعماء الإصلاح ص ٣٣٤

الذى كان سائداً على العقول[١] .

ومن السهل علينا بعد قراءة هذه العبارة أن نرى أن لدعوته هذه ثلاث شعب :

شعبة دينية ، وشعبة أدبية ، وشعبة سياسية . وهى مرتبة هنا بحسب ميول الشيخ واستعداده ، وبحسب استئثار هذه الشعب بعنايته ورعايته . أى أن الهدف الأول من أهداف الإمام كان هو الإصلاح الدينى ، وأن الهدف الذى يلى ذلك فى الأهمية هو الإصلاح اللغوى أو الأدبى

وأما الهدف السياسى فلم يكن له ميل كبير إليه ، ولا احتفال كبير به . ومن ثم كان الشيخ لا ينشط نشاطاً سياسياً حاراً إلا حين كان يتصـــل بأستاذه السيد جمال الدين الأفغانى .

وقد كان السيد رجلا سياسيا بطبعه قبل كل شىء ، وكان إذا التقى بتلميذه الشيخ دفعه بقوة إلى الميدان السياسى . وكان الشيخ نفسه يسير بقوة هذه الدفعة ، حتى تحول الظروف بينه وبين أستاذه ، فإذا الشيخ يعود إلى هدوئه وسكونه ، ويخوض فى أمور تتفق وميوله المتأصلة فى قرارة نفسه . وهى الرغبة فى الإصلاحين الدينى والأدبى .

وذلك ما يفسر لنا الخصومة العنيفة التى كانت بين الشيخ وبين عرابى أولا ، ثم بينه وبين مصطفى كامل والحزب الوطنى ثانياً ، ثم بينه وبين الخديو عباس الثانى آخر الأمر .

فأما العداوة بينه وبين عرابى فمصدرها أن محمد عبده لم يكن يرضى أن يكون زعماء الثورة من العسكريين غير المثقفين ، غير أن محمد عبده أكره إكراها على الدخول فى الثورة ، حتى انتهى الأمر بنفيه إلى بيروت .

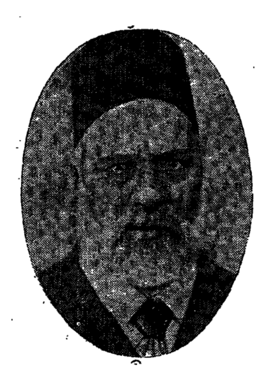
وفى ذلك يقول محمد عبده :

« ولكن الثورة لم تكن من رأيى . وكنت قانعاً بالحصول على الدستور فى ظرف خمس سنوات . فلم أوافق عرابى على عزل رياض فى سبتمبر سنة ١٨٨٠ . وقبل مظاهرة عابدين بعشرة أيام التقيت بعرابى ن دار طلبه عصمت وكان قد

---

(١) راجع كتاب (سر احتلال الإنجليز لمصر) لمؤلفه المستر بلانت الترجمة العربية ص ٣٠٤ .

جاء مع عرابى لطيف بك سليم . وكان هناك عدد كبير من الزائرين ؛ فنصحت لعرابى بالاعتدال وقلت له : إنى أرى أن بلاداً أجنبية ستحتل بلادنا ، وأن لعنة الله ستقع على رأس من يكون السبب فى ذلك . فأجابنى عرابى بأنه يرجو ألا تقع هذه اللعنة عليه . وقال إن سلطان باشا وعده بأن سيحضر له عرائض لطلب الدستور ممضاة من جميع الأعيان وكان هذا صحيحا . . ولكن لما منح الدستور انضممنا إلى الثورة لكى نحمى الدستور »[1] .



أحمد عرابى

وأما عداوته لمصطفى كامل والحزب الوطنى ، فمصدرها الخلاف بين الرجلين فى وجهة النظر السياسية ، فقد كان محمد عبده ممن يؤمنون بالتدرج فى الإصلاح السياسى ، وممن يؤثرون اللين ومسايرة الواقع من الأمور ، حتى يكسب المصريون من الإنجليز الأقوياء عن هذا الطريق أضعاف ما يكسبون منهم بطريق الشدة التى لا تجدى شيئاً . وكان مصطفى كامل يرى على العكس من ذلك أن الإصلاح السياسى لا يبدأ فى مصر إلا بزوال الاحتلال الإنجليزى .

وأما عداوة الشيخ محمد عبده للخديو عباس الثانى فمصدرها محاولة الشيخ المحافظة على علاقته الطيبة بالإنجليز ، وعلاقته الطيبة بالخديو فى وقت معاً . وكان الجمع بين هذين الأمرين يومئذ من الأشياء التى توشك أن تكون مستحيلة ، فإذا أضيف إلى ذلك معارضة الشيخ محمد عبده معارضة قوية وشريفة فى رغبة الخديو فى أن يستبدل لنفسه أرضاً من الأوقاف عرفت السبب الذى من أجله

(١) راجع كتاب (سر احتلال الإنجليز لمصر) لمؤلفه المستر بلانت الترجمة العربية ص ٢٦٠

اغتاظ الخديو ، وهم بعزله من وظيفة مفتى الديار المصرية لولا اعتراض اللورد كرومر على ذلك ، مما اضطر الخديو إلى العدول عما عزم عليه

وما دمنا بصدد العداوة التى منى بها الشيخ محمد عبده ، فلا ننسى أن نذكر أنه كان من أعدائه كذلك الأزهر منذ استعان به الخديو عباس الثانى فى الكيد للشيخ محمد عبده ، مع أن الشيخ عاش يجاهد فى إصلاح الأزهر . وسلك فى سبيل ذلك كل طريق حتى طريق الإنجليز ، وذلك فى وقت ضاقت فيه بالشيخ الحيل ، وسدت أمامه الأبواب ، وكان الخديو يخاصمه ، والشعب من جانبه لا يفهمه ، فلجأ إلى كرومر عملا بالحكمة القائلة (الغاية تبرر الواسطة) ، ومع ذلك فإن الأزهر لم ين فى لحظة من حياته عن قذف الشيخ ، ورميه بأشنع التهم التى من أيسرها يومئذ اتهامه بالكفر والخروج عن الإسلام .

ولم لا يكون الشيخ كافراً فى نظر الأزهرين ؟

أليس هو الذى أفتى بلبس القبعة ؟ ثم أليس هو الذى أفتى مسلمى الترنسفال فى بقر يضرب على رأسه حتى تضعف مقاومته ثم يذبح دون أن يذكر اسم الله عليه ، فأحله لهم ؟

ثم أليس هو الذى يدعو الأزهر أن ينكر قديمه ، ويلبس للعالم الإسلامى ثوباً جديداً غير الثوب الذى أبلاه ؟

ألم يعترض عليه أحد أعضاء المجلس الأعلى للأزهر ، وهو الشيخ البحيرى بقوله مستنكراً «ألم تتعلم أنت فى الأزهر وقد بلغت ما بلغت من مراقى العلم وصرت فيه العلم الفرد ؟ ! » فأجابه الإمام بقوله « إن كان لى حظ من العلم الصحيح الذى تذكر ، فإننى لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغى ما علق به من وساخة الأزهر ، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة » .

والخلاصة أن الشيخ محمد عبده لم يصادف من التوفيق فى الميدان السياسى ما كان يؤمله ، وذلك معنى قوله :

« وأما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره . . إلخ » .

ولكن ليس معنى ذلك أننا نغمطه حقه ، وننكر عليه جهاده فى هذه الناحية ، أو نظن أنه كان يمحض الإنجليز حبه ، ويؤثرهم بصداقته . كلا — فلقد كان الشيخ يبنى علاقته بهؤلاء على المداراة . وكان لا يطمع فى أكثر من أن تتصل دعوته بالشعب المصرى ، لا يحول دون وصولها إليه حائل سياسى أو اجتماعى .

سافر الشيخ مرة إلى لندن لإقناع الإنجليز بالقضية المصرية وهناك أنهى إلى مراسل جريدة إنجليزية بقوله فى حق الخديو :

إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة ، لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، ورجل مثله انضم إلى أعدائنا فى الحرب لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام . ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه ، وعمل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه . إننا لا نريد خونة ؛ وجوههم وقلوبهم إنجليزية[1] .

فليس من المعقول أن يكون هذا كلام رجل يتهم بحب الإنجليز ، أو الرضا ببقائهم فى أرض مصر يشربون فيها من ماء النيل[2] .

* * *

وأما الهدف الدينى من أهداف الأستاذ الإمام ، فقد توصل إليه بأمور شتى ؛ منها الدروس التى كان يلقيها فى الأزهر الشريف فى بدء حياته ، ثم فى فترات متقطعة تهدأ فيها العاصفة .

ومنها الكتابة فى الصحف ، وبنوع خاص صحيفة الوقائع المصرية — كما سنرى بعد ، ومنها الرد على الفلاسفة مثل هانوتو ، وعلى الكتاب مثل فرح أنطون[3]

(١) زعماء الإصلاح ص ٣١٦ .

(٢) للمؤلف بحث بعنوان « العقدة الشركسية عند مدرسة محمد عبده وأثرها فى صحافة هذه المدرسة » وضح فيها سياسة محمد عبده نحو الخديو ونحو الإنجليز . راجع مجلة كلية الآداب عدد ديسمبر سنة ١٩٥٧ .

(٣) رد الأستاذ الإمام على هانوتو فى مقال نشر أوائل سنة ١٩٠٠ . ومن مجموع ردوده على هانوتو تألف له كتابه (الإسلام والنصرانية) ورد الأستاذ الإمام كذلك على فرح أنطون فى مقال نشره فى مجلة الجامعة عن ابن رشد ذهب فيه إلى أن المسيحية كانت أوسع صدراً للفلسفة من الإسلام .

ومنها الفتاوى التى كان يصدرها بين الحين والحين ، فتدل على فهمه الصحيح للدين ، أو على الأقل على رغبة صادقة فى الاجتهاد الذى أغلق الأزهريون بابه منذ زمن قديم .

ومنها جهاده المرير فى إصلاح الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، وهو جهاد اقترن بالاضطهاد الذى لقيه الشيخ من جانب الأزهريين أنفسهم تارة ، وجانب الخديو تارة أخرى ، وجانب الشعب عن طريق الجرائد الهزلية آخر الأمر .

غير أن الوسيلة الأولى من هذه الوسائل كلها تبين أنها الوسيلة السليمة المأمونة العاقبة . ونعنى بها الدروس التى اتصل فيها اتصالا مباشراً بطلبة العلم فى الأزهر الشريف . وهناك كان يلقى الأستاذ الإمام عليهم درساً فى « التفسير » . فاعتمد الشيخ على هذا الدرس اعتماداً تاماً فى شرح عقائد الدين ، ومحاربة البدع التى أفسدت هذا الدين ، ثم فى التوفيق بينه وبين العلم الحديث والمدنية الحديثة .

ولقد وفق الأستاذ الإمام فى هذه الدروس توفيقاً وصل به إلى الذروة من مراتب المصلحين الدينيين ، وكان لدروسه أثر عظيم فى نفوس كثير من المتدينين ، وفى نقض الغبار الذى تراكم على عقولهم منذ قرون .

* * *

وأما الإصلاح اللغوى أو الأدبى ، وهو ثانى الهدفين اللذين كتب فيهما النجاح التام للأستاذ الإمام ، فمن الطرق التى سلكها فيه : طريقة إحياء الكتب القديمة ، وذلك بنشرها وشرحها من الوجهة اللغوية . ونشر لذلك مقامات الحريرى ، وكتاب نهج البلاغة ، وكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى . وفى عام ١٣١٨ أسس بمصر جمعية برياسته سميت بجمعية إحياء الكتب العربية . وبدأت عملها بالفعل فنشرت كتاب المخصص فى اللغة لابن سيده ، وعهد بتصحيحه إلى اللغوى المشهور الشيخ محمد محمود الشنقيطى .

ولا ننسى كذلك أن الأستاذ الإمام إذ عينه رياض باشا محرراً للوقائع المصرية ، وجعل له حق الإشراف على جميع ما يصدر فى مصر من الكتب والصحف ، كما جعل له الحق فى انتقاد إدارات الحكومة . قد انتهز هذه الفرصة الثمينة ، فكان

أول ما بدأ بانتقاده طريقة التحرير التى كانت متبعة فى النظارات والإدارات ، فأخذ يبين وجه الخلل بها وأضرارها بفهم المعانى المطلوبة ، ثم يرسم الطريقة المثلى التى يجب السير عليها فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوى الإلمام باللغة العربية من موظفى الحكومة . وحضهم رؤساؤهم على مكاتبة الجريدة الرسمية . . واضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أو المبادرة إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير (١) » وقد أنذر محمد عبده مرة مدير جريدة مشهورة بتعطيل جريدته إذا لم يختر لها محـــرراً صحيح العبارة فى مدة معينة .

ثم من الطرق التى سلكها فى ذلك طريقة التدريس بمعاهد العلم . ونحن نعرف من تاريخ حياته أنه قام بتدريس الإنشاء فى المدرسة النظامية ببيروت ، وأنه عهد إلى الأستاذ المرصفى بتدريس كتاب الكامل للمبرد وكتاب « ديوان الحماسة » لطلبة الأزهر . ولم يكن ذلك معروفاً من قبل .

وأخيراً كان من أنجح الوسائل التى اتخذها الإمام لإنهاض اللغة العربية من عثارها ، وإمدادها بالمدة اللازمة لها فى مسايرة العصر الحديث ، الكتابة والتحرير فى الصحف العامة ؛ وهو هنا بيت القصيد من هذا التاريخ . فسنرى أن مشاركة الإمام فى الصحافة المصرية يمكن أن تعتبر تاريخاً لهذه الصحافة من الوجهة اللغوية أو الأدبية ، وسنرى أن قلم الشيخ محمد عبده كان من الأقلام التى راضت اللغة العربية فى مصر رياضة حسنة قيمة ، عادت بالخير على هذه اللغة ، وذلك الأدب من جهة ، وعلى العقل المصرى من جهة ثانية

* * *

وإن الشيخ لمشتغل بإصلاح الأزهر ، غارق فى تفكيره فى هذا الإصلاح ، وإذا بحركة تظهر بغتة فى داخل الأزهر ، ويثور فيهـا بعض رجاله على مجلس إدارته ، وكان من أثر ذلك أن استقال السيد على الببلاوى من المشيخة ، وعين الخديو مكانه الشيخ عبد الرحمن الشربينى ، وخطب الخديو فى حفلة الإنعام عليه

(١) انظر تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الأول ص ١٧٥

خطبة كشفت عن حقده على الشيخ محمد عبده ، فلم ير الشيخ بداً من الاستقالة من مجلس إدارة الأزهر ، ومرض بعد ذلك ، وثقل عليه المرض ، فمات فى الحادى عشر من شهر يوليو سنة ١٩٠٥ م .

وشيعت جنازته فى احتفال رسمى مهيب ، اشترك فيه مجلس النظار ، وكان الخديو غائباً عن مصر ، فلما عاد إليها أنحى باللائمة على وزرائه الذين احتفلوا بجنازة الشيخ الإمام .

ليت شعرى ما أشقى المصلحين فى كل زمان ومكان ! إنهم لكالشمعة التى تحرق نفسها لتضىء الطريق للناس . ومع ذلك لا يكون نصيبها منهم غير اللعنة والاحتقار والجحود والإنكار ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

هكذا حرمت مصر يومئذ شخصية فذة هى من أعظم شخصياتها وأقومها فى القرن الماضى ، بل ربما كانت فى عظمتها تلى مباشرة شخصية جمال الدين الأفغانى .

الفصل الخامس

أسلوب محمد عبده

لقد كان للعجم فضل كبير على الكتابة العربية وهى فى مهد طفولتها ، وقد أتى القرن الماضى دليلا على أن للعجم فضلا كبيراً على الكتابة العربية بعد إذ جاوزت دور شيخوختها .

كان النثر الفنى منذ القرن الثانى للهجرة ربيب الفرس وصنيعتهم ، ودليلا ثابتاً على سابق مجدهم وحضارتهم . فقد نشأ هذا النثر العربى نشأة عربية خالصة منذ ظهور الإسلام ، ثم تأثر هذا النثر العربى بالحضارات الأجنبية التى اشتركت فى بناء الحضارة الإسلامية ، وبعد أن كان ذلك النثر العربى أميل إلى البساطة والسذاجة التى طبع عليها العرب ، أصبح أميل إلى المنطق والزخرف اللذين اقتضتهما الحضارات الأجنبية .

أما فى القرن الماضى فقد وجدنا السيد جمال الدين الأفغانى — وهو رجل من الأفغانستان غريب عن اللغة العربية ، أجنبى عن الأدب العربى ، لم يحصل عليهما إلا بطريق التعلم — يترك فى الأسلوب الأدبى أثراً لا يمحى من حيث يقصد السيد أو لا يقصد . بل وجدنا ظهور السيد فى مصر يعتبر نقطة تحول عظيم فى الحركة الأدبية ، كما كان نقطة تحول كبير فى الحركة السياسية .

وكذلك العظيم فى الأمة يهدى الله به من الخلق ، ويغير به من أوضاع الكون ما لو عرفه العظيم من نفسه لهاله الأمر ، وعجب من قدرة الله تعالى حين يريد بالناس الخير . ولقد كان من أنجب تلاميذ السيد جمال الدين رجل مصرى المولد ، أزهرى النشأة ، هو الشيخ محمد عبده . تحركت فى نفسه الرغبة فى الكتابة الصحفية

منذ كان طالباً فى الأزهر أو على الأصح منذ كان يختلس من وقت الأزهر ساعات يقضيها فى الاستماع إلى السيد جمال الدين . وقد شهد الشيخ يومئذ ميلاد صحيفة كانت من أعظم صحف مصر والشرق فيما بعد ، وهى صحيفة الأهرام . فبعث إليها بتقريظ تقبلته الصحيفة منه شاكرة ومقدرة ، ومنذ يومئذ والشيخ يكتب فى الأهرام ، فأتيحت له بذلك فرصة من أثمن الفرص ، حملته على التجرد للكتابة فى الصحيفة ، وترويض قلبه على هذه الصناعة الجديدة فى وقت كان فيه الأزهريون لا يحسن أقومهم طريقة أن يكتب أربعة سطور باللغة العربية السليمة . ونحن إذ ننظر فى مقالات الأستاذ الإمام منذ ذلك التاريخ إلى أن توفاه الله ، نرى أن هذه المقالات تجرى — كما يقول الأستاذالشيخ رشيد رضا — فى أربع مراحل :

أولاها : ما كتبه الشيخ محمد عبده فى عهدطلب العلم بالأزهر ، وذلك بإرشاد السيد جمال الدين الأفغانى فى الغالب .

والثانية : ما نشره بعد دخوله فى طور العمل وتصديه لإصلاح الحكومة والأمة . وهو ما نشر فى جريدة الوقائع المصرية الرسمية .

والثالثة : ما كتبه بعد نفيه من مصر بالاشتراك مع أستاذه جمال الدين الأفغانى ، وهو ما نشر بباريس فى جريدة « العروة الوثقى » .

والرابعة : ما نشر له بعد ذلك ، أى بعد عودته من المنفى ، من شتى المقالات فى الصحف السورية والمصرية .

ولنقف وقفة قصيرة عند كل مرحلة من هذه المراحل

المرحلة الأولى

ويمكن أن يقال إن المرحلة الأولى من هذه المراحل كانت للتهيئة والإعداد ، وفيها — كما سنرى من ثنايا النماذج التى سنعرضها من كتابة الشيخ — نجد أسلوب شاب مبتدىء يحاول فى أول أمره أن يقلد طريقة المتأدبين فى زمانه ،

فيتحرى السجع فى الكتابة ، ويملأ مقاله بطائفة من الألفاظ اللغوية الغريبة ، والتشبيهات التى ربما لا يستريح القارىء الحديث إلى الكثير منها ، كما يصطنع التعبيرات التى حاول فيها الأخذ من العلوم الحديثة ، وإن كان لم يحسن بعد هذا الأخذ على الوجه الذى يرضى الذوق .

ومع هذا وذاك كان الشيخ المبتدىء فى المرحلة الأولى من الكتابة طويل النفس فى العبارة ، يحاول أن يقلد أسلوب الكتاب المفتونين بالسجع فى القرن الرابع الهجرى . وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على حسن استعداد الرجل للكتابة ، أضف إلى ذلك أن معانى الشيخ فى مقالات المرحلة الأولى كانت غزيرة ، لأن أكثر هذه المعانى كان مأخوذاً من السيد جمال الدين — فإن دل ذلك أيضاً على شىء ، فإنما يدل على حسن استعداد الشيخ للاصـــــلاح الدينى والإصلاح الاجتماعى

وخير لنا بعد ذلك أن نعرض للقارىء نموذجاً لكتابته فى هذه المرحلة ، وأن نشير بعد ذلك إلى البقية من مقالات هذه المرحلة إشارة موجزة .

كان الشيخ مجاوراً فى الأزهر حين اتصل بجريدة الأهرام الأسبوعية ونشر مقاله فى العدد الخامس من السنة الأولى لهذه الجريدة ، وذلك فى سبتمبر سنة ١٨٧٦ م الموافق ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ ؛ وكان موضوع المقال تقريظ جريدة الأهرام ، قال :

النموذج الأول

فى تقريظ الأهرام

إنه لما ظهر لدى كل قاص ودان ، واشتهر بين بنى نوع الإنسان ، أن مملكة مصر كانت فى سالفة الزمان ، مملكة من أشهر الممالك ، وكعبة يؤمها كل سالك وناسك ، إذ كانت قد اختصت بنشر العلوم ، وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم ، وانفردت بالبراعة فى الصنائع ، والابتكار فى أنواع البدائع ؛ فكان أبناء العالم إذ ذاك ينتدون نداها ، ويستجدون جداها ، يستمطرون من الغيث

قطراً ، ويستمدون من المحيط نهراً ، فكان التمدن فيها كهلا ، حين كان عند غيرها طفلا . ولا زالت كذلك حتى زها فيها التمدن . ولا عجب ، إذ رأى الطالبين تنسل إليه من كل حدب ، وأن ملوك الأرض خدام عتبته ، وتيجان الكيانين تحت قبضته فاستكبر واعتلى ، ولكئوس الراحة اجتلى ، فأقصته إلى ممالك الغرب . ليذوق مرارة السغب أو اللغب ، ويتربى بذلك ويتأدب . فبدا بتلك الممالك غريباً ، ونادى معلماً فوجد مجيباً ، وتناوشته أيدى الجاحدين ولفحته أقوال المنكرين . ولازال يحتمل أنواع المتاعب ، ويقاسى مستعصيات المصاعب ، إلى أن بلغ بها أشده وملك رشده ، وسار فيها شرقاً وغرباً ، وخامر ألباب القوم حياً ، فعم انتشاره ، وبدت آثاره ، وتلألأت أنواره ، وإذ تحلى بحلل الجمال وتتوج بتاج الكمال ، وقضى مدة السياحة ، وباء بغاية الراحة ، استدار الزمان كهيئته ورجع الأمر إلى بدايته ، وقفل التمدن إلى مسقط رأسه ومقر تربته ، فورد ديار مصر ورود الأهل ، وتمكن بها تمكن الأصلى ، فاستقبلته الديار بغاية المسرة ، وأكرمت مثواه وأعظمت أمره ، واستردت ما كانت فقدت ، وأدنت ما كانت أنأت ، وأحلته محل القرب ، وأنزلته سويداء اللب ، فقام يؤدى حق خدمتها ، ويوفى شكر كرامتها ، فنظر إلى ما كان أبداه فى تلك الأزمان ، من شواهق البنيان ، التى كم بلغت الأسباب ، وحيرت الألباب ، وأنبأت بما فيها من براعة بانيها ، ونطقت بفيها ، أن آيات الكمال فيها . فلما أعجب بالمثال ، حداه حادى الكمال ، لأن ينسج عن هذا المنوال ، فأنشأ لنا (جريدة الأهرام) ، المؤسسة على أحكم قواعد الأحكام ، الكافلة بإرشاد المسترشدين وتنبيه الغافلين ، بما فيها من المبانى الرقيقة ، والمعانى الدقيقة ، والأفكار العالية ، المؤيدة بالبراهين الشافية ، القائمة بنشر العلوم بين العموم . فيالها من جريدة أسست قواعدها فى القلوب ، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب ، تنادى بمقالها وحالها : حى على الفلاح ، وهلموا إلى موارد النجاح ، لاتقفوا عند صورة المبنى ، ولكن تجاوزوا عنه إلى المعنى تلك أهرام أشباح ، وهذه غذاء أرواح . تلك ظواهر صور ، وهذه دقائق عبر ، تلك مساكن أموات ، وهذه لسان سر السماوات . نعم أين ذلك الزمان ، من هذا الآن ، الذى قد سطعت فيه شموس العرفان ونشأ فيه

بنو الإنسان نشأة أخرى ، وتقلب فى فنون الحقائق بطناً وظهراً أن تكون أيامنا غير أيامهم ، وأهرامنا غير أهرامهم وأين الذى تفنيه الرياح والأمطار ؛ من الذى لا يوهنه توالى المدد والأعصار ، فإن مقره العقول العاليات ، والنفوس الزكيات ، التى لا يتناولها الفنا . ولا يبتذلها العنا . فبخ بخ بمنشيها ،وطوبى لقاريها . ومن الواجب على ذوى الألباب أن يجتنوا جناها ، وأن يستطلعوا سر معناها ، فيبوءوا بأنوار الحكمة ، وينقلبوا بفضل من الله ونعمة ، فإنه ليس شىء لدى العاقل أبهى من حقيقة يكشفها ، ولا ألذ من حكمة يصادفها .

هذا إيجاز فى مزاياها ، بسم الله مجراها ومرساها . آه

والقارىء لهذا المقال يلاحظ — كما قدمنا — أنه بنى على سجع متكلف ، من أوله إلى آخره ، وأن فيه إيثاراً للتراكيب القديمة مثل قوله بخ بخ ، وقوله . . تنادى بمقالها وحالها حى على الفلاح ؛ كما يلاحظ أنه بنى كذلك على التخيل إذ فيه يتخيل الكاتب رحلة التمدن من مصر إلى أوربا ، ثم عودته إلى مصر مرة أخرى حيث لقى من الإكرام ما انطلق لسانه بالشكر لها ، والإعجاب بأهرامها ، فآلى على نفسه أن يبنى فيها أهرامها أخرى ، هى هذه الجريدة التى جاءد الشيخ يقرظها بأسلوب المبتدىء ، حتى لكأنه شاعر فى غرزمته (١) يطمح إلى مجد أدبى لم يتح له بعد .

وهكذا مضى الشيخ يمد جريدة الأهرام بمقالاته من العدد الخامس إلى العدد الواحد والأربعين . ونال فى أثناء ذلك شهادة العالمية من الدرجة الثانية ، وذلك عام ١٢٩٤ هـ ونشر فى أثناء ذلك أيضاً مقالين له فى جريدة (مصر) لصاحبها أديب إسحاق ، أولاهما بعنوان (فلسفة التربية) والثانية بعنوان (فلسفة الصناعة) وهما خلاصة درسين من دروس السيد جمال الدين الأفغانى لا أكثر ولا أقل . ومن ثم لم يلتزم الشيخ السجع فيهما طويلا ، لأن حرصه على نقل أفكار أستاذه كان يستأثر بجهده كله .

---

(١) الغرزمة أول ما يقوله الشاعر من الشعر على سبيل المحاولة .

ومما كتبه بجريدة الأهرام فى هذه المرحلة مقالة بعنوان (القلم والكتابة) ومقالة بعنوان (المدبر الإنسانى والمدبر العقلى الروحانى) ومقالة بعنوان (العلوم الكلامية والعلوم العصرية) .

ونبه الشيخ رشيد رضا بعد ذلك إلى مقالة للأستاذ الإمام نشرت له بإحدى الصحف فى آخر يوليو عام ١٨٧٩ انتقد فيها الدولة العثمانية فى عبثها باستقلال تونس الإدارى ، ومحاولتها كذلك العبث بحقوق مصر وامتيازاتها عقب سقوط إسماعيل وتولية توفيق . والشيخ فى جميع هذه الفصول الأدبية السابقة يميل إلى السجع ويأخذ نفسه بالتزامه . ويحاول الأخذ عن العلوم الحديثة على سبيل (التوجيه) . والتوجيه نوع بلاغى يصطنع فيه الأديب بعض المصطلحات العلمية ، وكان الشيخ يحشو بعض كلامه بالحكم والأمثال ، وينزلق أحيانا إلى استخدام الأسماء العامية .

والشاهد فى قوله (طلمبات الشرايين) فليست الحاجة ماسة إلى ذلك . أما من حيث الموضوع فالشيخ فى كل ما كتب إلى الآن يوضح للناس فوائد الصحف تارة ، وقيمة العلوم الحديثة تارة ، ويسخر من افتقار الأزهر للمنطق تارة ثالثة ، وينقد سياسة الدولة العلية آخر الأمر . وذلك فضلا عن تلخيصه دروس جمال الدين .

المرحلة الثانية

وانتقل الشيخ محمد عبده بعد ذلك إلى الكتابة فى الوقائع المصرية الرسمية كما رأينا ؛ وبتاريخ ١٤ ذى القعدة سنة ١٢٩٧ هـ ، ١٩ أكتوبر سنة ١٨٨٠ م كتب مقالاته الأولى بعنوان (حكومتنا والجمعيات الخيرية) ، ثم بعنوان (احترام قوانين الحكومة وأوامرها من سعادة الأمة) . ثم بعنوان (حب الفقر وسفه الفلاح) وهكذا حتى المقالة السابعة عشرة ، وكان عنوانها (خطأ العقلاء) ثم قامت الثورة العرابية فتحول الشيخ من المقالات الاجتماعية إلى المقالات السياسية ، وكتب مقالته الثانية والثلاثين بعنوان (الحياة السياسية) والثالثة

والثلاثين بعنوان (الشورى) ثم قبض عليه فيمن قبض عليهم من زعماء الثورة .

وللقارىء هذه المقالات ملاحظات على الأسلوب ، وأخرى على الموضوع . فأما من حيث الأسلوب فقد عدل الشيخ عدولا ظاهراً في هذه المرحلة عن السجع ، ولكن إلى مايسميه النقاد (بالازدواج) أو (الترادف الصوتى) وهو نوع من السجع لاتلتزم فيه القافية ، كما عدل الشيخ عن الألفاظ الغريبة التى كان يأتى بها أحياناً فى مقاله من قبيل المباهاة ، إلى الألفاظ السهلة التى لايجد القارىء العادى فى فهمها أدنى صعوبة ، كما توخى البساطة أيضاً فيما أتى به من تشبيهات ، وفى مقاله (حب الفقر وسفه الفلاح) شبه المسرف بمن يصب ماء فى حوض فتحت فى قاعه بالوعة كبيرة لاتبقى شيئاً مما يصب فى الحوض[1] وإذ يقول : ومثلنا فى ذلك كمثل الدجاجة رأت أن الأوزة تبيض بيضاً كبيراً فطلبت أن تبيض مثلها فأجهدت نفسها فى أن يكون ذلك ، غير عارفة أن ذلك لا يكون إلا باستعداد — أى بأن تكون أوزة — فحبست نفسها واستعملت قوتها الدافعة حتى انشق منها ما انشق وتمزق منها ماتمزق الخ[2] وهكذا حاول الكاتب تبسيط أفكاره وتبسيط أسلوبه وألفاظه وتشبيهاته إلى درجة كبيرة ليفهمه جميع الناس .

وكان الشيخ فى أثناء ذلك لاينسى إيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأبيات الشعرية فى غضون كلامه — غير أنه كان مقتصداً كل الاقتصاد فى هذه الناحية .

وأما من حيث الموضوع فقد وقف الشيخ فى هذه المرحلة من حياته الكتابية موقف المعلم للشعب المصرى ، واتخذ من الوقائع المصرية منبراً يعظ الناس من أعلاه ويرشدهم ، ويوقظ فيهم شعوراً بضرورة الإصلاح . ومن ثم جاءت جميع مقالاته فى هذه المرحلة دروساً اجتماعية ودينية لا أكثر ولا أقل ؛ فدرس فى

---

(١) ص ٦٠ ج ٢ تاريخ الأستاذ الإمام الطبعة الثانية .

(٢) ص ١٢٦ ج ٢ تاريخ الأستاذ الإمام الطبعة الثانية .

تعليم الناس القانون ، ودرس فى حقوق الوطن ، ودرس فى كيف يستفيد الناس من المنتديات العامة . وكيف ينفقون أوقاتهم فيها ؟ ودرس فى حاجة الإنسان إلى الزواج ، وفى حكمة الشريعة فى تعدد الزوجات ، ودرس فى محاربة البدع السيئة كبدعة الازدحام فى المساجد أيام الحضرات ، وبدعة (الدوسة) وهى أن ينطرح الناس على الأرض متلاصقين ، ثم يمر أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم جميعاً ، ثم درس فى الحذر من المبشرين الذين يديرون طائفة من المدارس يأوى إليها نفر من أبناء الشعب فى مصر ، ودرس فى وخامة الرشوة ، ودرس فى الشورى والقانون ، وهكذا .

ولا بأس من أن نسوق للقارىء نموذجاً واحداً فقط من مقالات الشيخ فى هذه المرحلة ، وليكن المقال السابع عشر ، بعنوان :

خطأ العقلاء (١)

إن كثيراً من ذوى القرائح الجديدة ، إذا أكثروا من دراسة الفنون الأدبية ومطالعة أخبار الأمم وأحوالهم الحاضرة ، تتولد فى عقولهم أفكار جليلة ، وتنبعث فى نفوسهم همم رفيعة ، تندفع إلى قول الحق ، وطلب الغاية التى ينبغى أن يكون العالم عليها . ولكونهم اكتسبوا هذه الأفكار وحصلوا تلك الهمم من الكتب والأخبار ، ومعاشرة أرباب المعارف ، ونحو ذلك ، تراهم يظنون أن وصول غيرهم إلى الحد الذى وصلوا إليه . وسير العالم بأسره . أو الأمة التى هم فيها بتمامها على مقتضى ما علموه ، هو أمر سهل مثل سهولة فهم العبارات عليهم ، وقريب الوقوع مثل قرب الكتب من أيديهم ، والألفاظ من أسماعهم . فيطلبون من الناس طلباً حاثاً أن يكونوا على مشاربهم . ويرغبون أن يكون نظام الأمة وناموسها العام على طبق أفكارهم وإن كانت الأمة عدة ملايين . وحضرات المفكرين أشخاصاً معدودين . ويظنون أن أفكارهم العالية إذا برزت من عقولهم

(١) هذا المقال يدل على عقلية الشيخ الإمام . وعلى أنها عقلية تطورية لاثورية كعقلية أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى .

إلى حيز الكتب والدفاتر . ووضعت أصولا وقواعد لسير الأمة بتمامها . ينقلب بها حال الأمة من أسفل درك فى الشقاء إلى أعلى درج فى السيادة . وتتبدل العادات وتتحول الأخلاق ، وليس بين غاية النقص والكمال إلا أن ينادى على الناس باتباع آرائهم .

تلك ظنونهم التى تحدثهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب والمطالعات . وإنهم وإن كانوا أصابوا طرفا من الفضل من جهة استقامة الفكر فى حد ذاته وارتفاع الهمة وانبعاث الغيرة ، لكنهم أخطئوا خطأ عظيما من حيث إنهم لم يقارنوا بين ماحصلوه وبين طبيعة الأمة التى يريدون إرشادها ولم يختبروا قابلية الأذهان. واستعدادات الطبائع للانقياد إلى نصائحهم واقتفاء آثارها ، ولو أنهم درسوا طبائع العالم كما درسوا كتب العلم ، ودققوا النظر فى سطور أخلاقه وعاداته الحقيقية الواقعية التى اقتضتها حالة وجوده ؛ بل لو قارنوا بين الحوادث المسطرة فى الكتب ؛ وتبينوا كيفية انتقال الامم من بداياتها إلى نهاياتها ؛ لعلموا أن الأمم فى أحوالها العمومية كالأشخاص فى أحوالها الخصوصية ! بل إن الأحوال العمومية هى عبارة عن مجموع الأحوال الخصوصية . وليست الأمة مثلا إلا مجموعة أفرادها . وليس حال الهيئة المركبة من تلك الأفراد إلا مجموع أحوال هاته الأفراد .

فعلى من يريد كمال أمة بتمامها أن يقيس ذلك بكمال كل فرد منها ، ويسلك فى تكميل العموم عين الطريق التى يسلكها لتكميل الواحد . هل يسهل على صاحب الفكر الرفيع أن يودع فى عقل الطفل الرضيع ، أو الصبى قبل رشده وقبل أن يتعلم شيئاً من مبادىء العلوم تلك الأفكار العالية ، التى نالها بالجد والاجتهاد وكثرة المطالعات ؟ كلا ! بل لو أراد أن يحمل شخصاً من الأشخاص على مثل فكره احتاج إلى أن يبدأ بتعليمه القراءة والكتابة ، ثم مبادىء الفنون السهلة التحصيل ، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً حتى ينتهى بعد سنين عديدة إلى بعض مطلوبه ؛ ثم هو خلال ذلك محتاج إلى أن يحصر أعماله ويقيدها بقيود من الترغيب والترهيب ، وأن يراقب حركاته فى أعماله خوفا من اختلاط الفاسدى

الأخلاق والأفكار، أو المائلين إلى الكسالة والبطالة أو ورود موارد الشهوات ونحو ذلك من الملاحظات التى لابد منها . فإن اختل شىء من الترتيب فى التعليم بأن قدم الأصعب على الأسهل مثلا ، أو أهمل ملاحظة أعماله وأحواله ، اختلت التربية ، وذهبت الأتعاب سدى . واستحال صيرورة حال ذلك الشخص مماثلة لحالة مرشده .

ولو أنه أراد تحويل أفكار شخص واحد وهو فى سن الرجولية هل يمكنه أن يبدلها بغيرها بمجرد إلقاء القول عليه ؟ كلا ؟ إن الذى تمكن فى العقل أزمانا لايفارقه إلا فى أزمان ، فلابد لصاحب الفكر أن يجتهد أولا فى إزالة الشبه التى تمسك بها ذلك الشخص فى اعتقاداته ؟ وذلك لا يكون فى آن واحد ، ولا بعبارة واحدة ؟ ولكن بعبارات مختلفة فى التقريب ، بعضها سهل المأخذ قريب المنال ، والبعض أرقى منه ؛ وبعضها خطابى ، والآخر برهانى ، وماشابه ذلك. فإن لم يتخذ تلك الوسائل فى إرشاده ، امتنع عليه مقصوده ، بل ربما جره نصحه إلى الضرر بنفسه . تلك هى الحالة المشهورة التى لاينكرها أحد ، ثم إن نجاحه فى تغيير فكر واحد مع كل هذا الاجتهاد ، موقوف على أن صاحب ذلك الفكر الفاسد ، لايعاشر ولا يخالط فى خلال تعلمه إلا مرشده صاحب الفكر السليم ، فإن كان يخالط غيره ممن يؤيد فكره الأول طال الزمن ، وربما لم ينجح فيه الإرشاد ، وأظن أن هذا يعترف به كل من مارس الأخلاق والعادات .

إن كان هذا حال شخص واحد إذا أردنا إصلاح شأنه فى صغره أو كبره . مع أنه يسهل ضبط أعماله وأحواله ، والوقوف على كنه أوصافه ودرجات تقدمه فى المقصود وتأخره فيه ، فما ظنك بحال أمة من الأمم تختلف عناصرها ، وتتباين شعوبها ؟ فمن الخطأ بل من الجهالة أن تكلف الأمة بالمسير على مالاتعرف له حقيقة ، أو يطلب منها ماهو بعيد من مداركها بالكلية ، كما أنه لايليق أن يطلب من الشخص الواحد مالا يعقله ، أو مالا يجد إليه سبيلا .

وإنما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها الكلية المقررة فى عقول أفرادها ثم يطلب بعض تحسينات فيها لاتبعد منها بالمرة . فإذا اعتادوها طلب منهم ماهو

أرقى بالتدريج ، حتى لا يمضى زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرقى وأعلى من حيث لا يشعرون . أما إذا وضع لهم من الحدود مالم يصلوا إلى كنهه ، وكلفوا من العمل مالم يعهدوه ، أو خولوا من السلطة مالم يعودوه ، رأيتهم يتخبطون فى السير لخفاء المقصود عنهم ، وضلال الرأى فيما لم يكن يمر على خواطرهم ، فيمكن أن يخرجوا عن حالتهم الأولى لكن إلى ما هو أتعس منها بحكم الاستعداد القاضى عليهم بذلك .

مثلا : إننا نستحسن حالة الحكومة الجمهورية فى أمريكا ، واعتدال أحكامها ، والحرية التامة فى الانتخابات العمومية فى رؤساء جمهورياتها ، وأعضاء نوابها ومجالسها ، وماشاكل ذلك ، ونعرف مقدار السعادة التى نالها الأهالى من تلك الحالة ، ونعلم أن هذه السعادة إنما أتت لهم من كون أفراد الأمة هم الحاكمين فى مصالحهم بأنفسهم ، لأنهم أرباب الانتخابات ، وإنما رؤساء الجمهوريات وأعضاء المجالس نواب عنهم فى حفظ تلك المصالح والحقوق التى رأوها لأنفسهم ، وتتشوق النفوس الحرة أن تكون على مثل هذه الحالة الجليلة — لكننا لا نستحسن أن تكون تلك الحالة بعينها — لأفغانستان مثلا — حال كونها على مانعهد من الخشونة فإنه لو فوّض أمر المصالح إلى رأى الأهالى ، لرأيت كل شخص وحده له مصلحة خاصة لا يرى سواها ، فلا يمكن الاتفاق على نظام عام ولو طلب منهم أن ينتخبوا مائة نائب مثلا لرأيت كل شخص ينتخب صاحبا له أو نسيبا أو قريبا ، فربما ينتخبون آلافا مؤلفة ، ثم لا ينتهى الانتخاب إلى المرغوب أصلا ، لوقوف كل واحد عند انتخابه الأول ولو وكل إليهم انتخاب رئيس للحكومة لانتخبت كل قبيلة رئيساً منها ، ثم يقع الهرج بين الرؤساء ، وهكذا حال الأمم التى تعودت على أن يكون زمامها بيد ملك أو أمير أو وزير يدير أعمالها العامة وإلا فسدت. فإذا أردنا إبلاغ الأفغان مثلا إلى درجة أمريكا ، فلابد من قرون تبث فيها العلوم، وتهذب العقول ، وتذلل الشهوات الخصوصية ، وتوسع الأفكار الكلية ، حتى ينشأ فى البلاد مايسمى بالرأى العمومى . فعند ذلك يحسن لها ما يحسن لأمريكا. وياعجباً ! هل الشخص الذى توارث العوائد عن آبائه وأجداده ، ومرن عليها من

مهده إلى كهولته ، وتعود تفويض مصلحته إلى إرادة غيره يصح أن يطلب منه فى زمان واحد خلع جميع ذلك ، ويلقى إليه زمام مصلحته ، وهو فى جميع عمره لم يفكر فيها ؟ إن هذا الخطأ ظاهر .

ولكون أرباب الأفكار منا يرومون أن تكون بلادنا ، وهى هى كبلاد أوربا وهى هى ، لا ينجحون فى مقاصدهم ، ويضرون أنفسهم بذهاب أتعابهم أدراج الرياح ، ويضرون البلاد بجعل المشروعات فيها على غير أساس صحيح ، فلا يمر زمن قريب إلا وقد بطل المشروع ، ورجع الأمر إلى أسوأ مما كان ، فيفوت الزمان وهم على حالهم القديم وكان لهم إمكان أن يكونوا على أحسن منه فمن يريد خير البلاد فلا يسعى إلا فى إتقان التربية ، وبعد ذلك يأتى له جميع ما يطلبه إن كان طالباً حقاً بدون أتعاب فكر ، ولا إجهاد نفس . وفى الكلام بقية أذكرها فيما بعد هذا العدد .

وواضح من قراءة هذا المقال أن الفكرة فيه هى اللامعة ، وأن الأسلوب فيها أتى لخدمة هذه الفكرة ، وأنه ساقها سوقاً حسناً ، وتدرج فى إفهامها للقارىء كما يتدرج المدرس الماهر فى إفهام التلاميذ درساً جديداً عليهم، غريباً على أذهانهم. هذا من حيث الأسلوب ، أما من حيث منهج التفكير فلا نعرف أن مقالا أدل على عقل صاحبه وعلى إيثاره التدرج فى الإصلاح من هذا المقال .

المرحلة الثالثة

ننتقل بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة من مراحل الكتابة الصحفية للأستاذ الإمام الشيخ محمدعبده ، وهى المرحلة التى كان فيها الإمام بباريس إلى جانب أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى .

وهناك فكر الرجلان فى الطرق المؤدية لإصلاح الشرق الإسلامى ، فكان من رأى الإمام أن يكون ذلك بإنشاء ما سماه (مدرسة الزعماء) ، يتخرج فيها مصلحون عظماء ، ينبثون فى أعماق هذا الشرق وبلدانه ، ويبشرون بعهد الإصلاح الجديد فى الدين وفى المجتمع ، ولكن هذا الرأى لم يرق فى نظر السيد جمال الدين ، وهو رجل يلتهب حماسة وغيرة على مصالح الشرق والشرقيين ، ولا يعرف للإبطاء

سبيلا من سبل الإصلاح ، بخلاف محمد عبده وقد رأينا فى مقاله (خطأ العقلاء) يؤمن بالتدريج ولا يطمئن كثيراً إلى التطرف والطفوة ، وتغلب الأستاذ على تلميذه فى النهاية ، واتفقا معاً على إنشاء (جريدة العروة الوثقى) واشتركا فى تحريرها يومئذ ، وأشركا معهما كذلك (ميرزا محسن باقر) ، فكان يقوم بعمل المترجم عن الصحف الأجنبية لكل ما يهتم به العالم الشرقى وكان من وراء هذه المجلة جمعية سرية تنبث فى جميع أقطار العالم الإسلامى ، وتضم إليها نفراً من المسلمين المثقفين المعروفين بالغيرة والتحمس الشديد للدين ، ويقسم كل واحد منهم قسماً أن يبذل ما فى وسعه لإحياء الأخوة الإسلامية وإنزالها منزلة البنوة والأبوة الصحيحتين ، وألا يقدم إلا ما قدمه الدين ، ولا يؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا يسعى قدما واحدة يتوهم فيها ضرراً يعود على الدين ، جزئياً كان أو كلياً ، وأن يطلب الوسائل لتقوية الإسلام عقلا وقدرة ، وأن يوسع معرفته بالعالم الإسلامى من كل نواحيه بقدر ما يستطيع (١) . وأنشئت للجمعية فروع فى البلدان المختلفة ، يجتمع كل فرع منها للمذاكرة ، وفى آخر كل اجتماع يتبرع الأعضاء بشىء من المال فى صندوق صغير له ثقب ضيق ، فيه كل ما تيسر خفية ، حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر . ولعل هذا الباب هو ما كان ينفق منه على الجريدة والقائمين بها . فقد كانت ترسل أكثر أعدادها مجانا .

برنامج العروة الوثقى :

وأما برنامج الجريدة فقد أوضحاه فى ختام المقالة الأولى حيث قالا ما معناه أنه يتلخص فى الأمور الآتية :

أولا : إفهام الشرقيين واجباتهم التى كان التفريط فيها موجباً لسقوطهم ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فاتهم .

ثانياً : إفهامهم كذلك أن الأمل فى النجاح قريب ، إذ لا حاجة فى الوصول

---

(١) زعماء الإصلاح للاستاذ أحمد أمين ص ١٨٠ .

إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة . تصورها يوجب فتور الهمم ، وانحطاط العزائم .

ثالثاً : دعوة المسلمين كافة إلى التمسك بالأصول التى كان عليها آباؤهم وأسلافهم ، فلا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله ، والمثل الأعلى للمسلمين فى نظر الجريدة هنا هو ماكان عليه الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين قبل أن يدخل عليهم الفساد من أبواب شرحتها الجريدة شرحاً وافياً فى المقالات التى تيسر لها أن تنشرها .

رابعاً : إبطال الزعم بأن المسلمين لا يتقدمون فى مضمار المدنية الحاضرة ماداموا مستمسكين بدينهم ، لأن دينهم فى نظر من لا يفهمونه من الأوربيين يدعو إلى التواكل .

خامساً : تقوية الروابط والصلات بين الأمم الشرقية وتمكين الألفة بين أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينهم .

سادساً : وصل الشرقيين بما يهمهم من الأخبار العامة والأخبار الخاصة ، وبسياسة الدول الأجنبية تجاه البلاد الشرقية ونحو ذلك .

غير أن الجريدة لم تصدر أكثر من ثمانية أعداد فقط ، من مارس سنة ١٨٨٤ إلى أكتوبر من تلك السنة .

وفى أثناء ذلك انتقل الشيخ محمد عبده من دائرة ضيقة كان يعمل فيها لإصلاح مصر من الناحيتين الدينية والاجتماعية ، إلى دائرة أوسع وأكبر هى الدائرة التى أصبح فيها مع السيد جمال الدين يعمل لصالح الكافة من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

ثم هكذا استبدل الشيخ بطابع الهدوء الذى غلب على نفسه وخلقه طابع الثورة التى انتقلت إليه بالعدوى من أستاذه ، وقد رأينا أن أستاذه كان لا يمهله حتى يفكر بالطريقة التى تعودها . لكن كان يدفعه بقوة لاتعرف الابطاء لمحاربة الأدواء التى نخرت بسببها عظام الإسلام إذ ذاك .

وإذن فلا مفر للشيخ من مسايرة هذا الجواد الجامح يعدو بعدوه ويركض

بركضه ويصهل بصهيله ويثب بوثوبه ، لايلوى على شيء ! وهاهو ذا الشيخ فى باريس يقوم بدور المعلم المصلح للعالم الإسلامى كله ، بعد أن كان فى مصر معلما للمصريين وحدهم . ومن ثم أخذت مقالاته فى العروة الوثقى طابع الدعوة الحارة إلى جانب الطابع الأول ، وهو طابع الدرس الخالص الهادىء . ومضى يكتب نحواً من اثنتين وعشرين مقالة بهذا الروح ، كان للسيد فيها فضل الفكرة فى أكثرها ، وكان للشيخ فيها فضل الأسلوب فى أكثره .

والقارىء لهذه المقالات كلها يرى كيف كان هذان الرجلان يدركان أن إصلاح الشرق لايكون إلا عن طريق الدين . فالدين فى رأيهما فيه صلاح الدنيا وصلاح الآخرة معاً . وعندهما أنه لا جنسية للمسلمين إلا فى دينهم ، وأن « الجامعة الإسلامية » يجب أن تقوم مقام الروابط الأخرى ، بل ينبغى أن تكون مقدمة عليها . وفى رأيهما أن الدين الإسلامى يدعو إلى القوة ، ويدعو إلى العلم ، والعلم فى ذاته طريق من طرق القوة . ولذا يتعجب الرجلان أشد العجب من الأمم المسيحية فى العصر الحاضر سبقت الأمم الإسلامية فى ميدان القوة التى بنى الدين الإسلامى عليها .

ويرى الإمامان العظيمان أنه عن طريق الدين يمكن أن يسموا بنفوس المسلمين إلى المجد ، وأن يجددا فيهم الأمل ؛ لأن الدين الإسلامى لايأمر بالجبن ولا باليأس ، ولكن يدعو إلى الاقدام ويحبذ طريق القوة ، ويكره القنوط (ولايقنط من روح الله إلا القوم الكافرون) .

وفى رأيهما أنه لابد من إصلاح الأفكار الخطئة التى تسود الشرق وتسيطر على أذهان أهله وهى أخطار جسيمة يمكن أن يكون لها عنوان واحد هو (الوهم) ، فعلى المصلحين أن يتجردوا لمحاربته حتى تتخلص الأمم الشرقية مما استولى عليها من الضعف وتسترد حريتها المسلوبة ومجدها القديم ، وتتغلب على عدوها الذى استغل فيها هذا المرض وهو الوهم ، كما استغل فيها سوء فهمها لعقيدة القضاء والقدر ومتى فهم المسلمون دينهم على الوجه الصحيح استطاعوا أن يصلوا إلى المرتبة اللائقة بهم بين الأمم . وعلى المسلمين فى هذه الحالة أن يشجعوا العلوم الحديثة

التى توصل بها الأوربيون إلى الكشف عن آلات القتال ، فقد قال تعالى : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ، وعليهم أن يحاربوا الاحتلال الأجنبي أينما كان .

تلك هى الأفكار التى اشتملت عليها مقالات الشيخ فى جريدة العروة الوثقى . أما الأسلوب الذى كتبت به هذه الأفكار فقد ارتفع فى درجة جودته وبلاغته ، كما ارتفع فى درجة حرارته وتدفقه عما كان عليه فى الوقائع المصرية الرسمية . والفضل فى ذلك أولا لوجود الشيخ إلى جانب السيد — وهو مصدر إشعاع حرارى لا يقدر مداره كما رأينا .

ثم إن الشيخ محمد عبدة كان فى مصر يروض قلمه على التعبير حتى مرن هذا القلم ، وأكسبه هذا المران قوة وسهولة وجمالا وتدفقاً فى وقت معاً . فإذا أضيف إلى ذلك أنه كان يصدر عن عاطفة قوية منفسحة تسع العالم الإسلامى كله أدركنا إلى أى حد ارتفع أسلوب الشيخ فى ذلك الحين ، أما السجع فقد استمر الشيخ فى عدوله عنه ، ولكنه كان ينفلت منه انفلاتا ، وذلك حين تعلو فى مقاله درجة الحرارة ، أو التدفق ، فيضطر الشيخ فى هذه الحالة إلى السجع ، ويأتى سجعه إذ ذاك لمجرد إحداث متوافق بين نفسه وبين قلمه ، أو بين اهتزازاته الشعورية واهتزازاته اللفظية إن صح هذا التعبير .

على أننا نلاحظ أيضاً أن أسلوب الشيخ فى هذه المقالات كان لا يجرى مجرى الحديث العادى كما كان يفعل فى المرحلة الأولى من مراحله فى الكتابة ، ولكن يجرى مجرى الخطابة ، وفيه كثير من خصائصها كتكرار الكلام بقصد التأكيد ، وكثرة النداء فى غضون المقال ، وكثرة الإشارة والاستفهام الإنكارى ونحو ذلك .

ومن السهل على قارىء هذه المقالات أن يدرك أن العناية بالفكرة توشك أن تغلب فيها العناية بالأسلوب ، وهذا ما يفسر لنا خلو العبارة أحيانا من الألفاظ الفحلة الجزلة ، ومن الجرى وراء المحسنات وما إليها من أدوات الزينة اللفظية التى استعاض عنها الشيخ بصدق العواطف المنبثة فى ثنايا المقال ، وبدرجة الحرارة التى وصل إليها

من أجل هذا حملت مقالات العروة الوثقى — كما قلنا — طابع الدروس الدينية أو السياسية ، حتى كأن بعض هذه المقالات إنما كتبت لتفسير القرآن تفسيراً يتفق وأغراض الجريدة .

ومع هذا وذاك فإنا نلاحظ فى هذه الفصول الأدبية الصحفية أن ذوق كاتبها قد ارتفع إلى درجة كان يأتى فيها بالصور البيانية الرائعة ، ومنها على سبيل المثال :

« ومن الفضائل الحسنة التى يدعو إليها الدين النظر إلى أفراد الأمة الواحدة كأعضاء الجسد الواحد ، وإلى أن أصغر فرد فى الأمة بمنزلة مسمار صغير فى آلة كبيرة لو سقط منها تعطلت الآلة بسقوطه (١) » .

وقوله « إن الإنجليز صاروا كالدودة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة وتدمر البنية (٢) » .

وقوله « أما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك فى جنس ولا فى دين تقوم رابطته مقام الجنس فمثلهم فى المملكة كمثل الأجير فى بناء بيت لا يهمه إلا استيفاء أجرته ثم لا يبالى أسلم البيت ، أو جرفه السيل ، أو أدركته الزلازل (٣) » .

وقوله « والفضائل فى المجتمع الإنسانى كقوة الحياة المستكملة فى كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عند حد وظيفته . . كاليد بها البطش والتناول وليس من خصائصها الإبصار ، والعين من وظائفها الإبصار . . . الخ (٤) » .

ثم بالرغم من سهولة الألفاظ التى تتألف منها المقالات فقد يصطدم القارىء فى حالات قليلة وليست شائعة ، بكلمة غريبة ، ولفظ قليل الاستعمال عند الكتاب .

---

(١) ص ١٣٦ مجلة العروة الوثقى ط . المكتبة الأهلية فى بيروت .
(٢) ص ١٥٩ .
(٣) ص ١٩٠ .
(٤) ص ١٣٣ .

ومن أمثلة ذلك :

(وإذا أراد الله بشعب أن يلقى بوانيه إلى أجل مسمى أودع فى ضئاضئه هذين الوصفين الجليلين يريد الميل إلى الوحدة ، والكلف بالسيادة (١)) .

(فقوله ألقى بوانيه معناه أقام وثبت ، وقوله ضئاضئه معناه أصوله) .

ومثل : تغثغ جماعة من متزندقى هذه الأوقات فى بيان مفاسد التعصب الدينى (٢) .

(فقوله تغثغ معناه خلط فى الكلام)

ومثل قوله فى فصل عن التعصب الدينى : لفظ شغل مناطق الناس حتى صار تكأة للمتكلمين ، يلجأ إليه الصبى فى تهتهته ، والذلقانى فى تفيهقه (٣)

(فالذلقانى : سريع الكلام ، والتفيهق : التنطع) .

ليس شك فى أن الكاتب يلجأ أحياناً للألفاظ الغريبة ليحقق غاية بلاغية فى نفسه ، ولكن الخطر فى ذلك يأتى من أن القارىء إما أن يتمهل ويجهد ذاكرته حتى يعرف معنى الكلمة ، وإما أن يحاول البحث عنها فى معاجم اللغة ، وهذه الحركة أو تلك كافية لأن تضيع عليه المعنى وتفوت على الكاتب قصده من الإغراب .

على أن قارىء العروة الوثقى لا يسعه إلا الاعتراف لكتابها بحسن أختيار الألفاظ ذات الإيحاء الخاص . وهى صفة لا تتيسر لغير الموهوبين فى الكتابة ، أو المثقفين بالثقافة الإسلامية العميقة .

ثم إن الأمثلة التى توخى الإمامان ضربها فى مجلة العروة الوثقى ، كان معظمها مشتقاً من السياسة الإنجليزية فى الهند والأفغان ومصر ، وقائما على التنديد بهذه السياسة والغض منها ، وكشف الأثام عنها للعالم الإسلامى . وبهـــذا العنصر الأخير — وهو السخرية — استحقت مقالات العروة الوثقى اسم

---

(١) العروة الوثقى ط . المكتبة الأهلية بيروت ص ١٥٨ .
(٢) ص ١٠٢ (٣) ص ١٩٦ .

الكتابة الصحفية الصحيحة . فقد سبق أن قلنا مراراً أن شرط النجاح فى كتابة المقالة هو أن يكون الكاتب الصحفى ناقما على شىء معين ، وأن يعبر عن هذه النقمة إما بطريق الغضب — على مذهب الشرقيين إلى عصرنا هذا — أو بطريق الفكاهة أو السخرية على مذهب الأوربيين إلى اليوم .

لم يبق إلا أن نعرض على القارىء نموذجاً واحداً من كتابة الشيخ فى هذه المرحلة الهامة من مراحل حياته . غير أننا لا نستطيع أن ننقل إلى القارىء مقالا كاملا من مقالات الشيخ فى هذه الجريدة ، لأنها طويلة ومسرفة فى الطول إلى الحد الذى لا يمكن نشره فى جريدة من جرائد الوقت الحاضر .

ولذلك نحن مضطرون إلى الاكتفاء بجزء فقط من إحدى المقالات ، ليكون نموذجاً لأسلوبه فى تلك الفترة .

ولتكن مقالته المشهورة بعنوان :

القضاء والقدر

قال بعد مقدمة طويلة استغرقت أربعة وعشرين سطراً[1] :

« من ذلك عقيدة القضاء والقدر التى تعد من أصول العقائد فى الديانة الإسلامية الحقة ، كثر فيها لغط المغفلين من الإفرنج وظنوا بها الظنون . وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف والضعة ، ورموا المسلمين بصفات ، ونسبوا إليهم أطواراً ثم حصروا علتها فى الاعتقاد بالقدر ، فقالوا . إن المسلمين فى فقر وفاقة وتأخر فى القوة الحربية والسياسية عن سائر الأمم . وقد فشا فيهم فساد الأخلاق ، فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض ، وتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة ، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم ، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ، ثم لا ينافسون غيرهم فى فضيلة ، ولكن متى أمكن لأحدهم

---

(١) ص ١١٤ العروة الوثقى ط . بيروت

أن يضر أخاه لا يقصر فى إلحاق الضرر به ، فجعلوا بأسهم بينهم . والأمم من وراثهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى » .

ثم قال بعد اثنين وثلاثين سطراً :

« واعتقد أولئك الإفرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية ، القائلين بأن الإنسان مجبور (١) محض فى جميع أفعاله . وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة فى الهواء ، تقلبها الرياح كيفما تميل ، ومتى رسخ فى نفوس قوم أنه لا اختيار لهم فى قول ولا عمل . ولا حركة ولا سكون . وإنما جميع ذلك بقوة جابرة ، وقدرة قاسرة ، فلا ريب تتعطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى ، وتمحى من خواطرهم داعية السعى والمكسب ، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم » .

ثم قال بعد ثلاثة عشر سطراً :

« نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى « الجبرية » ذهبت إلى أن الإنسان مضطر فى جميع أفعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار ، وزعمت ألا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ وبين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدته . ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة . وقد انقرض أرباب هذا المذهب فى أواخر القرن الرابع من الهجرة ، ولم يبق لهم أثر . وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولا مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون » .

ثم قال بعد خمسة وثلاثين سطراً :

« الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر تتبعه صفة الجرأة والإقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التى تجف لها قلوب الأسود ، وتنشق منها مرائر النمور هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات ، واحتمال المكاره . ومقارعة الأهوال ، ويحليها بحلى الجود والسخاء ؛ ويدعوها

---

(١) كذا وردت هذه الكلمة بالأصل ؛ وصحتها مجبر .

إلى الخروج من كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح ، والتخلى عن نضرة الحياة . كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

والذى يعتقد بأن الأجل محدود والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه ، وإعلاء كلمة أمته وملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تقرير الحق وتشييد المجد ، على حسب الأوامر الإلهية ، وأصول الاجتماعات البشرية ؟

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته فى قوله الحق : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

إلى الآن كان الشيخ فى مقاله هادئاً أو كالهادىء ، أو قل إن درجة الحرارة كانت ترتفع فى مقاله شيئاً فشيئاً ، وما زالت كذلك حتى وصلت إلى درجة تشبه الغليان فى العبارة الآتية :

« اندفع المسلمون فى أوائل نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها ويتسلطون عليها ، فأدهشوا العقول وحيروا الألباب بما دوخوا الدول وقهروا الأمم ، وامتدت سلطتهم من جبال بيرينى (يريد البرانس) الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا إلى جدار الصين ، مع قلة عددهم وعددهم ، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة ، وطبائع الأفكار المتنوعة . أرغموا الملوك وأذلوا القياصرة والأكاسرة، فى مدة لا تتجاوز ثمانين سنة . إن هـــذا ليعد من خوارق العادات ، وعظائم المعجزات ! » .

وانظر إلى الشيخ ينفلت منه السجع والازدواج ليوائم ما فى نفسه — من اهتزازات شعورية كما قلنا .

« دمروا بلاداً . ودكدكوا أطواداً ! ورفعوا فوق الأرض أرضاً ثانية من القسطل ، وطبقة أخرى من النقع ، وسحقوا رءوس الجبال تحت حوافر جيادهم ،

وأقاموا بدلها جبالا وتلالا من رؤوس النابذين لسلطانهم ، فأرجفوا كل قلب وأرعدوا كل فريصة ، وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هـــذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر .

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق ، وانقضت شهبها على الحيارى فى هبوات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل إعلاء كلمتهم ، لا يخشون فقراً ، ولا يخافون فاقة .

هذا الاعتقاد هو الذى ارتفع بهم إلى حد أن كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ، ويهد أفلاذ الأكباد ، حتى كانوا ينصرون بالرعب ويقذف به فى قلوب أعدائهم ، فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ، ولمعان أسنتهم ، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف جحافلهم » .

أرأيت إلى الشيخ كيف بدأ كاتباً هادىء الطبع ، ثم تحول إلى خطيب ملكت عليه الثورة كل جوانبه ، وها هو ذا فى نهاية المقال يتحول إلى شاعر يتخيل المسلمين ينتصرون على أعدائهم قبل اللقاء بهم فى ميادين القتال .

وانظر إلى الشيخ يستسلم لمشاعره فلا يدرى القارىء بعد ذلك أيقرأ شعراً يمتاز بحدة العاطفة أم يستمع لخطيب عجز عن كبح عواطفه :

« بكائى على السالفين ونحيبى على السابقين ، أين أنتم ياعصبة الرحمة وأولياء الشفقة ؟ أين أنتم يا أعلام المروءة ، وشوامخ القوة ؟ أين أنتم يا آل النجدة ، وغوث المضيم يوم الشدة ؟ أين أنتم يا خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ؟ أين أنتم أيها الأمجاد الأنجاد القوامون بالقسط ، الآخذون بالعدل ، الناطقون بالحكمة المؤسسون لبناء الأمة؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم ؟ انحرفوا عن سنتكم ، وحادوا عن طريقكم ، فضلوا عن سبيلكم ، وتفرقوا فرقا وأشياعا ، حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً ، وتحترق الأكباد حزناً . أضحوا فريسة للأمم الأجنبية ، لا يستطيعون ذوداً عن حوضهم ، ولا دفاعا عن حوزتهم ، ألا يصيح من برازخكم صائح منكم

ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدى الضال إلى سواء السبيل ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون » .

إن هنا يشعر القارىء بأن الكاتب قد عبر عن فكرته بما فيه الكفاية ، وختمها ختاما قويا كذلك ، ولكن القارىء يعجب مع هذا كيف أن الكاتب استأنف كلامه فى نفس هذا الموضوع ، كأنما نفسه لم تزل ممتلئة بكلام كثير يريد أن يتخفف منه ، فقال :

« أقول وربما لا أخشى واهما ينازعنى فيما أقول إنه من بداية تاريخ الاجتماع البشرى إلى اليوم ما وجد فاتح عظيم ولا محارب شهير نبت فى أواسط الطبقات ، ثم رقى بهمته إلى أعلى الدرجات ، فذللت[1] له الصعاب ، وخضعت له الرقاب ، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو إلى العجب ، ويبعث الفكر لطلب السبب إلا كان معتقداً بالقضاء والقدر » .

ثم مضى الكاتب فى عبارته التى سود بها بعد كل ذلك أكثر من ثمانين سطراً .

المرحلة الرابعة

سمح للأستاذ الإمام بعد ذلك أن يسافر إلى بيروت ، وهناك اتصل به العلماء والأدباء ، وفسحت له بعض الصحف صدورها ، واستكتبته جريدة (ثمرات الفنون) ، وكان فى أثناء ذلك على اتصال دائم بالصحف المصرية ، وبالأهرام بنوع خاص ، فكان يعرف منها أخبار بلاده وحركات أهلها .

واستطعنا أن نقف له على سبع مقالات فى جريدة « ثمرات الفنون » دافع فى إحداها عن المصريين ضد من اتهمهم بعصيان الخديو ، ورد فى أخرى منها على سؤال وجه إليه فى كتب المغازى ، ولخص فى الثالثة خطبته التى ألقاها بالمدرسة السلطانية ببيروت ، وكتب الرابعة فى الرد على « رسالة لصمويل بيكر فى السودان ومصر وانجلترة » وذهب فى هذه الأخيرة إلى أن المصريون عثمانيون ، وبذلك أرضى الدولة العلية فى مقاله هذا ، لأنه كان يومئذ نزيل قطر من أقطارها

(١) لعلها : فدلت .

ودافع عن الجيش المصرى الذى نصح صمويل بيكر حكومته بالعمل على إلغائه واستبدال جيش عثمانى به ، وكشف الأستاذ الإمام عن دسائس الإنجليز الذين حاولوا استغلال قوة الدولة العثمانية لمصلحتهم فى تذليل السودان لهم ليتفرغوا هم للمسألة الأفغانية . وذلك جرياً على سياستهم المعروفة ، وهى ضرب الأمم بعضها ببعض ، والاستفادة من ذلك .

والمقال الخامس فى موضوع « المحاكم الأهلية » وفيه دفاع عن الوحدة بين المسلمين والأقباط ، وهو دفاع مؤيد بالحجج التاريخيـة والأحاديث النبوية والدلائل المنطقية .

والسادس فى اللغـــة الرسمية فى المحاكم الأهلية بمصر ، والسابع عنوانه « الانتقاد » .

أما أسلوب الإمام فى هذه المقالات السبع ، فأسلوب بسيط هادىء ، ولم لا يكون كـذلك وقد ابتعد الشيخ عن أستاذه الحاد الطبع ، وخلا إلى نفسه ، فعـاد إلى طبيعته الأولى . فلا يحس القارىء ارتفاعاً بسيطاً فى درجة الحرارة إلا حين يتصل الكلام بموضوع الدين من قريب أو من بعيد ، كما فى مقاله عن كتب السير والمغازى .

وهاك نموذجاً صغيراً من كـتابته فى تلك الآونة ، قال فى تلخيصه لخطبة ألقاها ، موضوعها :

العلم الأهم للأمة

« إن حرصنا معاشر العثمانيين على انتشار المعارف منشؤه أمر فى نفوسنا ، فإننا إذا خالطنا سكان الأقطار الشرقية على اختلاف مواقعها نجد فى كل واحـد منهم إحساساً بفقد شىء كان له ، فهو آسف على فواته ، وفيه ميل لطلبه رغبة الوصول إليه ، غير أن النفوس فى حيرة من هـذا المفقود المطلوب كأنها لا تهتدى إليه . ويزيدنا أسفا وشوقا مخالطتنا لأقوام يدعون أنا فى المنزلة المتأخرة عنهم . وسواء أصابوا فى دعواهم أم أخطأوا فإن الجمهور مناقد صدقهم . ولم تزل

الحيرة آخذة بالعقول حتى قامت الدولة العلية بصوت خليفتها الأعظم تنادى على الأمة : إن مطلوبكم المحبوب هو العلم . كان العلم فيكم وكان الحق معه كل مفقود يفقد بفقد العلم ، وكل موجود يوجد بوجود العلم ثم أنشأت المدارس ، وأقامت بناء المكاتب ، وحمات رعاياها من كل طبقة عن الدراسة ، وطالبتهم باقتناء العلوم . فاستجاب لها أقوام منحتهم الفطرة فوق الإستعداد ، وسيتبعهم غيرهم إن شاء الله .

أما العلم الذى نحس بحاجاتنا إليه،فيظن قوم أنه علم الصناعة . وما به إصلاح مادة العمل فى الزراعة والتجارة مثلا ، وهـــذا ظن باطل ، فإنا لو رجعنا إلى ما يشكوه كل منا نجد أمراً وراء الجهل بالصناعات وما يتبعها . إن الصناعة لو وجدت بأيدينا تجد فينا عجزاً عن حفظها . وإن المنفعة قد تهيأ لنا ثم تنفلت منها لشىء فى نفوسنا . فنحن نشكو ضعف الهمم ، وتخاذل الأيدى وتفرق الأهواء ، والغفلة عن المصلحة الثابتة ، وعلوم الصناعات لا تفيدنا دفعاً لما نشتكيه .

فمطلوبنا عم وراء هذه العلوم ، ألا وهو العلم الذى يحمس النفس ، وهو علم الحياة البشرية .

إذا نفخت الحياة فى جسم نبهته بجميع ضروراته ، وهدته لحاجاته واستحفظته ما يصل إليه ، وصرفته فى سبيل الحصول عليه . والعلم المحي للنفوس هو علم أدب النفس ، وكل أدب لها فهو الدين . فما فقدناه هو التبحر فى آداب الدين ، وما نحس من أنفسنا طلبه هو التفقه فى الدين .

ولا أريد أن نطلب علماً محفوظاً ، ولكنا نطلب علماً مرعياً ملحوظاً . وما أودعته الديانة من الآداب النفسية والكمالات الروحية لم يختلف فى صحته أحد من البشر ، حتى من يظن نفسه غير آخذ بالدين .

فإذا استكملت النفس آدابها عرفت مقامها من الوجود ، وأدركت منزلة الحق فى صلاح العالم . فانتصبت لنصره ، وأيقنت بحاجتها إلى مشاركيها فى الوطن

والملة ، فأخذت بالفضيلة الجامعة للفضائل ، وهى ما يعبر عنها بحب الوطن والدولة والملة .

ولا نريد من الحب ميلا خيالياً ، ولكننا نريد ميلا يبعث على العمل ، كما يرشدنا إليه الدين والأدب . فمتى تحلت النفوس بهذه الفضيلة أبصرت مواقع حاجاتها ، فاندفعت إلى طلبها وطرقت لها كل باب ، ولا ترجع حتى تظفر أو يدركها الأجل . الخ » .

وهكذا كان الشيخ فى بيروت يخدم العقيدة الإسلامية ويهتف بالدولة العثمانية ، ويلهج بالثناء عليها ، ويوضح للناس طريق الإصلاح الصحيح فى رأيه ، ويكتب فصوله الأدبية فى لغة توشك أن تكون عادية ، ويرسلها مرتبة ترتيباً منطقياً ، ولا يحتاج إلى الصور البيانية إلا نادراً ، كما يصف من يكرهون النقد ، ويخشون عواقبه :

« مثلهم كمثل بعض الطيور إذا رأى الصائد غمس رأسه فى الماء ، ظناً منه أنه متى أغمض عن طلبه أغمض الطالب عنه ، فيكون بذلك قد يسر للصائد صيده ، وسهل عليه كيده (١) » .

* * *

وعاد الشيخ بعد ذلك إلى مصر ، واشتغل بأمور كثيرة ، لا يعنينا منها فى هذه المرحلة إلا اشتغاله بالرد على (هانوتو) فإذ ذاك سنحت للشيخ أثمن فرصة فى حياته . وطفق يكتب المقالات الضافية فى الرد على الوزير الفرنسى ، الذى فهم الشيخ أنه ينتقد الإسلام من حيث إن له طبيعة مخالفة لغيره من الأديان ، وذلك لأنه دين سامى ، ولأنه يقول بالقضاء والقدر ، فى حين أن الديانات المجسمة ترقت بالأفراد فى سلم الفضائل ، طمعاً فى نيل مرتبة الألوهية ، بخلاف الإسلام الذى لا يرضى للناس إلا بمرتبة واحدة ، هى مرتبة العبودية .

فانبرى الأستاذ الإمام للرد على هذه التهم ، وذلك فى ست مقالات ، انفردت

---

(١) ص ٣٧٣ ج ٢ من تاريخ الأستاذ الإمام .

كل واحدة منها بتهمة من تلك التهم السابقة ، وعنيت بدحض الفكرة التى بنيت عليها .

وانتهز الإمام هذه الفرصة فى رده على (هانوتو) ليوضح للمسلمين ضرورة فهم دينهم فهماً صحيحاً ، وتنقيته من البدع والخرافة .

وليس شك فى أن الإمام بلغ من كل ذلك ما أراد ، وجاء رده مفحما للمسيو (هانوتو) لدرجة يظهر أنها أزعجته ، فراح يزعم أن مقاله أسىء فهمه ، وأسيئت ترجمته ، ووسّط صاحب الأهرام فى رد اعتباره إليه ، كما يقول رجال القانون وقام صاحب الأهرام قياما حسنا بهذه المهمة .

ولا يعنينا هذا الرد من حيث قيمته المعنوية ، وليس عندنا متسع للقول فى هذه الناحية ، ولكن يعنينا أسلوب الشيخ فى هذه المقالات . فقد بلغ أسلوبه فيها الذروة . . . سهولة قول ، وسلامة عبارة ، وقوة حجة ، واستقامة منطق ، وإبداع تصوير ، ووصول بالكلام إلى درجة عظيمة من هذه المزايا الثلاث للأسلوب ، وهى الحق والوضوح والجمال .

فمن عباراته الجميلة ، وما أكثرها ، قوله :

« ألم يخطر بباله تلك العظائم التى انتفخ بها بطن التاريخ ، وما كانت عليه أوربا الآرية من الهمجية ، وأن العلم والمدنية لم ينبعا من معينها ، وإنما جاءاها بمخالطة الأمم السامية (١) » .

وقوله :

« إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها المدنية الحاضرة ، كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوءها من بلاد الأندلس (٢) » .

وقوله :

إن الناظر فى التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسده على جليد الأزمان ذلك مما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الآرية ، ليقاوموا دعاة تلك المدنية السامية (٣) » .

---

(١) ص ٤١٦ (٢) ص ٤١٧ (٣) ص ٤١٨

ولم يخل رد الإمام على الوزير (هانوتو) من قسوة ومرارة وإسفاف فى اللفظ أحياناً ، وذلك حيث يقول :

« وأنى أقرر لهذا الوزير الحقير بديهية يعرفها صبيان المكاتب ، وهى أن دين التوحيد ليس ديناً سامياً ، بل هو دين عبرانى ، فقد عرف به إبراهيم عليه السلام وبنوه ، ومنهم عيسى من جهة أمه ، إلى أن قال :

« وإن صغرت شأن (هانوتو) فى معارفه التاريخية ، فذلك لأنه صغير فيها حقيقة . وكثير من قومه يعرف ذلك منه الخ (١)» .

وعنى الإمام أثناء كل ذلك بموسيقية العبارة بل إن هذه العناية جاءت صدى لعواطفه التى جاشت بها نفسه فى ذلك الوقت .

وانظر هنا إلى قوله (٢) :

« ثم لم يكن من أصوله (أى من أصول الإسلام) أن يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ، ويأخذ على يده فى عمله . جاء هذا الدين على الوجه الذى ذكرنا : فهدى ضالا ، وألان قاسياً ، وهذب خشناً ، وعلم جاهلا ، ونبه خاملا ، وأثار إلى العمل كسلا ، وأقدر عليه وكلا ، وأصلح من الخلق فاسداً ، وروج من الفيضلة كاسداً ، ثم جمع متفرقا ، ورأب متصدعا ، وأصلح مختلا ، ومحا ظلما ، وأقام عدلا ، وجدد شرعا . . . فكان الدين بذلك عند أهله كمالا للشخص ، وألفة فى البيت ، ونظاما للملك ، وظهرت به آثار النعمة عليهم فى جميع شئونهم الخ .

ما أظن القارىء بعد ذلك بحاجة إلى أن أسوق له نموذجاً كاملا من مقالات الإمام فى رده على هانوتو . فهى قريبة إليه فى مصدرها ، ولا نقول فيها أكثر من هذا الحد (٣) .

* * *

---

(١) ص ٤٢٠ . (٢) ٤٥٤ .

(٣) ارجع إلى هذه المقالات فى كتابه تاريخ الإمام الجزء الثانى للاستاذ رشيد رضا .

الرسائل الإخوانية

بقيت صورة أخرى من صور الأسلوب الذى جرى علية الشيخ ، لا تهم الصحافة ولكن تهم الأدب وحده ولم نجد بأساً من أن نختم بها الحديث عن هذا القلم ، لا لشىء إلا ليظهر للقارىء الفرق بين أسلوبه فى المقالات الصحفية ، وأسلوبه فى الرسائل الأدبية .

هذه الصورة هى أسلوب الشيخ فى رسائله الإخوانية . والمطلع على طائفة من هذه الرسائل يجد الإمام فيها كغيره من أفذاذ الأدب فى زمانه ، يميل ميلا قويا إلى السجع والاقتباس والاستشهاد بالأشعار إلى درجة يتهم فيها — كما اتهم كثيرون غيره من أدباء عصره — بالتكلف والتصنع . ولم تكد رسالة له تخلو من ذلك عدا هذه الرسالة التى كتبها وهو فى سجن القاهرة متهماً بالاشتراك فى حوادث الثورة العرابية . وذلك فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٢ م ، الموافق ٩ المحرم سنة ١٣٢٠ هـ ، حيث قال [١] .

عزيزى :

تقلدتنى الليالى وهى مدبرة كأننى صارم فى كف منهزم

هـذه حالى . اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخـذت صخوره من مركز الأرض إلى المحيط الأعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب ، وامتدت إلى القطبين فاستحجرت فى طبقاتها طباع الناس إذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية والإنسانية ، فأصبحت قلوب الثقلين كالأحجار أو أشد قسوة ، فتبارك الله أقدر الخالقين .

انتثرت نجوم الهدى ، وتدهورت الشموش والأقمار ، وتغيبت الثوابت النيرة ، وفر كل مضىء منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الأفلاك دورة العكس ، ذاهبة بنيرانها إلى عوالم غير عالمنا هذا .فولى معها آلهة [٢] الخير أجمعين ، وتمحضت السلطة لآلهة الشر ، فقلبوا الطباع ، وبدلوا الخلق . وغيروا خلق الله . وكانوا على ذلك قادرين .

---

(١) ص ٥٩٢ ج ٢ تاريخ الأستاذ الإمام .

(٢) العجب من هذا الشيخ كيف يصطنع فى كتابة لفظ (الآلهة) بصيغة الجمع هـكذا على طريقة الأوروبين أو اليونان الأقدمين (المؤلف)

رأيت نفسى اليوم فى مهمة لا يأتى البصر على أطرافة . فى ليلة داجية . غُطى فيها وجهُ السماء بغمام سوء ، فتكاثف ركاماً ركاماً ؛ لا أرى إنساناً ، ولا أسمع ناطقاً ، ولا أتوهم مجيباً .

أسمع ذئاباً تعوى ، وسباعا تزأر ، وكلابا تنبح ، كلها يطلب فريسة واحدة هى ذات الكاتب والتفَّ على رجلى تنينان عظيمان ؛ وقد خويت بطون الكل ، وتحكم فيها سلطان الجوع ، ومن كانت هذه حاله فهو لا ريب من الهالكين .

فقطع حبل الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالأولياء ، وضل الاعتقاد بالأصفياء ، وبطل القول بإجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء . وحقت على أهل الأرض لعنة الله والملائكة والأنبياء والناس أجمعين .

سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، ومزقت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم ، وشهوات تقضى ، وغيظ يحتدم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة الغدر ، والله لا يهدى كيد الخائنين الخ .

وهكذا جاءت هذه الرسالة ضربا من الهياج العصبى ، الذى ركب الشيخ منذ دخوله السجن ، وهى رسالة طويلة نكتفى منها بهذا القدر .

وتتلخص ملاحظاتنا عليها فيما يلى :

أولا : مراعاة الكاتب لهذا الترادف الموسيقى للعبارة ، وهو ترادف كان يساير اضطراب الكاتب فى مشاعره ، وتأثره بانفعالاته .

والكاتب فى الجزء الذى نقلناه من الرسالة شاعراً أكثر منه كاتباً ، وهو مستسلم لعواطفه ، حريص على التعبير عنها تعبيراً يلائم قوتها فى نفسه ، وقدرتها على إرعاد جسمه وقلمه .

ثانيا : ومما يلاحظ على هذه الرسالة تلك القافية النونية التى التزمها الكاتب فى نهاية كل فقرة من فقرات الرسالة ، وهى ظاهرة تذكر بالفن القرآنى . ولعلها أثر من آثاره فى نفس الكاتب والعجيب أن الشيخ التزم ذلك فى الرسالة من أولها إلى آخرها ، على طولها وامتداد القول فيها إلى درجة تلفت النظر .

ثالثاً : ويلاحظ على الرسالة أيضاً أن الكاتب عنى فيها بجانب التصوير عناية كبيرة . فقد صور نفسه فى هذه المحنة التى مرت به كأنه فى صحراء مترامية الأطراف ، فى ليلة شديدة الظلام ، ليس فيها إنسان ، ولكن فيها آساداً تزأر ، وذئاباً تعوى ، وكلاباً تنبح ، وثعباناً يلتف حوله ، وكلها تطلب طعاماً ، وهو وحده فى هذا المكان المظلم الذى تملؤه الوحشة هدف لكل هذه السباع الجائعة « ومن كانت هذه حاله فهو لا شك من الهالكين » .

فإذا أضفنا إلى كل ذلك أنه بدأ رسالته مستشهداً ببيت من الشعر ، عرفنا إلى أى حد كان كلف الشيخ بالصناعة اللفظية ، التى لم تفسد مع ذلك المعنى ، ولا أخمدت من حرارة العاطفة .

ولو ترك الشيخ وشأنه لكان من كتاب الصنعة ، لأنه لم يكن يتركها إلى الترسل الخالى منها إلا فى ظرف واحد ، هو الكتابة فى الصحف .

* * *

والشيخ بعد هذا كله مشاركة قوية فى لوائح الإصلاح والتعليم الدينى فى أشهر أقطار العالم الإسلامى ، وأهمها ثلاث :

الأولى : لإصلاح التعليم فى تركيا ، كتبها وهو فى منفاه ببيروت ، ووقع عليها مع بعض وجهاء المسلمين ، وأرسلها إلى شيخ الإسلام بالآستانة فى ٦ جمادى الثانية سنة ١٣٠٤ هـ .

والثانية : فى إصلاح القطر السورى ، قدمها إلى والى بيروت بعد تقديم اللائحة السابقة إلى شيخ الإسلام . كتبها بروح الرجل المسلم العقيدة ، العثمانى المشرب ، الذى لا يجد — على حد قوله — فى فرائض الله بعد الإيمان بشرعه ، والعمل على أصوله ، فرضاً أعظم من احترام مقام الخلافة ، وشحذ الهمة لنصرته بالفكر والقول والعمل .

« . . فإنما الخلافة حفاظ الإسلام ودعامة الإيمان ، فخاذلها محاد لله ورسوله ، ومن حاد الله ورسوله فأولئك هم الظالمون » .

والثالثة : فى إصلاح التعليم فى مصر ، كان قد فرغ من إعدادها ، ولكن يظهر أنه لم يقدمها بالفعل لأولى الأمر . بدأها بمقدمة جليلة فى طبيعة مصر والمصريين ، ووصف فيها أخلاقهم ونفسيتهم وتدينهم واستعدادهم للاصلاح ، ثم رسم طريق هذا الإصلاح فى المدارس الحكومية والمدارس الأجنبية ، فى الجامع الأزهر وفى مدرسة دار العلوم .

والأستاذ الإمام فى هذه اللوائح الثلاث يقصر همه على إصلاح التعليم الدينى فى العالم الإسلامى عامة ، وفى مصر خاصة ، وكان يمنى نفسه بمنصب مدير لدار العلوم بعد عودته من المنفى .

ووضع لنفسه وللمدرسة هـــذه الخطة الحكيمة ، ولكن ولاة الأمور — كما رأينا — كانوا يخشون عودة الشيخ إلى الاتصال بالشباب المصرى . فحيل بينه وبينهم وفرغ الشيخ منذ يومئذ لإصلاح المحاكم ، وإصلاح الشورى ، وإصلاح الأزهر ، ومات على هذا الأخير .

أما لغته فى هذه اللوائح فهى هى لغته فى مقالاته الصحفية السابقة ، قوة فى العرض ، ودراسة للموضوع لها حظ من العمق ، ومعرفة جيدة بطبائع الأمم ، وعلم دقيق وبصر بأمور التربية والتعليم ، وفقه عظيم بالسياسة ، ثم سهولة ووضوح فى تأدية المعنى ، وعدول تام فى هذه اللوائح كلها عن الزينة اللفظية أياً كان نوعها .

ولا أظن القارىء بحاجة هنا كذلك إلى أن نعرض له نموذجاً من هذه اللوائح ما دامت كلها لا تتسع للنقد الأدبى إلى أبعد من هذا الحد .

* * *

تلك حياة الأستاذ الإمام ، حافلة بالجهاد فى سبيل الوطن والدين والعمل الدائب لما فيه خير المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

وتلك صورة من أسلوبه فى الكتابة والتحرير ، حاولنا أن نجمع خطوطها ، وأن ننعم النظر فى أصباغها وألوانها ، وأن ندرس الإطار الذى عرضت فيه من جميع نواحيه ، ونحن نخشى مع هذا أن نكون قد أسأنا إلى الشيخ من غير قصد ،

أو شوهنا من جمال أسلوبه فى أثناء العرض . فإن رأى القارىء شيئاً من ذلك فما إليه قصدنا ، وما التوفيق إلا من عند الله .

والحق أنه لولا أن وسمت مقالات الشيخ بالطول من ناحية ، وبطابع الدرس من ناحية ثانية ، لقلنا إنه بلغ الغاية من المقال الصحفى من حيث موضوعه ، ومن حيث أسلوبه فى وقت معاً .

ومع ذلك سنعود إلى هذه المسألة مرتين : أولاهما عند الموازنة بين الإمام وبين الكاتبين الآخرين الذين اشتمل عليهما هذا الكتاب . وهما أديب إسحاق وعبد الله النديم والثانية عند الكلام فى الطابع العام للمقال الصحفى لتلاميذ المدرسة الثانية . وذلك فى الفصل الذى ينتهى به هذا البحث .

الفصل السادس

حياة السيد عبد الله النديم

١٨٤٥ — ١٨٩٦

من الناس من يعرف العظمة بأنها نوع من الشذوذ البشرى ، وكثير منهم لا يستطيعون — وإذا خيروا لا يريدون — أن يدفعوا ثمن هذا الشذوذ الذى هو أشبه شيء بنتوء ظاهر فى جسم جبل أملس ، أو طريق واضح معبد .

غير أن للطبيعة نفسها ولعاً بذلك ، لأن هذا الشذوذ الذى هو نوع من المخالفة للمعتاد مصدر من مصادر الجمال على كل حال . وإلا فهل تكون الطبيعة جميلة إذا كانت لا تنبت إلا أشجاراً متساوية فى الغلظ أو الطول ، وهل كانت الحياة البشريه تحتمل لو أنها كانت تتألف من رجال فقط ، أو من نساء فقط ، أو من طوال فقط ، أو من قصار فقط ؟ أظن لا .

هذا رجل نجار أو خباز يعيش على الكفاف ، واسمه (مصباح) ، وقيل إن نسبه ينتهى إلى إدريس الأكبر ، من أسباط الحسن بن على بن أبى طالب . ولد له ابن سماه (عبد الله) . وكان ذلك بالإسكندرية سنة ١٢٦١ هـ - ١٨٤٥ م . فلما كبر أرسله إلى الكتاب ، وهناك أتم الولد حفظ القرآن قبل أن يبلغ التاسعة من العمر ، ثم أخذ هذا الولد يختلف مع الصبية من أمثاله إلى جامع يقال له (جامع إبراهيم باشا) ، حيث درس الفقه والأصول والمنطق ، ثم لم يصبر الصبى على الدرس ففر من الجامع ، ولكن إلى أين ؟ إلى التسكع فى الطرقات ، وحشر نفسه حشراً بين الجماعات ، فإذا وجد جماعة من الناس يتناشدون الزجل أو الشعر ، أو يتبادلون الملح والنوادر ، أو يتماجنون بما أرادوا من ألوان المجون ، اندس الصبى بينهم ، واستمع بكل أذنيه لهم ، وأودع ذلك كله خزانة تعرف كيف تحفظ كل شيء يستقر بها ، وهذه الخزانة هى حافظته القوية ،



عبد الله النديم
١٢٦١ — ١٣١٤ هـ
١٨٤٥ — ١٨٩٦ م

وذاكرته العجيبة ، التى كانت إذ ذاك كل ما يملكه من أسباب التفوق على أقرانه ، ثم أصبحت فيما بعد — أعنى فى وقت الشباب والكهولة — كل ما يملكه من أسباب الشهرة الشعبية التى وصف بها .

أليس عجيباً أن فتى هذا شأنه ، وتلك أسبابه ، لم يكلف نفسه ذهاباً إلى المدرسة أو الجامعة ، ولا أخذ نفسه فى أول الأمر بشىء من جد الحياة فى وقت الطلب ، يصبح فى زمن ليس بالطويل إماماً من أئمة الأدب فى عصره ورائداً من رواد النهضة فى أمته ؟ .

الحق أن القارىء لحياة هذا الرجل ليؤمن إيماناً لا ريب فيه بأن ملابسة الحياة نفسها . ومخالطة الناس على اختلاف طبقاتهم ، ربما كانت أقوى تأثيراً فى النفس ، وتكويناً للخلق ، من الجامعة أو المدرسة .

ولا غرابة فى ذلك فالحياة الواقعة نفسها كانت أهم مصدر لثقافة رجل كبير من رجالات الأدب العربى (هو الجاحظ) ، وجاءت كل تصانيفه أكبر شاهد على ما نقول .

تخيل معى هذا الفتى الصغير وهو يجول فى أنحاء الإسكندرية ، أو فى أرجاء طنطا أو المنصورة أو القاهرة ، يستمع إلى السوقة وهم يتحدثون ، أو إلى الخاصة وهم يتحاورون ، ويغشى الموالد العامة حيناً ، ويزج بنفسه هنالك فى غمار هذه الطائفة التى عرفت باسم (الأدباتية) ، ليلتقط ما يقولون ، ويقلدهم فيما يفعلون ، لا تفوته حركة من حركاتهم ، ولا من حركات الناس جميعا فى ذهابهم وإيابهم ، ولا تضيع منه همسة من همساتهم ، وكأن ذهنه آلة تصوير تهيأت لالتقاط كل هذه الأشياء المتعددة . « والنفس الحساسة تختزن حتى حفيف أوراق الشجر ، وهفهفة الأغصان ، ودبيب النمال ، وحلاوة البسمات ، وأدق مجالى الجمال والقبح ، ثم تعرف كيف تستخدم ذلك فى فنها متى آن أوانه »[1] .

ولندع هذه المقدمات ، ولنذكر طرفا من حياة هذا الرجل على سبيل

---

(١) اقرأ زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ٢٠٦ .

الإيجاز ، وفى اعتقاد الكثيرين أن حياته تصلح أن تكون رواية تمثيلية من الطراز الأول .

فمنذ ترك عبد الله النديم جامع إبراهيم باشا اتجه إلى تعلم فن الإشارات البرقية ، وإذا تم له ذلك التحق بمكتب تلغراف بمدينة بنها . ثم ابتسم له الحظ ، فشغل مثل هذا العمل بمكتب (القصر العالى) ، وقد أتاح له هذا العمل الجديد نوعا من الترف والفراغ . فكان يغشى بنفسه فى أوقات الراحة مجالس الأدب بالقاهرة ، وخاصة مجلس محمود سامى البارودى ، حيث التقى بالصفوة الممتازة ، من أمثال على أبى النصر ، وعبد الله فكرى ، ومحمود صفوت الساعاتى ، والشيخ أحمد الزرقانى ، ومحمد سعيد ، وجعفر مظهر ، وعبد العزيز حافظ .

وقد أثنى النديم عليهم جميعاً فى مقال له نشر (بالسلافة) .

وفى القاهرة أيضاً كان النديم يختلف أحياناً إلى الجامع الأزهر حيث تعرف هناك بصديقه العالم الكبير الشيخ حمزة فتح الله . وبقى النديم فى (القصر العالى) حتى غضب عليه (خليل أغا) فطرد نهائياً من القصر ، وسدت أمامه أبواب الرزق ، وانتهى به الأمر إلى أن اشتغل مدرساً لأولاد أحد العمد بمديرية الدقهلية ثم تخاصم هو والعمدة ، واضطر النديم إلى تركه ، ولكن بعد أن هجاه أقذع هجاء ، فى قصيدة له شحذت لسانه شحذاً جيداً ، وراضت فنه الشعرى رياضة جيدة .

ثم اتصل أمر النديم بأحد أعيان المنصورة ففتح له دكانا يبيع فيه العصائب والمناديل ، فاتخذ النديم من دكانه هذا متجراً ومجتمعاً فى الوقت نفسه لرجال الأدب ، وذلك على عادة المثقفين من تجار الريف المصرى إلى يومنا هذا . فعلى هذا النحو كان حسن عبد الباسط الهجاء المشهور صاحب دكان عطارة . وعلى هذا النحو كان الشيخ أحمد وهبى الشاعر الأديب صاحب دكان طرابيشى ، وهكذا .

ثم أفلس النديم وأغلق دكانه ، وأخذ يرحل من بلد إلى بلد ، حتى وصل إلى طنطا ، وفيها بيت رجل من وجوه القوم ، واسمه (شاهين باشا كنج) كان

له كاف بالأدب ، فاتصل به النديم . واسمع إليه يقص عليك قصته مع شاهين باشا ، فيقول :

« كنت بمولد السيد البدوى ، ومعى السيد على أبو النصر والسيد حلاوة ، وجلسنا على قهوة الصباح نتفرج على أديب وقف يناظر آخر ، فلما فطن أحدهما لانتقادنا عليهما ، استلفت أخاه إلينا ، وخصانا بالكلام .

فأخذا يمدحاننا واحداً فواحداً ، إلى أن جاء دورهما إلىّ ، فقال أحدهما يخاطبنى :

أنعم بقرشك يا جندى ولاّ كسنا اَّمال يا أفندى
إلا أنا وحياتك عندى بقى لى شهرين طول جعان

فقلت على سبيل المزاح :

« أما الفلوس أنا مدبشى وأنت تقولى ما امشيشى
يطلع عــــلى تحشيشى أقوم أملصلك الأودان

قد بلغ شاهين باشا ذلك ، وأنى غلبت الأدباتية ، طلب شيخهم ، ووعده إن غلبونى يعطيهم ألف قرش ، وإن غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين سوطا ، واجتمع لذلك حشد من الناس كبير » [١] . ثم أخذوا يقولون والنديم يرد عليهم واحداً بعد واحد ، واستمرت هذه المساجلة طويلا حتى أفحمهم .

ومنذ يومئذ أصبح النديم أثيراً عند الباشا ، بل أصبح الباشا لا يجد له غنى عن مجالسته . وحضر النديم اجتماعا حافلا فى منزل الباشا ، وتحامل عليه كل القوم ، حتى اقترح بعضهم عليه إنشاء قصيدة يعارض بها دالية المتنبى المشهورة التى مطلعها :

أقل فعالى بله أكثره مجد[١]

وكانوا يقصدون بذلك تعجيزه ، فغضب النديم ، وأمسك القلم ، وأنشأ قصيدة أولهـا

سيوف الثنا تصدا ومقولى الغمد ومن سار فى نصرى تكفله الحد

---

(١) انظر تراجم أعيان القرن الثالث وأوائل القرن الرابع عشر لأحمد تيمور باشا ، وانظر مجموع مجلة الأستاذ ص ٩٨٦ بتاريخ ٦ يونيو سنة ١٨٩٣ .

ومنها .

ومن عجب الأيام شهم أخو حجا　　يعارضه غر ويفحمه وغد
ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما　　لتحفظ أعراض تكفلها المجد(١)

وفي هذه الأشعار القليلة من الفحولة والجزالة ما ينبيء بموهبة هذا الرجل ، ويبشر بمستقبل له عظيم في عالم الأدب .

وإلى الآن كان النديم غارقاً في لهو الحياة ، منغمساً في هذا العبث اللفظي ، الذي كسب به بعض الأصدقاء ، وتقرب بسببه إلى بعض الكبراء . ولعله كان يحسب أن الحياة نفسها لم تكن تعدو ذلك الوضع ، ولا تكاد تعرف غير هذا اللون . غير أنه سرعان ما عاد إلى الإسكندرية — مسقط رأسه — وهناك ولد هذا الفتى ميلاداً جديداً ، وأعيد خلقه على غرار جديد . فقد رأى الناس في هذه المدينة لا يشتغلون بما كانوا يشتغلون به أمس من الأسمار المسلية ، والفكاهات المضحكة ، والأحاديث الفارغة ، يقضون بها أوقات فراغهم ، وما أطول الأوقات ، ويصلون بها سواد ليلهم ببياض نهارهم ، وما أكثر ما توالت عليهم الأيام . بل هاله أن رأى مدينة الإسكندرية وعليها طابع الجد . فهي يومئذ تتحدث في أمور كثيرة ، كصندوق الدين وتدخل الدول الأجنبية والشورى ، والظلم والاستعباد ، والاستقلال والحرية ، والجهل والعوز ونحو ذلك . وكلها أمور طبعت على حياة الناس يوم ذاك عبوساً وتقطيباً حل فيها محل البشر والإيناس .

فماذا يفعل النديم ؟ أيمضي في عبثه القديم ؟ أم يدخل فيما دخل فيه الناس من هذا الجديد ؟ إن طبيعة النديم تدعوه دائماً أن يكون قطعة من الوسط الذي يحل فيه ، أو البيئة التي يعيش فيها . فما أسرع ما ترك اللهو والعبث ، وبدأ حياة الجد والكفاح ، وكتب لنفسه هذه الشهرة التي نتحدث عنها ، والعظمة التي سلمت له ، فكان أول ما صنعه النديم وهو بالإسكندرية أن اشترك مع أديب إسحاق وسليم النقاش في صحيفتي (المحروســـة) و (العصر

---

(١) انظر سلافة النديم ص ٥ ، ٦

الجديد) (١) اللتين صرح بهما لسليم النقاش عقب إلغاء جريدتى (مصر) و(التجارة).

ولم يكتف النديم بذلك حتى التحق بجمعية سرية ، هى جمعية مصر الفتاة ، كانت تهدف إلى نشر التعليم ، وكانت تخوض فى سياسة إسماعيل ، ومازال بهذه الجمعية حتى أخرجها من السر إلى العلن ، وجمع له بنفسه من أعيان الثغر مالا نعشها به من جديد ، وأطلق عليها اسم (الجمعية الخيرية الإســلامية ، وهى غير الجمعية المعروفة الآن بمصر بهذا الاسم . وأعلن النديم وزملاؤه يومئذ أغراض هذه الجمعية ، ومنها إنشاء مدرسة لتعليم الفقراء مجاناً ، ومنها بث الروح القومى فى البلاد .

وسرعان ما تم إنشاء هذه المدرسة ، وعين النديم مديراً لها . وكان ذلك فى أواخر عهد إسماعيل ، وشارك النديم مشاركة قوية فى وضع مناهجها ، بل قام هو بتدريس مادتى الأدب والإنشاء فيها ، ولم يأل جهداً فى تمرين التلاميذ على الخطابة ، التى كانت سمة من سماته وخلقة فيه .

ثم حين عزل إسماعيل ، وتولى مكانه توفيق توسل إليه النديم أن يحضر امتحان المدرسة ، فحضر بنفسه وسر من إجابات التلاميذ ، ثم سأله النديم أن يعهد إلى ولى عهده (الأمير عباس) برياسة المدرسة ، فمنح الخديو المدرسة هذا الشرف ، وأتى لزيارة المدرسة ومعه ولى العهد فى يوم حافل أعد له النديم ثمانى وعشرين خطبة !! ثم أكثر النديم فى إقامة الحفلات . وكان التلاميذ يقومون فيها بتمثيل روايات ناجحة كان يؤلفها لهم النديم ، ويشترك معهم فى تمثيلها بنفسه ؛ ومن هذه الروايات رواية بعنوان «الوطن» و « طالع توفيق » وأخرى بعنوان « العرب » .

---

(١) كانت صحف سليم النقاش وغيره من السوريين فى مصر تأخذ جانب الحكام . وقلما كانت تأخذ جانب الشعب المصرى ، ولذلك أصبحت المحروسة يوما ما لسان حال شريف باشا رئيس النظار ، ثم أصبحت لسان حال عمر لطفى باشا محافظ الإسكندرية وذلك فى الأسابيع التى سبقت الاضطرابات التى حدثت فى مدينة الإسكندرية وكانت تقريراً بالثورة العرابية وضرب الإنجليز مدينة الإسكندرية .

وبقى النديم على هذا العمل يشتغل فيه بعقله وقلبه وأعصابه ودمه ، حتى كاد له إخوانه بالجمعية الخيرية ، ولفقوا له تهماً فصل بسببها من الجمعية ومن المدرسة فى وقت معاً .

إذ ذاك فكر النديم فى أن يجعل الصحافة حرفة له يكسب منها عيشه ، ويبث فيها فكره ، وينفذ بها إلى قلب الشعب الذى تأدب بأدبه ومهر فى دراسة نفسيته بطريقة عملية بحتة ، هى طريقة الاندماج فى هذا الشعب بكل جوارحه كما رأينا .

وكانت أولى صحف النديم التى ظهرت باسمه صحيفة يقال لها (التنكيت والتبكيت) سنتحدث عنها عندما نفيض فى أسلوبه وبيان الخصائص التى يشتهر بها هذا الأسلوب .

ثم ظهرت بوادر الثورة العرابية ، وكانت شدة النديم قد سرت فى الشعب المصرى على اختلاف طبقاته وزادها سرياناً ما طبع عليه النديم من ميل — كما قلنا — للخطابة ، واستعداد لها إلى درجة ربما لم تتيسر لشخص غيره فى مصر ، منذ القرن الماضى إلى اليوم .

فقد كان النديم يظهر فى كل مجتمع ، ويقف فى كل حفل ، ويخطب فى كل ناد ، ويرتجل الكلام ارتجالا ، ويتدفق فيه تدفقاً ، تسعفه فيه بديهة لم نسمع بمثلها فى تاريخ الأدب المصرى الحديث ؟

وإذ ذاك فكر رجال الثورة منذ بداية الأمر فى أن يكسبوا لأنفسهم رجلا ذرب اللسان ، سريع الخاطر كعبد الله النديم ؛ وما أسرع ما انضم هذا الرجل إليهم ، ووجد فى ثورتهم مجالا لإشباع نهمه فى الخطابة من جهة ، وشغفه بالصحافة من جهة ثانية .

والحق أن العرابيين ربحوا كثيراً بانضمام النديم إلى صفوفهم ، ولقبوه فيما بعد بخطيب الثورة ثم منذ إعلان الدستور فى فبراير سنة ١٨٨٢ أى فى أوائل عهد توفيق ، انتهز النديم وأمثاله من قادة الشعب هذه الفرصة ليفهموا الناس طائفة من المعانى الجديدة عليهم كل الجدة ، وهى معانى الدستور ، وما قيمته

وكيف تحصل الشعوب عليه (١) ؟ وكثيراً ما كانت تقام الحفلات العامة لهذه الأغراض ، وكثيراً ما كان النديم يقوم فيها مقام الخطيب الأول ، حتى إذا خطب الحاضرين كأديب إسحق أو فتحى زغلول أو إبراهيم اللقانى أو مصطفى ماهر أو غيرهم فى معنى ما ، قام النديم بعد كل واحد من هؤلاء يعقب على حديثه ، ويشرح هذا الحديث ، ويستمع الناس إلى هذا التعقيب دون أن يشعر أحدهم بشيء من السأم أو الملل . وكان العامة فى مصر بحاجة إلى من يشرح لهم هذه المعانى الجديدة عليهم كل الجدة ، إذ قيض الله للخاصة أمثال السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده ليفهموهم تلك المعانى . واشتعلت نار الثورة بالفعل ، وزادت لهيباً ، فكان كلام النديم وقودها الذى زادت به ضراما ، وزيتها الذى أصبحت به نوراً وهاجاً ؛ وحيثما كان مجتمع من الناس فى مولد أو فرح ، ثم وجه النديم ، وثم صوته يجلجل فى الحاضرين ويتندر الناس بذلك ، حتى كان إذا سئل محمد عثمان المغنى أين تغنى الليلة ؟ قال : فى الفرح الفلانى مع عبد الله النديم ، والنديم فى كل موقف لايتورع من التهويل على العامة والتهريج أمامهم ، فيقول مثلا فى بعض خطبه : إن طوابى الإسكندرية إذا أطلقت مدافعها بلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب ، ومدافع الآستانة إذا أطلقت بلغت هذه الجزيرة من الجانب الآخر . فكيفما جالت الأساطيل الإنجليزية فهى تحت رحمة مدافعنا . فيصفق الناس لهذا التهريج ، ويسكرون بهذا الحديث ، والحق أن هذا التهريج الذى اشتغل به النديم كان سلاحاً ذا حدين ، فهو من ناحية يقوى الروح المعنوى فى الشعب وفى الجند ، وهو من ناحية أخرى يملأ قواد الجيش المصرى غروراً ، ويزيدهم تكاسلا وقعوداً عن التهيؤ له . وهذا ما قد حدث بالفعل ، فقد جازف

---

(١) ومن المعانى الجديدة التى خطب فيها النديم فكرة الجمهورية التى احتفظ بها الوطنيون حتى يصبح الوقت مناسبا لإعلانها ، وقد كان هذا أساس عقيدتهم منذ البداية . ولكنهم تبصروا فى العواقب ، ورأوا أن يسيروا سيراً وئيداً فى هذا الموضوع . راجع التاريخ السرى لاحتلال الإنجليز مصر لمؤلفه المستر بلانت ص ٢٥٧ .

عرابى بجيشه فى الموقعة ، ولم يكلف نفسه قط درس الظروف المحيطة بها ، ولا كانت هناك سياسة رشيدة ، ولا صحافة مستنيرة ، ولا مستشارون أمناء صادقون ، يساعدونه على درسها ووضع الخطط المحكمة على أساس هذا الدرس (١)

ولما انتقل النديم بخطابته إلى الميدان يحرض الجنود على القتال ، فقد انتقل إليه بصحيفته بنفس هذه الغاية ، وذلك يوم استبدل باسم جريدته الأولى (التنكيت والتبكيت) اسماً جـــديداً آخر ، هو (الطائف) ، وهو اسم اقترحه عليه عرابى متيمناً بطائف الحجاز ، وتفاؤلا بأنها ستطوف بالأرض كلها ، وتطبق شهرتها العالم كله .

وانتهت الثورة بالهزيمة المعروفة ، ووقعت البلاد بأسرها فى محنة عظيمة ، وقبض على الزعماء ، واختفى النديم يومئذ عن الأنظار . وعبثاً حاولت الحكومة العثور عليه والترصد له ولكن أنى لها ذلك وهو عفريت من الجن ، ثم بدا له بعد ذلك أن يكتب صفحة من حياته تصلح حقيقته أن تكون رواية (بوليسية) من أروع ما كتب الناس فى هذا الفن .

وقد صار النديم يتنكر بشتى الطرق ، وتسمى فعلا بتسعة أسماء فتارة يتسمى بالشيخ يوسف المدنى ، وتارة الشيخ محمد الفيومى وثالثة بالحاج على المغربى ، ورابعة بفلان اليمنى ، وخامسة بفلان النجدى ، وهكذا .

وكان يلبس لكل حالة لبوسها حتى ليخيل إليك أن تقرأ عن شخصية من شخصيات المقامات فى الأدب العربى . وأمعن النديم فى التنكر حتى أشاع عن نفسه أنه سافر إلى خارج القطر ، ونشرت هذا الخبر جريدة فرنسية تقرأ فى مصر فصدق ولاة الأمور ذلك ، مع أن الحقيقة أن النديم كان يومئذ فى قرية نائية ،

---

(١) يضاف إلى ذلك أسباب أخرى كثيرة من أهمها الخيانة التى لقيها عرابى من البدو ومن ضباط الجيش المصرى ممن أغراهم توفيق على الخيانة بالمال ومناهم بالوعود . وكان الشراكسة فى الجيش عنصراً هاماً فى الهزيمة . . . راجع المصدر المتقدم فى الفصل الذى عنوانه « موقعة التل الكبير » .

ليس معه إلا زوجته التى ضربته على فمه حتى سقطت ثناياه ، وخادمه الذى بدأ عليه الفزع والهلع ، حتى هدد سيده بأنه سيفضح أمره ، ويدل عليه الطالبين ، فاحتال النديم على خادمه يوماً بأن أخذ يقرأ الجريدة الرسمية ، ثم تصنع الفزع ، وضرب كفاً على كف ، وقال على مسمع من خادمه : « لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » ، فسأله الخادم عن ذلك ، فقال النديم :

« إن الحكومة قد جعلت لمن يرشد عنى ألف جنيه ولمن يأتيها برأسك خمسة آلاف » فخاف الخادم ، وأخذ يبالغ فى التنكر . وكافأه النديم على ذلك بأن علمه القراءة والكتابة ، وحفظه جمل من سور القرآن . وأقرأه مبادىء الفقه والتوحيد ، ثم زوجه واتخذه صاحباً ، وبدا للنديم فى هذه العزلة أو المخبأ أن يكتب ويقرأ ، وهل كان فى استطاعته أن يفعل غير ذلك ؟ وبعث إلى صديق له إذ ذاك برسالة يقول فيها : « إن سألت عنى فأنا بخير وعافية ، وحالة رائقة صافية . . لا أشغل فكرى بما يأتى به الليل إذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهنى بتوالى الخطوب والأكدار ، ولا أتألم من طول المدة ، ووقع الشدة . لاعتقادى أن لكل شدة حدة . متى انتهت جفت الأوحال ، وحسنت الحال ، فترانى فكرى كليمى ، وقلمى نديمى . تارة أشتغل بكتابة فصول ، فى علم الأصول ، وأجمع عقائد أهل السنة ، بما تعظم به لله المنة ، وحيناً أشتغل بنظم فرائد ، فى صورة قصائد ووقتاً أكتب رسائل مؤتلفة ، فى فنون مختلفة ، وآونة أكتب فى التصوف والسلوك ، وسير الأخبار والملوك ، وأصنف الكثير فى العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكوان . على سفينة تاريخ الزمان ، ويوماً أشتغل بشرح أنواع البديع ، فى مدح الشفيع . وقد تم لى الآن عشرون مؤلفاً بين صغير وكبير ، فانظر إلى آثار رحمة الله اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام المحنة وسيلة للمنحة والمنة ، أترانى كنت أكتب هذه العلوم ، وفى ذلك الوقت المعلوم وقد كنت أشغل من مرضعة اثنين فى حجرها ثالث وعلى كتفها رابع ، وأتعب من مربى عشرة وليس له تابع . أشتغل بعض النهار بتحرير الجورنال ، وأقضى

ليلى فى دراسة الأحوال . مشتغلا بمجالس الجمعية الخيرية ، ومداوسها التعليمية ، وزيارة الإخوان ، ومراقبة أبناء الزمان . وقد نسيت الأهل والعيلة ، وربما نسيت الطعام يوماً وليلة ، فكنت كآلة يحركها البخار ، لا سكون لها ما دام الماء والنار ، فتى كنت أظن للمخلفات ، وأكتب هذه المؤلفات ؟

ولو أن نار مصيبتى　　فى الغير أصلاه الزفير
لكنها فى ساحة　　من فوقها جو مطير
هو صدقُ إيمانى وصبرى　　للقضاء بلا نكير
ووقوف جيش عزيمتى　　فى باب مولانا البصير

والعجيب أن النديم كان يعيش هو وأسرته وأسرة خادمه على ما يجود به الموسرون من أهل البر ، ممن كانوا يعرفونه بشخصه . ومع هذا يساعدونه على إخفاء أمره .

حدث أن كان النديم مختفياً مرة ببلدة يقال لها (العتوة) من بلاد الغربية ، ومضى على إقامته بها أكثر من سنة . حتى قضى رب البيت نحبه . فجاءت زوجته بأكبر أولادها وهو شاب لم يجاوز الخامسة عشرة من عمره . فقالت هذا عبد الله النديم ، الذى جعلت الحكومة لمن هداها إليه ألف جنيه ، أفتريد أن تؤويه وتكرم مثواه كما فعل أبوك ، أم ترغب فى حطام الدنيا ، فأكون بريئة منك إلى يوم الدين ؟ فقال حاش لله أن أخفر ذمامى ، فسترين أنى أحافظ عليه محافظتى على عرضى ، ولن يصل إليه بسوء ما دمت حياً . فقالت له والدته الكريمة : بارك الله فيك من شهم حازم فمكث فى جوارهم نحواً من أربع سنين ضيفاً كريماً ثم وشى به بعض أقرباء الرجل لضغائن بينهما ، فمضى هو ليلا وصار يضرب فى بلاد مديرية الغربية ، وكلما ألقى عصا التسيار فى مكان أكرمه أهلوه ، وأنزلوه على الرحب والسعة ، وشدوا أزره بتزويجه منهم (١) .

وأكثر من ذلك وأشد إمعاناً فى الكرم ، أن النديم صادفه فى طريقه إلى هذه البلدة ، وهى العتوة ، أحد مأمورى المراكز ، وكان جركسياً ، ومعه قوة

(١) سلافة النديم — المقدمة بقلم أحمد سمير ص ١٤

صغيرة من الجند ، فأمرها أن تسبقه قليلا ، ثم لوى عنان فرسه إلى النديم فقال لا ضرورة للتنكر فقد عرفتك وأنت النديم . فلم يكن له بد من الاعتراف بجلية أمره . فقال له المأمور : لا بأس عليك ، اذهب فى دعة الله وحفظه ولا تخف ؛ واعلم أنى وإن كنت جركسى الأصل فإنى عربى الكرم ، ولهذا وهبتك حياتك ، وتنازلت عن الجعل الذى جعلته الحكومة لمن دل عليك ، مع احتياجى للقليل ، كما تنازلت عن كل ما عسى أن أناله بواسطة القبض عليك من الرتب والمناصب ، لتعلم أن فى بقية للكرام . ولكن إياك وهذا الطريق المسلوك ، فربما صادفك من يقبض عليك فيه . فعرج عنه إلى جهة اليمين ثم مد يده إلى جيبه ، وأخرج ثلاثة جنيهات ودفعها إليه ، وقال. والله هذا هو كل ما أملك الساعة، فخذه واستعن به على أمرك .

وأخيراً قبض على النديم فى نوفمبر سنة ١٨٩١ وجيء به إلى طنطا ، وحبس أياماً بها حتى عفا عنه الخديو توفيق على ألا يمكث بالأراضى المصرية . فاختار النديم (يافا) فسافر إليها ، وكان فى استقبال العلماء والأدباء والأعيان ، وبقى فى ضيافتهم أياماً ، ثم اتخذ لنفسه داراً أقام بها سبعة أشهر . وكانت هذه الدار منتدى للصفوة المهذبة فى تلك المدينة . وانتهز النديم فرصة وجوده بفلسطين فأخذ يطوف بأنحائها ، ويرى وزاراتها . ويملأ ناظريه بجمال الطبيعة بها .

ثم حدث أن ولى أمر الديار المصرية أمير فى ريعان الشباب ، هو الخديو عباس الثانى ، وكان رجلا حراً فى آرائه ، وكان الشعب المصرى الذى نضج فيه الوعى القومى بعض الشيء يبادل الأمير حباً بحب وكان من مآثر هذا الأمير أن عفا عن النديم ، وأذن له بالرجوع إلى القاهرة ، وذلك فى عام ١٨٩٢ م . .

وفكر النديم أول ما فكر بعد رجوعه إلى أرض الوطن فى إنشاء جريدة له جديدة باسم (الأستاذ) وعاد أمر النديم إلى الظهور ، وبلغت شهرته مسامع الباب العالى ، فخاف السلطان عبد الحميد شر هذا الداهية الأريب ، وفكر فى أن يسكته بالطريقة التى أسكت بها السيد جمال الدين الأفغانى ، وهى أن يسكنه قصراً من قصوره بالآستانة ويجعل فيه الخدم والحشم ، ويعين منهم الأرصاد

والرقباء ؛ ودعى النديم إلى السفر إلى الآستانة وهناك عينه السلطان مفتشاً للمطبوعات ، براتب شهرى قدره خمسة وأربعون جنيها ، يضاف إليها خمسة وعشرون جنيها من الحكومة المصرية .

وفى الآستانة سعد النديم بصحبة السيد جمال الدين الأفغانى ، ولكنه اصطدم فيها بشخصية عجيبة هى شخصية (أبى الهدى الصيادى) وهو رجل سورى من حلب ملأ قلب السلطان عبد الحميد . إذ كان يفسر له أحلامه ويكلمه كلاما على هواه ، وما زال أمره بالآستانة فى ازدياد حتى سمى (مستشار الملك) ، (وحامى العثمانيين) ، و (سيد العرب) ومع ذلك لم يخش النديم التعرض لهذا الرجل ، ولا تهيب منازلته وهو فى جبروته وعظم صيته ، فكتب كتاباً فى هجائه سماه (المسامير) وما زال به فى الكتاب ينشره ويطويه ، ويأتى بكل جديد فيه، حتى آلمه وأوجعه ، وأصاب منه مقتلا .

ثم لم تطل حياة النديم بالآستانة ، فقد أصيب فيها بالسكر ، ومات فى الرابعة والخمسين من عمره ، وكما يقول أحمد سمير (متمثلا) .

خرجوا به ولكل باك حوله صعقات موسى يوم دك الطور

هذا وقد وصفه المرحوم أحمد باشا تيمور فقال .

«كان شهى الحديث ، حلو الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز ، لقيته مرة فى آخر إقاماته بمصر ، فرأيت رجلا فى ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ، وقبح الجاحظ ، أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا(١) » :

ففى سبيل الصحافة والوطن ما تحمل النديم من أذى ، وما قاسى من أهوال، وما ذاق من تشريد واغتراب دونه كل عذاب فى هذه الدنيا .

هكذا كان النديم أديباً جريئاً ذائع الصيت ، وكانت له من المواهب ما ليس لغيره من رجال مصر كما رأينا . قوة فى الخطابة وقوة فى الكتابة وجرأة على الحكام ، وقوة فى البرهان . وقوة فى البديهة .

---

(١) أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر .

ولكننا إذا أردنا أن نحاسبه على أنه زعيم أو عظيم قلنا إنه كان رجلا لا يسيطر على الحوادث المحيطة به ، ولا يدرس الظروف التى حوله ، ولا يفكر كثيراً فى المستقبل . والعظيم لا تسلم له عظمته بالمعنى الصحيح إلا إذا كان ذا حظ من هذه الصفات .

ثم كان للنديم فضل آخر لاسبيل إلى إنكاره ، هو الجهد الذى بذله فى الإصلاح الاجتماعى ، فقد نبه الناس بقوة فى صحفه — كما سنرى ذلك — إلى العيوب المتفشية فى المجتمع ، وكان لا يترك طريقة إلا سلكها فى سبيل هذه الغاية . وأما الإصلاح السياسى فلم تكن له فيه خطة واضحة كل الوضوح ، يدلنا على ذلك أنه لم يتخذ لنفسه منذ أول الأمر رأياً فى الثورة العرابية ، فقد وجدنا الثوار يأخذونه قسراً ويضمونه إلى صفوفهم قهراً ، وهو لا يستطيع لهم رداً ، بل كان يكتفى بأن يتأفف سراً من وقوعه فى هذه الورطة ، فإذا خلا بأحد من أخصائه أظهر له حقيقة مايضمره . وفى ذلك يقول أحمد سمير وهو يترجم له فى كتاب (سلافة النديم) :

سمعته مرة فى غرفة نومه حيث لا ثالث بيننا يقول ما معناه : إن البلاد قد ضاعت بتهور رؤساء الجند الذين خدعونا فى مبدأ الحادثة ، وأوهمونا أن لاخوف من العاقبة ولا فزع ، فإنما هى أقوال تقرب بأقوال ، وقد اعتاد الأجانب أن يبلغوا منا ما أرادوا بالتهديد والإيهام ، فنحن إنما نقابلهم بالمثل ، وإلا فهم أعقل بكثير من أن يقصدوا محاربتنا فعلا . ولكن وجدانى الآن يحدثنى بفساد هذه المزاعم ، فقد تفاقم الخطب ، واشتدت النازلة ، وظنى أن الحرب واقعة ولابد . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، إنه ليس لنا اليوم إلا أن نبقى مسيرين لامخيرين ، فقد ملئت الكأس ولابد من شربها ، ولم يمض أكثر من أسبوعين على هذه الحادثة حتى زلزلت الأرض زلزالها ، وهاجت القاهرة وماجت ، وحمل البرق إلينا من الإسكندرية أخبار ضرب الإنجليز لها فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وانتشار الحرب بينهم وبين عرابى .

ليس معنى ذلك أن النديم كان مذبذباً فى مذهبه السياسى ، أو أنه يعد هذا الحزب السياسى بما يعد به الحزب الآخر ، لا . فقد كان النديم من هذه الناحية

بطلا فى جميع المحن التى مرت على مصر فى حياته ، وقد صمد وحده فى الميدان فى الوقت الذى فر فيه من هذا الميدان كثير ، ولكن التاريخ يؤاخذ الناس كلا على قدر منزلته وموهبته وقد خص الله النديم بطائفة من هذه المواهب كان يستطيع بها أن يقيم من أود الثورة ، وأن يلطف من حدة الثوار ، وأن يقود السفينة إلى بر الأمان . ولكنه لم يرد ولو أراد لتولى لسانه مهمة الإقناع .

أجل : لست أنكر على كثيرين من زعماء المصريين فى ذلك الحين أن الثورة جرفتهم ، وسلبتهم إرادتهم . ولكننا نأخذ على الزعماء هـــذا الموقف ، لأنهم الراشدون فى هذه الأمة . وعليهم يقع عبء توجيهها ورد الطائش منها إلى شىء من الحكمة والروية والتدبر ، وعبد الله النديم واحد من أولئك الزعماء ، بل هو أخطرهم وأقربهم إلى نفوس الشعب إذ ذاك .

وفى رأيى أن أعظم ما فى النديم إنما هو شعبيته وقوة حيويته وميله الشديد إلى الاجتماع بالناس ، فهو رجل خالط الشعب فى جميع الطبقات ، فمرة يكون مع السفلة وأخرى يكون مع العلية ، وثالثة يكون مع التجار ، ورابعة يكون مع الأدباء والعلماء ، وخامسة مع الوزراء والأمراء ، وهذه كلها خصال تنفع النفع كله فى تكوين الأديب الاجتماعى — أو بعبارة أخرى — فى تكوين الصحافى . ولكن الصحافى فوق حاجته إلى كل هذه الأمور ، فإنه بحاجة كذلك إلى دراسة الهدف الذى يرمى إليه ، ودراسة الوسائل التى توصله إلى هذا الهدف . حتى إذا فرغ من هذه الدراسة بدأ جهاده ، فإن وفق فيها فذاك ، وإلا فقد أدى واجبه نحو أمته بقدر ما استطاع .

مهما يكن من أمر فقد كان النديم بوقاً عظيماً للشعب ، وبوقاً عظيماً للجند ، وبوقاً عظيماً للثورة ، ثم بوقاً عظيماً فى أخريات حياته للخديو عباس الثانى ، وقد قلنا أن الخديو كان شاباً حراً جريئاً وكانت له توجيهات حكيمة وآراء سديدة اتخذ من النديم معواناً صحفياً له على نشرها ، والترويج لها ، وكانت للنديم صفة شعبية محببة إلى النفس ، هى صفة الإخلاص للمبدأ أو الرجل أو العمل الذى يختاره لنفسه ويؤثره بحبه ، وهى صفة قل أن تجدها فى غيره ممن شاركوا فى الثورة العرابية أو عاشوا بعدها .

* * *

مما سبق تتضح لنا أخلاق السيد عبد الله النديم، ويتضح لنا جانب من جوانب شخصيته . وهى شخصية غريبة كل الغرابة فى كل طور من أطوار حياته التى وصفناها بإيجاز شديد ، لأنه لا سبيل إلى التفصيل فيها على نحو ما تستحق من هذا التفصيل .

ولعل القارىء راعه فى أخلاق هذا الكاتب خلق الصبر إلى الحد الذى لا نعرف له نظيراً إلا فى الأساطير ، ثم خلق الغيرة على مصلحة الدين ومصلحة الأمة ، ومصلحة اللغة ، بما لا يدع مجالا للشك فى صدقه وإخلاصه وتفانيه فى خدمة الوطن. ثم خلق الجرأة إلى الحد الذى يرهب به الجبابرة من الملوك والسلاطين ، ولا يرهب هو من أولئك الجبابرة أو الملوك والسلاطين . ويحسن بنا أن نأتى ببعض أبيات قليلة مما نظم النديم نفسه فى ذلك ومنه قوله :

إذا ما الدهر صافانا مرضنا وإن عدنا إلى خطب شُفينا
صلينا يا هموم فقد عرفنا بأنتا الصلب صُلنا أم صلينا
لنا جلد على جلد يقينا فان زادوا البلا زدنا يقينا

ومنه قوله فى الاستهانة بالخطوب :

إن قوماً تجمعوا وبقتلى تحدثوا
لا أبالى بجمعهم كل جمع مؤنث ! !

الحق أن النديم منظر من مناظر الحياة المصرية لن تكتسب له العودة إلى هذه الحياة مرة أخرى ، وقطعة من قطع هذه الحياة لن يجود الدهر بمثلها كرة ثانية ، ولون من ألوانها كذلك لن تراه مصر فى المستقبل .

أما النديم من حيث مواهبه الكثيرة التى فتح الله عليه بها فكان كنزاً عظيما من كنوز مصر لولا أن هذا الكنز كان موزعاً على نواح كثيرة ولو أنه تفرغ لناحية منها لطوّرها وبلغ بها الغاية المرجوة منها ، ومن أهم هذه النواحى التى نشير إليها ناحية القصة ، وناحية القصيدة وناحية المقال .

الفصل السابع

الأسلوب الأدبى للنـــديم

من حياة النديم نعلم أنه بدأ حياته الصحفية بالكتابة بالإسكندرية فى صحف أديب إسحق وسليم نقاش . ثم عزم على أن تكون له صحفه الخاصة به بعد ذلك فكان له من تلك الصحف ثلاث :

١ — صحيفة التنكيت والتبكيت فى ٦ يونيه ١٨٨١

٢ — صحيفة الطائف فى سنة ١٨٨٢

٣ — صحيفة الأستاذ فى ٢٣ أغسطس ١٨٩٢

كان فى أولاها معنياً بالإصلاح الخلقى والاجتماعى . وفى الثانية معنياً بالثورة العرابية ، وفى الثالثة عاد إلى الإصلاح الاجتماعى مرة أخرى ، واهتم إلى جانب ذلك بالإصلاح السياسى .

ويجمل بنا قبل الوقوف عند كل جريدة من هـذه الجرائد الثلاث أن نصف نوع العلوم التى اتصل بها ، ونشرح نوع الثقافة التى أعانته على مهمته ، وإن كانت هذه الثقافة كما قلنا ليست ثمرة مدرسة أو جامعة ، ولكن ثمرة الحياة التى كان يحياها هذا المغامر النادر المثال .

حدثنا أحمد سمير فى ترجمة حياة النديم قال :

« وله ـ أى النديم ـ من المؤلفات الكبيرة والصغيرة ما يعد بالمئات ، منها ديوان شعر يشتمل على نحو أربعة آلاف بيت ـ نظمها وشبابه باسم الثغر طلق المحيا ـ وديوان آخر فى ثلاثة آلاف بيت ـ وروايتا « الوطن » و « العرب » ـ ورسائل أدبية مسجوعة لم تصل أيدى جامعى السلافة منها إلا إلى أربع عشرة رسالة بعد السعى الكثير ، ومكابدة العناء الجزيل (وكان ويكون) (وهو الذى طبع بعضه فى الأستاذ) ـ وواحد وعشرون كتاباً فى فنون مختلفة ، قطع لأجلها أيام

حرب الاختفاء رقاب الفراغ بسيوف الأقـــلام . منها ديوان شعر يحتوى على مايقارب عشرة آلاف بيت ، وهو الآن محجور عليه فى القسطنطينية مع باقى تلك الكتب التى ينادى لسان حال كل واحد منها وفيها « النحلة فى الرحلة — الاحتفاء فى الاختفاء - والشرك فى المشترك - وكتاب فى المترادفات - وآخر فى اللغة سماه : موحد الفصول ، وجامع الأصول - والفوائد فى العقائد واللآلىء والدرر فى فواتح السور - والبديع فى مدح الشفيع - وأمثال العرب » الخ .

ثم قال أحمد سمير :

ولضياع أغلب مؤلفاته بواعث شتى ، منها أنه كان إذا سود شيئاً جاء إليه من يستعيره منه ، ثم لا يرده عليه ، وقد فعل ذلك معه جماعة من أهل القاهرة والإسكندرية والمنصورة . ومنها أنه كان مقيما فى بلدة من أعمال الدقهلية يقال لها بدواى ، فبلغه أن فريقاً من أهل البلدة يأتمرون به ليقتلوه ، فاتخذ الليل جملا ، ومضى إلى حيث يأمن ، فلما جاء المؤتمرون ولم يجدوه أحرقوا البيت حنقاً ، فاحترقت كتبه فيه . ومنها أنه زمن مقامه بالمنصورة للاتجار ، غافله خادمه وسرق بعض متاع البيت ، ومنه الكتب ، وهرب ومنها أن والده رحمه الله هاجر من الإسكندرية إلى القاهرة فيمن هاجر يوم الحرب الأخيرة ، فأحضر معه كتبه جميعها (وكان لى أنا أيضاً فيها كتب قيمة) وملأ بها وبباقى أمتعته عربة تقل من عربات السكة الحديدية ، فلما وصل القطار إلى كفر الزيات ازدحم المسافرون من المهاجرين وغيرهم ازدحاما هائلا ، فلم يسع رجال المحطة إلا أن رموا جميع مابتلك العربة فى النيل ليركب الناس فيها » .

ونحن وإن لم نطلع على هذه الكتب التى ألفها النديم فإننا نستطيع أن نقول إن موضوعها الشعر ، والتمثيل ، والأدب ، واللغة ، والفقه ، والتصوف ، والبديع. والظاهر أنها لم تكن تعدو ذلك ، فثقافته إذن ثقافة لغوية أدبية دينية فى أكثرها مع أنه لو تعددت ثقافة هـذا الرجل واتسعت إلى ميادين شتى ، لكان لمصر منه رجل لا يقل فى شأنه عن الجاحظ ، لأن له قلباً كقلبه، وخلقاً كخلقه ، واستعداداً كاستعداده ، وقلماً مسهباً كقلمه ، ونفساً طويلا فى الكتابة والخطابة كنفسه ،

وحباً فى الظهور كحبه . وحرصاً على تسجيل كل ما يمر به كحرصه ولكن أنى للنديم أن يبلغ ما بلغ الجاحظ، ولهذا الأخير علم لا يدانيه علم ، واطلاع لا يتعلق به اطلاع والفرق بين العصرين الذين أظلا هذين الرجلين كبير إلى درجة لا تسمح بالموازنة بينهما .

أجل حبذا لو كان النديم متعلما على الطريقة المنظمة عارفا بلغات كثيرة ، قارئا لنماذج من الآداب العالمية فى عصره ، إذن لكان لنا منه أديب وعظيم نفاخر به الدنيا كلها والأمم بأجمعها .

على أنى أحب أن أسوق للقارىء مثلا واحداً من أمثلة دراسة النديم للبديع، بعد أن درسه بنفسه وبدون إرشاد من الأساتذة ، فجاءت دراسته مع كل هذا دقيقة مستفيضة ، يدلنا عليها أنه تعرض يوماً لبيان أنواع البديع المختلفة فى سورة الفاتحة ، فعجبنا كيف استطاع النديم أن يصل إلى خمسة وسبعين نوعا من أنواع البديع فى هذه السورة التى لا يزيد عدد كلماتها على خمس وعشرين كلمة(١) .

ومارس النديم الكتابة قبل ممارسة الصحافة فكان يميل ميلا ظاهراً إلى البديع ويتهافت تهافتاً قوياً على السجع ، وتفوق فى ذلك حتى على القدماء أنفسهم . ومن أمثلة ذلك ما كتبه بعنوان :

نار الغرو ونار العرو :

وهى رسالة عجيبة كتبها النديم بنظام غريب ، فكان يأتى بسجعة — بعدها آية قرآنية واستمر على هذا النمط من بداية الرسالة تقريباً إلى نهايتها ، مع تمكن شديد من الدخول على الآية فى غير تكلف ظاهر .

فقد كتب إلى صديقه عبد العزيز بك حافظ حينما رآه يجتمع ببعض المغاربة ، ويشتغل معهم بخرافات باطلة . يقول(١) :

لا حول ولا قوة إلا بالله . اشتبه المراقب باللاه ، واستبدل الحلوُ بالمر ،

---

(١) انظر الجزء الأول من سلافة النديم فصلا بعنوان حسن الابتداء .

(١) سلافة النديم الجزء الأول ص ٣٤

وقدم الرقيق على الحر ، وبيع الدر بالخزف ، والخز بالخسف ، وأظهر كل لئيم كبره ، إن فى ذلك لعبرة ، سمعا سمعا ، فالوشاة إن سمعوا لا يعقلوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترون منهم القار فى صفة المنبر ، وقد بدت البغضاء من أفواهم وما تخفى صـــــدورهم أكبر ، وكيف تسمع الأحباب لمن نهى منهم وزجر ، ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، عجبت لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها معرضون ، فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ، فقابلوهم بنبال الطرد فى الأعناق ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، أيدخلون بما لا ينفع ، فى بيوت أذن الله أن ترفع ، سيعلمون مقام الهبوط والعروج . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ، ويقولون إذا لم يجدوا ملاذاً ، يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا ، فإنهم عزموا على الإقامة مدة ، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، وأنت ياعزيز العليا ووحيد الدنيا قد يذنب لك فعلهم ، فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولكنهم طمعوا فى عميم طولك ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، أتراهم يعقلون كلامك أو يفهمون ، لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ، لهم قلوب لا يدرون بها للحسد قراراً ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ، وإنى قد شيدت لك بقلبى حصنا صعبا ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ، نسيت بالعاذل جميل الصوت وأنكره ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، رميت أيها العاذل بسيف الغدر فى نحرك ، أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ، فإن لم ترجع عن السحر وفعله ، فلنأتينك بسحر مثله ، كيف يسعى العاذل بين النديم وألفه ، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ، فيا سادتى دعونى من المعجب والمطرب ، ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، واجعلوا سيف ثباتكم للعذال مسلولا ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ، فإنهم إن قالوا كذب النديم أو بطر ، سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ، وها قد صار أمر الحزبين عندك جليا ، أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ، أتظن عهد العاذل عند غضبك لا ينكث ، مثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، على أنه لكم عدو كبير ، ففروا إلى الله إنى لكم

منه نذير ، فإنه جمع لقتالك الأولاد والأحفاد ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد ، تركوا أمر الله واشتغلوا بما يرضونه ، فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ، وظنى إن وصل إليك كتابى أنهم يطردون ويردعون ، وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ، أيعجبك إذا مشى هذا اللاه ، ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله ، وإنك إن فرحت بعلم ما يجهلون ، قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون ، فإن قلت إن اجتماعى بهم لأجل الصدقة أو شىء من هذا القبيل ، إنما الصدقات للفقراء [illegible] العاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل،

از مشاء بنميم ، وطباعهم كما تعلم منكرة مستقذرة

قسورة . وقد قال وفائى خاطب عزيزك هذه

المرة وإن لم يعمل فيك فكرا ، وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ، فقال لسانى إن الود هو الرسول المأمون ، فأرسله معى رداءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون ، فقلت سيروا مع المحبة ذات الفتوة ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة وقولوا له عند الغاية ، قد جئناك بآية ، ولا تهابوا جيش الأعداء وإن كبر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر ، ولا تظنوا من ظاهر الأمر حلول البلوى، إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ، بل قاتلوهم قتال المستشهدين ، وليجدوا فيكم غلظة، واعلموا أن الله مع المتقين ، وإذا اشتبك القتال فليذب كل منكم عن مولاه ، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، فسيروا ودعوا الأولاد والجنة ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة ، ولا تسألوا عن الميرة من أصله . وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ، فإن الله قد أثاركم لقتال العذال العاتيين ، ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ، واحملوا عليهم فإنهم متى طعنوا فى جنوبهم رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم، ولا تدبروا إذا أريتموهم إقدامكم ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، وإن أخذتم أسرى فقاتلوا أنصارها . فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، فإن أطعتم رفعتم وأصلح الله بالكم ، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ، وسأتلوا فى خطبتكم عند قدومكم سالمين ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

تكفينا هذه الرسالة دليلا على أن النديم كان فى المرحلة الأولى من تاريخه الأدبى مفتونا بالسجع وبغيره من ألوان البديع ، وقد بدأ النديم يكتب على هذه الطريقة منذ السادسة عشرة من العمر ، فقد أمدّ الذين أرّخوا لحياته بطائفة من الرسائل الأدبية المنمقة التى كتبها فى صباه فقاربت العشرين رسالة . أولاها رسالته التى عنوانها .

اواء النصر فى أدباء العصر :

قيل أنه كتبها منذ دخوله القاهرة ، أو منذ عمله بالقصر العالى . واجتماعه فى أوقات فراغه بجماعة من الشعراء والمنشئين . وذلك عن طريق صديقه الشيخ أحمد وهبى . وإذ ذاك تعرف النديم بستة من الشعراء ثم سرعان ما كتب — وهو فى هذه السن المبكرة — رسالة فى تراجمهم بدأها بقوله :

« . . . وبعد فهذه نتيجة بهيجة عن ناقل الأكياس من الناس ، ووى عن فكره عن لبه عن نظره عن قلبه . حديثاً الصدق منه ، والحق عنه ، والدقة إليه والرقة عليه،إنه ركب أفراسه ، وثار واستصحب الفراسة ، وسار يجوب الأقطار اختبارا ، ويترك الأوطار اختيارا ، ويقرأ الجرائد اكتشافا ، وينظر الخرائد استلطافا ، فى شرف نفس عن الناس ، على طرف أنس بلا كاس ، لاترده المتاعب عن أمله ، ولا تلهيه الملاعب عن عمله ، حتى ملا أوعيته حكما ، وعاد أنديته حكما ، وقابل أحباره ببضاعته ، وقص أخباره على جماعته ، فغطوا رءوسهم وناموا ثم قطبوا وجوههم وقاموا ، سكوتا لا يتكلمون من الهم ، ومرضى يتألمون من الندم ، فتعلق بالأذيال وصاح ، وتحقق الوبال فناح ، ونادى بأعلى صوت أيها الكرام . .

***

على هذا النمط الذى يذكر القارىء بأسلوب المقامة فى الأدب العربى سار النديم فى رسالته حتى هيأ لنفسه الطريق إلى مدح أولئك الأدباء الذين عرفهم

واتصل بهم ، وأشبع فى نفسه رغبة جامحة وشهوة عارمة ، هى شهوة الاجتماع بالناس ، والتحدث إليهم والانتفاع بأفكارهم وآدابهم .

وفى هذه الرسالة استطاع هذا الفتى اليافع أن يهدى باقة من الزهر إلى أدباء العصر وهم بحسب وورود أسمائهم فى هذه الرسالة ، السيد أحمد وهبى ، وعبد العزيز بك حافظ ، والسيد على أبو النصر ، ومحمود أفندى صفوت الشهير بالساعاتى . ومحمود بك سامى البارودى (محمود باشا فيما بعد) والشيخ أحمد الزرقانى ، ومحمد بك سعيد نجل جعفر باشا مظهر ، وعبـــد الله فكرى (عبد الله باشا فيما بعد) .

ما كان أشد كلف النديم منذ صباه بالسجع ، لقد كان يأبى إلا أن يكون عنوان رسالته مسجوعا ، ومن رسائله المسجوعة حتى فى عنوانها : التنور المسجور فى المفاخرة بين السفينة والوابور ، وطالع الكرامة بحسن السلامة ، ودرر النخلة وغرر الرحلة ، حفظ الودائع لدرر البدائع ، تنبيه اللبيب وتسلية الحبيب ، الساق على الساق فى مكابدة العشاق ، رياض الرسائل وحياض الوسائل ، حوض الخير وحوض الجبر .

وكانت هذه الرسائل كلها ترويضاً للفتى على الكتابة ، وتدريباً له على التنميق فى التحرير ، ولم يكن فى هذه المرحلة إلا مقلداً لروح العصر ، ومحاكياً لطريقة أعلامه فى النثر .

غير أن النديم فى هذه الرسائل كان يبدو متأثراً كما قلنا — إلى حد بعيد بأسلوب المقامة . بل يظهر أن المقامة كانت ألمع شىء فى أدبنا المصرى فى القرن الثامن عشر حتى تأثر بها وحاكاها كل أديب من أدبائنا فى القرن الذى تلاه ، على تفاوت بينهم فى هذه المحاكاة .

ولولم يشتغل هذا الفتى بالصحافة بعد ذلك لبقى يكتب بهذه الطريقة عينها طول حياته ، فقد كانت له قدرة بالغة منذ نشأته على الإتيان بهذه الأسجاع ، إلى درجة أنه لم يكتف بالقوافى الخارجية للجمل حتى جعل لها قوافى داخلية أيضاً كما فى قوله من ضمن رسالته السابقة « فرأى الناس يتهادون بالمواهب مع اختلاف المذاهب

فى المعاملة ، وكل ينادى على بضاعته ويفتخر بصناعته حتى يكدر آمله ، فلا يربح منها غير الكاسد ولا ينجح منهم إلا الحاسد البليد الحمار تراه فى المشدقة ، كأنه فى مشنقة يحاول الفرار ، يعارض أستاذه ، ويفتت أفلاذه بما يبديه ، إذا دخل على أمير ، لا يفارق السرير حتى يسدبه ، وإن فارق صوبه ، جر ثوبه مهرولا فى مشيته ، يسلم بالبنان وينكر بالجنان ويعبث فى لحيته . . . » .

ولا شك أن هذه وأمثالها لا تعدو كونها محاولات أولى يشق بها الفتى طريقه إلى الإنشاء . والحق أنها أفادته وهيأته للجهد الصحفى الضخم الذى بذله فيما بعد .

ولقد كانت باكورة هذا الجهد الصحفى الجهيد مقالات كتبها فى مجلتى المحروسة والعصر الجديد لصاحبيها أديب إسحق وسليم نقاش ، غير أنه لم يدم على ذلك طويلا حتى حصل من الحكومة على إذن له بإصدار :

الفصل الثامن

جريدة التنكيت والتبكيت

فى ٦ يونيو سنة ١٨٨١ أصدر النديم أول عدد من أعداد هذه الجريدة وكتب افتتاحيتها بعنوان (أيها الناطق بالضاد) قال فيه :

أتقدم بين يديك بخدمة وطنية ، دعانى إليها حبى فيك ، وخوفى عليك ، وما هى بالعظيمة فتشكر . ولا بالبليغة فتمدح ، وإنما هى صحيفة أدبية تهذيبية ، تتلو عليك حكماً وآداباً ومواعظ وفوائد ومضحكات ، بعبارة سهلة ، لا يحتقرها العالم ، ولا يحتاج منها الجاهل إلى تفسير ، تصور لك الوقائع والحوادث فى صور ترتاح إليها النفوس وتميل ، ويخبرك ظاهرها المستهجن بأن باطنها له معان مألوفة ، وينبهك نقابها الخلق بأن تحته جمالا يعشق ، وحسناً تذهب الأرواح فى طلبه ، هجوها تنكيت ، ومدحها تبكيت ليست منمقة بمجاز واستعارات ، ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة برقة قلم محررها ، وفخامة لفظه وبلاغة عباراته ، ولا معربة عن غزارة علمه وتوقد ذكائه ، ولكنها أحاديث تعودنا عليها ، ولغة ألفنا المسامرة بها . . فهى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ، ونديم يسامرك بما تحب وتهوى . فاجعل لها نصيباً من عمرك الجليل . ومتعها بنظرة تجلو مرآتها ، وتبصر خباياها . ولا تفوق سهام الرد قبل أن تدخل المضمار ، ولا تنكر عليها ما تحدثك به قبل أن تطبقه على أحوالنا ، ولا تظن مضحكاتها هزواً بنا ، ولا سخرية بأعمالنا ، فما هى إلا نفثات صدور ، وزفرات يصعدها مقابلة حاضرنا بماضينا ، فإن صدقت فى الخدمة فأجرى منك المساعدة ، وإن قصرت فقد بلغت جهدى ، وحزمت ما فى إمكانى فإن شئت عذرت ، وإن شئت أطلقت عنان أفكارك فى ميدان يكبو فيه جوادى .

ولسنا بدار الحرب أو أرض فتنة ولكن لنا في العالمين نظير

ثم مضى النديم فى هذه المقدمة البليغة يوضح للقراء كيف تقدم الغرب وتأخر الشرق ، أو كيف تنبه الأوربى ونام المصرى ، وكان أسلوبه فى أداء هذا المعنى موسيقياً بما كان يوفر له من السجع أو الزواج ، وجزلا بما كان يؤثر إذ ذاك من فحولة الألفاظ . وذلك حتى ختم حديثه بقوله :

« وسأتحفك بغرائب قومك ، ومناقب أصلك أقدمها إليك شذوراً مردفة بما نحن فيه من التنكيت ، لتعذر المهتمين ، وترحم المسكين ، وتكون من الذين أعادوا مجدهم ، وأحبوا أوطانهم فأصبحوا ببقاء ذكرهم فى الوجود من الخالدين » .

ثم جاء هذا العدد عامراً بمقالات كثيرة ، بعضها باللغة العربية الفصيحة ، لأن الحديث فيها موجه للخاصة ، وبعضها الآخر باللغة العامة غير الفصيحة لأن الحديث فيها موجه إلى العامة ، والنديم يقيم من نفسه أستاذاً لهؤلاء وهؤلاء ، كما كان يفعل الأستاذ الإمام سواء بسواء ، مع ملاحظة فرق واحد بينهما ، هو أن الإمام لم يحاول قط أن يصطنع فى الصحف لغة الشعب ، وإن كانت لغته قريبة كل القرب من هذه اللغة كما رأينا ، على حين أن النديم كان لشعبيته التى أشرنا إليها يلذ له أن يجعل للشعب من صحافته نصيباً موفوراً فمن الموضوعات التى قصد بها النديم إلى الخاصة موضوع كتبه فى هذا العدد الأول من أعداد جريدة التنكيت والتبكيت بعنوان .

مجلس طبي على مصاب بالافرنجى[1] :

دخل به فى صميم المسألة المصرية التى كانت تشغل الأذهان فى وقته وكنى

(١) الأفرنجى كلمة كان يطلقها المصريون فى القرن الماضى على مرض الزهرى والكاتب يستعملها استعمالا مجازيا كما يدل عليه سياق الحديث . والمقال مأخوذ من كتاب سلافة النديم — الجزء الأول صفحة ٧٩ .

بلفظ « مصاب بالأفرنجى عن الخراب الذى أصاب البلاد وكان نتيجة لإسراف إسماعيل ، ووقوعه فى الديون ، ثم تدخـــل الأجانب فى مصر وفرضهم الرقابة الثنائية عليها ، إلى آخر تلك المصائب التى حلت بالبلاد ، وتألم لها أهلها جيلا بعد آخر .

وانظر إلى النديم يقول فى هذه القصة التى رمز بها إلى جميع تلك الأمور :

كان هذا المصاب صحيح البنية ، قوى الأعصاب ، جميل الصورة ، لطيف الشكل ، مارآه فارغ القلب إلا َّ صبا ، ولاسمع بذكره بعيد إلا طارَ إليه شوقاً ، نشأ فى العالم روضة ، ودار به أهله يحفظونه من الأعداء ، ويدفعون عنه الوشاة والرقباء . وقد مات فى حبه جملة من العشاق الذين خاطروا فى وصاله بالأرواح والأموال ، وكلما وصل إليه واحد سحره برقة ألفاظه وعذوبة كلامه ، وسلب عقله ببهجة يحار الطرف فيها وعزة لايشاركه فيها مشارك . وهو هو غزال فى الخفة ، وغصن فى اللين ، وبدر فى البهجة ، وجنة فى المنظر . تمر عليه الدهور فتزيده حسناً ، وتتوالى عليه العشاق فتزداد هياماً . وأهله فرحون بهذا البديع الفريد ، والطالع السعيد ، يعشقون الموت فى حياته ، وقد اتفقوا على توحيـد كلمتهم فى حفظه ، وجمع شتاتهم فى رحابه ، وصرف حياتهم الطيبة فى بقائه فى الوجود معززاً بأهله ، مؤيداً بعشائره ، حتى لاتمد إليه يد عدو ، ولا يوجه إليه فكر محتال ، ولايقرب منه مختال .

وبينما هو يتيه بحسنه ، ويدل بجماله ، صحبه أحد المضلين ، واستماله بنفاق تميل إلى النفوس ، وتملق يخجل ، فظن أهله أن هذا المضل من الأتقياء الذين لايعرفون اللهو ، ولايميلون إلى المفاسد ، وسلموه جنة حياتهم ، وروضة ثروتهم؛ فدار به فى الأسواق والطرقات ، وعرضه للعشاق تقبله جهاراً ، وتسلبه حلى أصابعه ، وزينة صدره ، وقد علموا أن الجمال يأسر الجميل فأحضروا من الغوانى من تعارض الشمس بحسنها ، وتكسف البدر بنورها ، فدُرن فى سبيل بيته يغازلن أهله بنغمات تحرك الجبان ، ومؤانسة تستميل الشجعان ، حتى سلبن العقول ، وحولن الطباع ، وبغضن المحبوب إليهم ، وألهين كل ذى لب عن أفكاره ، وأنسين كل مدبر

ما كان يتصوره من نوابغ الحكم ، وغريب الأمثال ، وجعلن الجمال مبذولا بلاقيمة والوصال ممنوحاً بلا مقدمات . وذلك الصاحب مكب على هواه ، مغرم بجمع الغرباء ، واستدعاء الأعداء ، ومصاحبة الأشقياء ، ومسامرة الأغبياء ، ينام ومحبوبه قلق ، ويضحك ومعشوقه كئيب ، إلا أن هذا الغزال الطاهر العرض لما رأى أهله أهدروه وأهملوه واشتغلوا بالغوانى ، وولعوا بخدمة الأجانب ، وانكبوا على الملاهى يتبعون آثارها ، استسلم للقضاء ، وترك النفار والتحمس ، ومال مع أغراض هذا الصاحب وسار معه فى طريق لا يرى فيه أحداً من أهله .

فما هى إلا رشفة كأس حتى اصفر وجهه ، وارتخت أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، فسلم جسمه الشريف إلى الفراش يتململ عليه ، ففطن له واحد من أهله ، وزاره فى خربة لم يجد فيها غير شيخ يعلل نفسه بالأمانى ، ويصعد الزفرات . وقد برزت عظام وجهه ، وغارت عيناه ، وتشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبائح تنفر منها الطباع ، فبكى وانتحب وقال :

أى حياتى ، أى جنتى ، أى نزهتى ، أى مطلع عزى ، ما الذى أصابك ؟ أين جمالك البديع ؟ أين محياك الزاهى ؟ أين حسنك الذى أفنى الكثير من العشاق ؟ أين صحتك التى أشابت الدهور وهى فى عنفوان الشباب ؟ أين قوتك التى أسرت بها الأشباح ؟ أين رقتك التى جذبت بها الأرواح ؟ أين ما كان عليك من الحلى والزينة ؟ أين تاجك الذى ما لبسه إنسان إلا افتخر على الوجود ؟ . . .

فتنفس المصاب تنفس الضعيف ، ورمقه بعين لا يكاد يتحرك جفنها ، وقال بصوت خفى : لا يعز عليك جسم أمرضه أهله ، فإنكم تركتمونى لصاحبى يدور بى أينما دار ، فعرضنى لمن لم أعرف طبعه ولا عادته ولا لغته ، ووكل بى من يغرنى ويسلك بى سبيل الغواية فلم أجد بدأ من الموافقة ، ودرت فى أماكن اللهو حتى أصبت (بالداء الافرنجى) فلم أعبأ به فى أول الأمر ، وتركت نفسى ، وكتمت خبرى ، فإنى لم أجد أحداً من أهلى حولى . ولم أعلم أن الداء سرى فى

دمى وعروقى ، وتمكن من عظامى وأعصابى ، حتى ولم يترك عضواً من أعضائى إلا نشب فيه .

فلما ضعفت قواى ، وتعطلت حواسى سقطت فى هذه الخربة(١) ، أقلب جسمى على الأحجار ، وأرمق بعينى آثار أهلى ، وقصورهم المتهدمة ولكن لاأستطيع حراكا ، حتى كدت أغالب هذا (الأفرنجى) وأصل إلى مقرى ومنشأ عزى ، فأعالج نفسى بحشائش تربتى ، وعقاقير أرضى من يد أطباء بلادى ، وصيادلة ديارى(٢) فإن قويت على فاحملنى ، وإن تأذيت من صديدى فاجمع إلى قومى ،

جمفتى ، ويسعى فى نجاتى ،

، أسفاً ، ويعض أنامله غيظاً . وأسرع

أيتها القبور الصامتة ، انشقى وانفرجى ، وابعثى من فيك من الأموات ، فقد أتت الطامة الكبرى ، وانكدرت نجوم النشور ويا أيتها الأرواح الخامدة — هلمى إلى أجسامك البالية ؛ فأقيميها من موتتها ، وابعثيها فى الوجود لتنظر هذا الذى تشق بعدمه وتحاسب عليه . فلم يكن إلا كلمح البصر حتى ملىء الفضاء بأناس لا عدد لهم ، يقدمهم طبيب بارع ، قد استصحب معه جملة من الأطباء ؛ وساروا إلى تلك الجيفة ، واحتاطوا بها يقلبونها عن اليمين وعن الشمال ، ويقرعون صدرها ويجسون نبضها ، حتى وقفوا على دائها ، وعلموا أصل مصابها فحكموا على صاحبها(٣) بانتزاحه عنها ، وعدم قربه منها ، وفوضوا أمر هذا المصاب إلى الطبيب البارع يتولى علاجه ، ويداوى جراحه . فطلب من بقية الأطباء أن يرافقوه فى هذه المعالجة ليتقوى بأفكارهم على ما يصلح به هذا الجسد الشريف ..

وبعد تبادل الأفكار بينهم قرّ الرأى على أنهم يركبون له دواء يوقف سريان

---

(١) الخربة هنا كناية عن الخراب الذى حل بالبلاد بسبب إسراف إسماعيل .

(٢) أراد بأطباء بلاده وصيادلة دياره العقلاء من أمته وهم وحدهم القادرون على إنقاذ البلاد من هذا الخراب .

(٣) صاحبها . كناية عن إسماعيل .

الداء الآن ، حيث تحكم وتمكن وبعد ذلك يتداولون فيما يزيل المرض ويعيد الصحة ، فتعلق بهم أهله يسألونهم الإسراع فى معالجته ، والاجتهاد فى دفع مصابه . فترضتهم الأطباء وسألتهم الهدوء والسكون ، ومساعدتهم فى خدمته ، وتنظيف محله ، وتطهير أعضائه وحفظه بحيث لا يتركون الغرباء يتولون خدمته ، ولا يمكنون الأجانب من الوصول إليه . خوفاً من إفسادهم العلاج ، وسعيهم فى إتلافه أكثر مما صنعوه به ! .

فكثر صياح أهله ، وعلت أصواتهم بالعويل ، ووضعوا أيديهم على أكبادهم وتصبروا وابتدأوا يعملون بمشورة الأطباء ، ويبذلون الجهد فى وقايته وصيانته من كل من كان من جنس مصيبته .

قال الراوى : وبينما أنا أبكى وأنوح مع هؤلاء المساكين ، وإذا بالمؤذن ينادى حى على الفلاح فقمت لأقضى الفرض ، وأعود لمباشرة الخدمة مع إخوانى ، إذ لم أر قبل هذا اجتماع مجلس طبى على مصاب بالأفرنجى . ا هـ

هكذا بين النديم للخاصة من أهل مصر خطورة هذا الداء ، الذى سرى فى البلاد وهو داء الإسراف ، كما بين لهم أن الشفاء منه ميسور بإسناد الأمر إلى عقلاء الأمة وحكمائها ، وإلى المخلصين من أبنائها على أن يتكاتفوا فى مهمتهم ، ويضعوا لأنفسهم خطة تقوم على علاج سريع مؤقت وعلاج آخر بطىء ولكنه يشفى تماماً من المرض .

* * *

بهذه الطريقة وأمثالها أخذ النديم يخاطب الخاصة ، أما العامة فخاطبهم بأكثر من مقال فى العدد الأول من الصحيفة ، ومنها مقال بعنوان « عربى تفرنج » وآخر بعنوان « سهرة الأنطاع » وثالث بعنوان « تخريفة الجنون فنون » ورابع بعنوان « محتاج جاهل فى يد محتال طامع » كل ذلك بينما خص الطبقة المثقفة بمثال « مجلس طبى على مصاب بالأفرنجى » ومقال أو قصة بعنوان « غفلة التقليد » .

وفى هذا المقال الأخير سخر النديم من بعض الموسرين ممن سماهم (حمير الأموال) وقد بنى لنفسه بيتاً عظيما وملأه بالفراش الوثيرة ، والأدوات الثمينة

ثم لمجرد التقليد أتى لنفسه بخزانة كتب ملأها بكتب الأشعار والتاريخ وبقية العلوم ، وهو بعد لا يعرف القراءة والكتابة ، فعل ذلك لا لشيء — كما قال على لسان رب الدار — إلا « لأنه دخل بيت الشيخ فلان ، والسيد فلان ، والحاج فلان ، والهمام فلان ، والأمير فلان ، فرأى فى مضيفة كل منهم خزانة بها كتب وعليها ستارة خضراء ، وبجانبها منشة من الريش ، والخادم كل يوم ينفضها ويمسح الزجاج والخزانة ، فعلم أن هذا طرز جديد فى بناء البيوت ، فرتب مضيفته مثلهم ليكون فى صف المتمدنين أخ .

ولا نستطيع أن نترك الجانب العامى من هذا العدد الأول من أعداد مجلة التنكيت والتبكيت حتى نسوق فيه نموذجاً للقارىء يوضح له طريقة هذا الصحفى فى مخاطبة الشعب فى صحيفته . ولنتخذ لتلك الحكاية التى عنوانها :

محتاج جاهل فى بر محتال طامع :

احتاج أحد الزراع لاستدانة مائة جنيه ، فقصد بعض التجار ، وطلب منه المبلغ ، فجرت بينهما هذه الحكاية بحضور بعض النبهاء .

الزارع : عاوز ميت جنيه بالفرط[1] يا سيدى .

التاجر : فرط الميه عشرين كل سنة .

الزارع : اعمل اللى تعمله .

التاجر : شيل عشرين من الميه يبقى كام ؟

الزارع : لهو أنا كاتب شوف يفضل كام ؟

التاجر : يبقى سبعين .

الزارع : يدوب كده .

التاجر : دلوقت صار لى مية جنيه ، ضم عليهم عشرين واكتب الكمبيالة

الزارع . اكتب وخد الختم أهو .

وفى وسط السنة قدم له الزارع عشرة قناطير قطن وعشرة أرادب سمسم

(١) يريد بالربح أو الربا .

وعشرين من القمح ، وثلاثين من الفول ، وأربعين من الشعير وجاء يحاسبه فكانت الحكاية هكذا .

الوارع : طلع لى ورقة الحساب يا سيدى .

التاجر : انت جبت قطن بعشرين جنيه . وقمح بعشرين جنيه وشعير بعشرة جنيه ، يبقى كام ؟

الوارع : ما قلت لك من ديك المرة ما بعرفش الحساب .

التاجر : يبقى أربعين جنيه شيلهم من مية وعشرين ويكون الباقى كام ؟

الوارع : مين يعرف شيء بعده [١]

التاجر : الباقى تسعين جنيه ، وفرطهم عليهم عشرين ، يبقى مية وخمس عشر طالب انت كان ثلاثين . يبقى ماية وستين ، ضم عليهم أربعين قرط . يبقى الكمبيالة بمائتين وعشرة ونصف .

الوارع : هو إيه — من الأصل سبع عشرات وعشرتين ، وجالهم ثلاثين وثلاثين ، شلت منهم ثمن البتوعات التى جبتهم ، يبقى لك دلوقت ما تين وعشرة بس ! والنص جبتو منين ؟

التاجر : النص أجرة كتابتى لا من الأرباح .

الوارع : آى دلوقت صحت الحسبة ، والسنة دى أبيع لك خمسين فدان فى عشرة جنيه ، يبقى لك إيه بعد كده ؟ يا جنيهين يا ثلاثة ، خدلك بهم جاموسة ، ويبقى على رأى المثل شيل ده عن ده ، يستريح ده من ده .

فقال النبيه للتاجر : أما تتقى الله فى هذا المسكين ، أخذت محصوله ، وصار دائناً لك ، فلفقت له حسبة لا أصل لها وجعلته مدبون ، مع أن حسبتك معه هكذا .

٧٠ بفائدة ٢٠ ٪ فالمطلوب ٨٤

وهو أورد لك هذا القدر .

١٥ قنطار قطن سعر القنطار ٢ جنيه فالمجموع ٣٠

---

(١) يريد شيء كثير .

١٠ أرادب سمسم سعر الأردب ٢٫٥ جنيه فالمجموع ٢٥
٢٠ أردب قمح سعر الأردب ١ جنيه « ٢٠
٣٠ أردب فول سعر الأردب ١ جنيه « ٣٠
٤٠ أردب شعير سعر الأردب ½ جنيه « ٢٠
والمجموع الكلى ١٢٥ جنيه.

يكون له عندك ٤١ جنيه ، فكيف جعلته مديناً بمائتين وعشرة ونصف بعد ذلك ، إن هذا لهو السلب بلا خوف .

التاجر ، يا حبيبى الزارىء حمار ، وأنا إذا كان مش يعمل كده مش لازم يبجى تاجر بنكير بعد خمسة سنة .

فقال : قد تغيرت هيئتنا وتنبهت حكومتنا ، فهى تسعى فى عمل نظام يحفظ الحقوق ، ويمنع تعدى مثلك على هذا المسكين حتى لا يقع بعد ذلك جاهل محتاج فى يد محتال طامع .

أى سخرية بالجهل إلى هذا الحد ؟ أرأيت موعظة للشعب أبلغ من هذه الموعظة ؟ أرأيت تنبيهاً لأولى الأمر أقوى من هذا التنبيه ؟ لا شك أن هذه الحكايات وأمثالها على بساطتها وسذاجتها ، وعناء الكاتب فى عملها أثرت فى نفس الشعب المصرى وحكومته أبلغ تأثير ، ودفعتهم إلى نقض الجهل عن أنفسهم بعزيمة دونها كل عزيمة .

أما فى حكاية الجنون فنون ، ففيه عرض الكاتب لقرائه فنظر قهوة بلدى يستمع فيها العوام إلى رجل محتال هو (الشاعر) المعروف فى تلك المواطن وهو يقص عليهم قصة عنترة ، ولهذه القصة بطلان هى عنترة وعمارة ، والعوام ينقسمون قسمين بتشيع كل قسم منهما لواحد من هذين البطلين ، قال الشاعر :

« وبينما هم فى قتال ونزال ، وقد انكشف الغبار عن أمر عنترة ، وسنخلصه فى الليلة القابلة » .

فقال له أحد الحاضرين (النديم يسميهم المجانين) لابد أن تخلصه الآن وخذ عشرة جنيهات ! فأبى المحتال وسكت عن الكلام ، فشتمه المجنون ، وعلت

أصواتهما بالقبائح وآل الأمر إلى الضرب والإهانة .

سهرة الأنطاع :

وفى حكاية سهرة الأنطاع ، ففيها عرض النديم لقرائه كذلك صورة قوم جلسوا فى دارهم ، وعلائم الهم والتفكير بادية عليهم ، فدخل عليهم من سألهم على تلك الهموم ، وأخيراً وبعد بحث طويل عرف الذى أهمهم هو «عادة الكيف» الذى شغلهم عن كل شىء عداه فى حياتهم الاجتماعية ، ولم يجعل لهم حظاً من النشاط ، إلا رغبة فى معرفة أخبار الوطن سيئة كانت أم حسنة أخ . وما لهم ولهذا كله .

« فهذا شىء يوجب وجع الدماغ ، ويشقت الفكر ، ولا يشتغل به إلا من ليس له شغل ! ! ؟ » .

عربى تفرنج :

ثم فى حكاية (عربى تفرنج) يتخيل الكاتب أنه ولد لأحد الفلاحين واسمه ولد معيط وسماه (زعيط) تركه يحيا حياة الفلاحين فى العزبة ، ثم أرشده الناس إلى ضرورة إرسال ولده إلى المدرسة فأطاعهم فى ذلك ، فلما أتم علومه أرسلته الحكومة إلى أوربا . وعاد إلى بلاده بعد أربع سنوات ، وأتى أبوه لاستقباله فى رصيف الإسكندرية ، واندفع الأب يحتضن ولده ويقبله ، فابتدره ابنه قائلا .

سبحان الله عندكم يا مسلمين مسألة الحضن دى قبيحة جداً .

معيط : أمال يا بنى نسلم على بعض إزاى ؟

زعيط : قول . بون أريفى (Bon Arrivée) وحط إيدك فى إيدى مرة واحدة وخلاص .

معيط : لهو يا بنى أنا بأقول منيش ريفى .

زعيط : موش ريفى يا شيخ ، أنتم يا أبناء العرب زى البهائم !

معيط : الله يسترك يا زعيط ، والله جا خيرك ! . أخ .

وهكذا احتوى العدد الأول من مجلة (التنكيت والتبكيت) ست مقالات ،

إثنتان منها للخاصة وأربع للعامة . وخاطب النديم كل طبقة بما يلائمها ، وذلك من حيث اللفظ والفكرة فى وقت معاً .

ثم فى العدد الثانى من هذه المجلة ، رأينا النديم يطرق موضوعاً آخر ، وهو موضوع المحافظة على اللغة القومية للبلاد ، وهو موضوع ذو بال ، وقد أثار به جدلا كثيراً ، واتخذ هذا الجدل شكل مناظرات قبل أن النديم نفسه ، كان حكما فى بعضها .

جاء فى هذا المقال الذى نشير إليه بقول النديم تحت عنوان ،

إضاعة اللغات تسليم للذات :

أيها الناطق بالضاد ، بم تستبدل لغتك ومالها من مثيل ، وإلى من تتركها وأنت لها كفيل ؟ وما الذى استحسنته فى غيرها واستقبحت مقابله فيها ؟ وأى شيء طلبته فيها ولم تجد له إسما ؟.

لبيك أيها الأخ الشقيق — وإن لم نحمل فى بطن واحدة — اللغة سر الحياة ، والحد الفارق بين الإنسان والبهيم ، بها يترجم اللسان خواطر القلب ، ويجلو بها بنات الأفكار ، وبها يعشق المرء وإن كان دميم المنظر . . وهى التى بها جذبت قلب أمك . واستعطفت جانب أبيك وتملكت فكر أخيك ، واستملت صاحبك وألفت جارك ، وتعارفت مع مواطنك ، وقابلت بها نزيلك ، فهى أنت إن كنت لا تدرى من أنت ، وهى وطنك إن لم تعرف ما الوطن . أما كونها أنت فقد قدمت لك من عرفتهم بها ، وأنت إذ فقدتهم صرت وحيداً غريباً فى الوجود ، لا ترى من يقول لك من أنت ؟ وأما كونها وطنك ، فإنه إنما يعمر ويسمى وطناً برجال يتعاونون على إحيائه وإظهاره فى الوجود محلا للسكن ، وداراً للإقامة ، وقد علمت أنك بمفردك لا تهتدى لشيء ، ولا تقوى على أى أمر كان ، ومن فقد المواطن فقد الوطن .

أسمعك تقول : إذا فقدت لغتى اعتضت عنها بأخرى .

أجل — إنك اعتضت عنها ، ولكن بما أضاع منك الوطن ، والمعتقدات الدينية ، فإنك لا تخاطب بها إلا أجنبياً من البلاد . مغايراً فى الجنسية ، وأنت

تعلم أن لمعانى الألفاظ تصوراً لا يقوم به مقابلها فى غيرها ، فإنك لو سمعت قولى:

ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما   لتحفظ أعراض تكفلها المجد

وأردت أن تلقيه بلغة أخرى لفقد قوة الحماسة ، ووقع الألفاظ . وربما عدت عنه بما لا يؤدى معنى ... رويداً فقد قدتك إلى الحق ، ورميتنى بالأضلال فإنى لم أحرم عليك غير لغتك لضرورة تقتضيها ، ونازلة تدفعها ، ومشكل تحله ، وإنما أردت تذكيرك بأن لغتك كان منطوقا بها من غير تعلم ، محفوظة فى غير كتاب وبمخالطة الدخيل فسد بعضها ، وخيف عليها الضياع ، فدونت فى بطون الأوراق ولقيت ذوتها فى اللفظ والكتابة .. إلى أن قال :

« هون عليك فالأمر سهل ، فإننا لا نحتاج لحفظ لغتنا أكثر من إحداث درس فى جميع المدارس يلقن فيه الطفل لغته العربيـة الشريفة ، بطريقة تهذيبية لا يصعب الأخذ بها ، ولا تمل النفس من ملازمتها ، مع اجتماع الأمة على تكثير المدارس بالجمعيـات ، وصرف ثلث وقت الطفل فى تعلم اللغة والوطنية وتهذيب الأخلاق . وإذا تمت هذه المبادىء رأيت لبلادك نشأة جديدة ، وخلقاً بديعاً ، وعلمت بما تراه من جمع الكلمة ، وسر وحدة التعليم ، وانتظام الهيئة الاجتماعية أن إضاعة اللغة تسليم للذات .

على أن هذا الموضوع الذى بدأه النديم ، هو المحـــافظة على اللغة العربية ، وجدناه قد تركه بعد ذلك ، ولم يعد إليه إلا حين أصدر آخر صحيفة له ، وهى صحيفة (الأستاذ) على النحو الذى سنشرحه بعد ، وكتب النديم فى العدد الثانى من أعداد مجلته كذلك مقالا انتقد فيه المجتمع المصرى . فى « عادة التبذير والإسراف » ، وجعل عنوانها يدل عليها . ويلفت النظر إليها . وهو قوله :

هف طلع النهار :

كما كتب مقالا آخر بعنوان « كم فى الزوايا من خبايا » يتهكم فيه بلغة رجال الإدارة وجهلهم وسوء تصرفهم فمن ذلك أن أحد المأمورين ارتكب خطأ فى عمله ، فأرسل له رئيسه كتاباً يوبخه فيه ، ويسأله الإجابة . فطلب المأمور رئيس كتابه ، فكتب له جواباً سخيفاً فى لغته ، وسخيفاً فى فكرته ، فلم يسترح

المأمور إلى ذلك ، وأخيراً دله بعض جلسائه إلى شاب عنده فى الديوان ، لا يتجاوز راتبه ثلاثة جنيهات ، ولكن يحترف الكتابة ، فكتب الإجابة بلغة صحيحة ومفهومة ، فلما قرأها على المأمور كاد يطير فرحاً بنجابة الشاب .

وقال ، كيف يكون هذا بثلثمائة قرش ورئيسه بألف قرش ؟

فقال له الوكيل : هذا من أولاد الفقراء ، وليس له محسوبية على أحد الأمراء ، ولا يعرف النفاق ، ولا يفعل أفعال المحتــالين التى تقدمه إلى ذوى الغايات .

ثم علق النديم على هذا بقوله :

(التبكيت) أعظم مصيبة من رئيس كتاب لا يعرف الإنشاء ، وجود مأمور لا يحسن كتابة جواب من شأنه أن يكون من أسراره الخفية !

ثم فى نفس هذا العدد من أعداد مجلة التنكيت والتبكيت أجاب النديم عن سؤال تخيل أنه ورد عليه ، وهو بأى سبب ماتت صنائع الشرق ، وافتقر أهلها ؟ وبأية وسيلة تحيا وتعود ثروة أهلها ؟

فأجاب عن ذلك بأن الصنائع قد ماتت بتحارب أهلها وبتباغضهم اللذين أورثاهم الفقر وفقد الأمن والثقة بهم ، واحتج لرأيه هذا بمقال طويل وأدلة قوية .

أما العامة فكان نصيبهم فى هذا العدد أحاديث ، منها حديث له بعنوان :

تحريفة خدمون عبد الله واتكل على الله :

قال فيه :

سافر لأحد الأغبياء ولد ، فلما طالت مدة غيبته توجه إلى بعض الرمالين ، وقال له « خط لى الرمل ، وشوف نجمى ازيه » .

فخط الرمل وقال له : ما شاء الله ، أنت طالعك سعود ، وأيامك سعود ، شوف النجم يخبر بأنك بتاكل وتشرب ، وتقوم وتقعد ، وتفرح وتزعل ، وتركب وتمشى ، وتنام وتتيقظ ، وتكسب وتخسر . وفوقك سما ، وتحتك أرض ، وفى فكرك كلام ، وطالب حاجة ، وبدك تبقى غنى .

فغمز الغبي رفيقه ، وقال له : شفت . أنا ما قلتلكش يعرف كل شيء ، مين قال له على اللى يعمله دا كله ، النجم يبين كل حاجة .

ثم التفت إلى الرمال وقال له :

شوف أبو الزلفى ابنى ماله غاب كده .

فقال الرمال : دلوقت حصل سحاب كثير ، والنجم ما يصحش فى السحاب

فقال الغبي : أظن نجم الواد ساقط !

فقال الرمال : الظاهر كده .

فشنق الغبي نفسه بعمامته ونادى .

آه يا ابنى — يا أعز الرجال يا أبو الزلفى ،

فسمعته أمه فخرجت صارخة مولولة قائلة إيه جرى لابنى ؟

فقال لها أبوه : النجم خبر عنه أنه مات !

فصاحت وصوتت واجتمع إليها النساء من كل فج ، وأحضرن الدف وابتدأن بالندب والعويل ، حتى قامت الناس على ساق ، وجلس أبوه يقبل العزاء ، ودموعه تسيل على خدوده .

وبينما هم فى شياط وعياط ، وإذا بالولد داخل عليهم حاملا زكيبة الزوادة ، فابتدره والداه واحتضناه ، وقالت أمه لأبيه :

شفت الرمال بتاعك الكذاب ده !

فقال لها : « والله يا وليه الراجل ما لو دعوه ، الراجل قال لى السحاب كثير ما سمعتش منه والا برده كلامه حق » .

ولهذه الحكاية بقية أتى بها النديم على وفق خياله ، ثم علق على ذلك بقوله :

(التبكيت) — انظر إلى الغفلة واستحكامها فى العقول السخيفة ، وكيف رأى هذا الغبي أن الرمال كذب فيما يفتريه ، وحضر ولده من سفره ، ولم يرض[1] أن يكذبه ، وحمل عدم صدقه على وجود السحاب .

(١) نرى أنه كان على الكاتب هو أن يأتى بفاعل (يرضى) ظاهراً لا ضميراً مستتراً وإن كان سياق الحديث يفهم منه أن الضمير فى (يرضى) يعود على الأب .

وتأمل قوله أنه يعرف كل شيء . بعد كونه يخبر عن أشياء من ضروريات البهيمة ، فضلا عن الإنسان .

وفى جريدة التبكيت والتنكيت ، وجه النديم عنايته كذلك إلى تقصير كبير يرتكبه المصريون ، وهو صنعتهم فى الخطابة وبخاصة الدينية .

ودعاه ذلك إلى بحث كبير فى الخطابة وأصولها وقيمتها ، وتاريخها وأنواعها، وانتهى من ذلك إلى قوله .

وأود وجود نفر من أعيان بلادنا يتبرعون بمبلغ يقوم بنشر خطب أدبية وسياسية . وأنا أقوم بإنشاء خطبة فى كل أسبوع ، تناسب أحوال الزمان . ثم تطبع هذه الخطبة وتنشر فى سائر أنحاء القطر ، لتتنبه الأفكار وتعرف الأمة قدرها ، وما تحفظ به نظـــامها بين الأمم . ولا يتم هذا الأمر إلا إذا اجتمع هؤلاء الأعيان ، وعرضوا ذلك لديوان الأوقاف ، ليتمكنوا من العمل بالخطبة وما أظن أن أحداً يأبى هذا السعى الجليل ، مع تمتعنا برعاية ملكتى يسره وقاية الدين من سقطات الجهلاء ، وحفظ المملكة بأفكار رجاله وأفراد رعيته(١) .

ونرى النديم بالفعل قد أخذ يكتب نماذج للخطبة المنبرية العصريةفى جريدته هذه ، لكى يحتذيها الناس ، وينسجوا على منوالها .

ونريد أن نلخص ما عن لنا من ملاحظات على هذه الجريدة حتى الآن فنقول .

أولا : إن وجه تسمية الجريدة (بالتنكيت والتبكيت) هو أن النديم كان يقسم مقاله العانى فى الصحيفة قسمين : قسم يسخر فيه من عادة من عادات المصريين أو خلق من أخلاقهم ، ويأتى بقصة يشرح فيها كيف ينقاد المصريون لهذه العادة وكيف يأتيهم الضرر من قبلها ، وقسم يوبخ فيه المصريون على اتخاذ هذه العادة ، أو التمسك بهذا الخلق ، ويأتى توبيخه على هيـــأة تعقيب من الجريدة على هذه الحكاية التى أوردها ، والقسم الأول من هذين القسمين هو (التنكيت) بالنون والقسم الثانى هو (التبكيت) بالباء . ومن ثم كان محقاً فى هذه التسمية .

---

(١) سلافة النديم الجزء الأول ص ١٢٧ — ١٢٨ .

ثانياً . إن المقالات التى كان يكتبها النديم باللغة العربية الفصيحة ،كانت على هيئة أحاديث ممتازة ، أو قل فى صورة خطبة . والنديم خطيب بطبعه وخلقته كما رأينا وهو لهذا يجد سهولة كبيرة فى التحدث إلى الناس على هذا الوجه ، بل يجد لذة عظيمة فى ذلك ومن هنا كانت عناية النديم بالبحوث الخطابية فى صحيفة مقابلة لعناية إسحق بالبحوث الكتابية فى صحيفته ، أو من ناحية أخرى كان النديم يؤمن بالإصلاح عن طريق الخطبة ، فى حين أن الأستاذ الامام كان يؤمن بالإصلاح عن طريق النفسية .

ومن ثم كان الإمام عالما بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، وكان النديم خطيباً شعبياً ، والخطبة الشعبية لا غنى لها عن التهريج كوسيلة لإقناع الجمهور .

ثالثاً ، إن الموضوعات التى طرقها النديم فى صحيفة التنكيت والتبكيت ، كان أكثرها يتصل بالمجتمع ، وأقلها يتصل بالسياسة ، وقد كان النديم من أوائل من أدركوا فى مصر أن لغة الصحافة البحتة ينبغى أن تكون غير لغة الأدب البحت ولذلك ترك السجع ، وعدل عن الزخرف ، وآثر عليهما طريقة الرمز ونسج الأقاصيص الصغيرة ، التى يقرؤها العامة والخاصة ، وتترك فى نفوسهم تأثيراً واحداً على السواء .

أما الكلام عن بقية الخصائص التى لأسلوب عبد الله النديم ، فله موضع آخر عندما نلخص القول فى هذه الخصائص ، وذلك بعد الفراغ من البحث عن بقية الصحف التى كتب فيها هذا الرجل .

* * *

نشبت الثورة العرابية ، واتصل بها النديم راضياً أوكارها . أو طلب إليه أن يخدم الثورة بصحيفته ، وسعى رجال الثورة أنفسهم حتى نقلوا النديم وصحيفته إلى ميدان القتال . وأطلق هو على صحيفته الجديدة اسم الطائف .

الفصل التاسع

الطـــائف

وفى هذه الجريدة كتب النديم مقالات سياسية ذات طابع ثورى واضح ، ومنها مقالات فى تاريخ إسماعيل وفى النقمة عليه ، أهمها مقاله الذى جعل عنوانه :

سلب الأملاك من الملاك :

كتبه فى ٦ مايو سنة ١٨٨٢ وملأ بها فراغ صفحتين من صفحات الجريدة الأربع ، ومرض فى أثناء ذلك فأتم المقال ، وأرسل يعتذر ، عن تحرير الجريدة إلا ما كان من تاريخ حضرة إسماعيل باشا ، فإنى أكلف بكتابته ، لأن نشره من ضمن علاج ما بى !!

ونص النديم فى نقد إسماعيل والنقمة عليه فى أمور كثيرة : منها أنه أرهق المصريين بالضرائب الكثيرة ، وأنه سلب أموالهم ، ونهب عقارهم ؛ وحرمهم أرضهم ، وظلمهم واستبد بهم ، ولم ينج منه حتى أصدقاؤه وأقرباؤه من أعضاء الأسرة الحاكمة . وذهب النديم فى تجريح إسماعيل مذهباً بعيداً ، إلى حد أنه راح ينفى عنه كل سعى له فى ترقية مصر ، وانتفاعها بالحضارة الأوروبية الحديثة ، واقتدائه فى ذلك بجده محمد على ، فهذا أتى بالأوروبيين النابغين ، وهذا (يريد إسماعيل) استحضر من الأوروبيين من افتتح التياترات والمراقص ، ومن بنى له السرايات التى أنفق عليها أحمالا من الذهب ، ومن فتح له البنوك لمساعدته على شهواته البدنية ، ولذاته الخصوصية[1] » .

ثم انتقل النديم من نقد إسماعيل إلى نقد توفيق ، إلى أن اضطرت الحكومة إلى تعطيل جريدته ، وذلك فى ١٧ مايو سنة ١٨٨٢ ، ثم عادت للظهور بعد ذلك الحادث الخطير ، وهو ضرب الإنجليز مدينة الإسكندرية بالمدافع ، واحتلالهم لها .

---

(١) الطائف فى ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٢

وهكذا بعد أن كان النديم فى صحيفة (التنكيت والتبكيت) يكتب بلغة تقوم على الكتابة والرمز ، وتنم عن الحياد والحذر ، أصبح فى جريدة الطائف يكتب بلغة سافرة ، لا يخشى فيها سلطانا ، ولا يأبه بملك أو أمير ، وهو فى هذا الدور الأخير إنما يساير الثائرين فى حركاتهم ، ويترجم عن أفكارهم وآرائهم ، ويصدر عن هذا المرجل الذى غلا فى صدورهم ، حتى أوفى فى كل ذلك على الغاية .

ثم إن النديم فضلا عن تلك المقالات المنيفة التى كتبها فى نقد إسماعيل وتعيير توفيق باهتمامه بالدول الأجنبية ، طفق يكتب مقالات أشد ثورة ، وشرح فيها حالة الفلاحين ، وما انتهوا إليه من بؤس وعوز ، ودعا الحكومة إلى العناية بهم من جميع النواحى الممكنة .

أما الإصلاح النيابى فى مصر فقد استأثر بجانب عظيم من مجهود النديم فى صحيفة الطائف ، وكان يرى أن الإصلاح السياسى فى مصر لا يقوم إلا على الإصلاح النيابى (١) .

وحين وقعت الواقعة ، وآذنت البلاد بثورة جامحة ، وأعلن عرابى ورفاقه عصيانهم للخديو انتقل النديم بجريدته هذه إلى الميدان كما قلنا ، وأخذ يكتب المقالات التى هيجت الخواطر ، وأثارت الفتن . وكان النديم يلقب (عرابى) فى أثناء ذلك (بحامى حمى الديار المصرية) .

وحين قامت الحرب فعلا بين عرابى والإنجليز أراد النديم أن يروج للحرب ، ويشيد بالهمم التى يبذلها رجال الجيش ، طفق هذا الكاتب الخطيب يهول فى وصف المعارك التى دارت بين عرابى والإنجليز ، ويشيد بذكر العتاد الحربى الذى يملكه الجيش المصرى ، ويزيف فى وصف الهزائم التى أوقعها المصريون بالإنجليز ،

---

(١) وقد أرسل النديم خطابا إلى مجلس النواب بتاريخ ٤ مارس سنة ١٨٨٢ يطلب فيه امتيازاً بنشر محاضر المجلس فى هذه الجريدة . ووافق المجلس على أنه بتاريخ ٥ مارس سنة ١٨٨٢ ، ولكن يبدو أن جريدة الطائف لم تحظ بنشرها هذه المحاضر لأن المجلس انفقد فى ٢٦ مارس فلم يستطع النديم فى هذه المدة البسيطة التى لم تتجاوز تسعة عشر يوما أن ينشر شيئا من هذه المحاضر التى سعى حتى نال الموافقة عليها .

ويركب متن الشطط فى وصف شجاعة العربان الذين ألحقوا أنفسهم بالعرابيين ، ولم يلتزم النديم جانب الصدق فى شىء من ذلك .

وما للنديم والصدق فى هذه الحالة !

أليس يريد تقوية الروح المعنوية فى الجيش ؟

أليس يريد أن يذود عن الشعب كل شعور بالقلق أو الخوف؟

ومن هنا كانت الجريدة الثانية من جرائد الثورة — ونعنى بها جريدة (المفيد) لمحررها حسن الشمسى — أدنى من الطائف إلى العمل الصحفى ، فبينما كان النديم يمخرق على هذا النحو ، إذا بحسن الشمسى يسلك طريقاً آخر ، هو إثارة العداوة والبغضاء فى قلوب المصريين ضد الإنجليز ، ويجسم الخطر الذى يهدد المصريين من دخول الإنجليز ، حتى لقد أبلت (المفيد) فى هذه الناحية بلاء لا بأس به ، وجاء أسلوب محررها حسن الشمسى أقوى نوعا ما من أسلوب النديم ، الذى راح يكتب نشراته الحربية كتابة قليلة الحظ من الأناة ، بل من الجودة الفنية .

ثم أن النديم كان يصدر مع الطائف ملحقاً به ، وكان يبيح لنفسه فى هذا الملحق من حرية النقد ، والمبالغة فى التجريح والذم ، فوق ما ينبغى لصحفى شرقى أو غربى فى الظروف المعتادة .

ولكنها الثورة ينتهزها أمثال عبد الله النديم ، ويتجاوزون فيها الحدود ، ويخرجون فيها على القوانين .

ومن ذلك أن النديم تعرض للصحفيين السوريين ، وكتب فى ملحق من ملاحق الكاتب مقالا بعنوان (سليم وبشاره تقلا وتوفيق باشا) ملأه سباباً وإفحاشاً ، وأمعن إذ ذاك فى تجريح أولئك السوريين تجريحاً تناول ذواتهم وطباعهم وأخلاقهم وطعن فى زيهم وأنسابهم وأعراضهم . وكان ذلك من الأمور التى أسكتت صحف أولئك السوريين ، واضطرتهم إلى الرحيل عن الديار المصرية ، حتى تنجو البلاد من خطر الثورة العرابية .

وأرى بعد هذا التمهيد أن أكتفى هنا بأن أنقل للقارئ مقالا أو نشرة من النشرات الحربية مكتوبة بأسلوب النديم . وهو فى ميدان القتال بالقرب من الإسكندرية ، ثم أتبع ذلك بمقال لحسن الشمعى كتبه فى هذه الظروف — خارج الميدان — فى قلب القاهرة . وغرضنا من ذلك أن يوازن القارىء بين الرجلين، وبين المنهجين، وبين الأسلوبين موازنة سريعة موجزة بقدر المستطاع .

كتب النديم فى العدد الرابع والستين من جريدته الطائف ، فى ٨ شوال سنة ٩٩ بعنوان .

الهمة الثانية

إن جندنا لهم الغالبون

أى بنى مصر ، خذوا حديثاً يرويه العيان عن المشاهدة ، ويخبر به الصدق عن الحقيقة . جهل الإنجليز مقام المصريين ، فاعتدوا وأجلبوا عليهم بالخيل والرجل ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره توفيق باشا ومن معه . ونال الإنجليز العذاب ألوانا من يد المصريين فى ٥ رمضان سنة ٩٩ فأبت جهنم إلا أن يساق إليها جانب عظيم منهم يزداد به وقودها ، فتجمعوا وأقاموا خمسة عشر يوما يجهزون ويرتبون ، حتى إذا جاء أجلهم ساقتهم المنية فى يوم السبت زمراً تحت رياسة الدوق (دوكنوت) رابع أنجال ملكة الإنجليز، وقيادة السير (أرشبالد أليزون) أشهر قواد الإنجليز ، فخرجوا فى الساعة التاسعة بقوة مركبة من عشرة آلاف عسكرى ، ما بين بيادة وسوارى وطوبجية . وكان خروجهم على هذا الترتيب .

وبينما كانت الطابية تضرب القطورات قربت عساكرهم البيادة والسوارى والطبجية من عساكرنا ، فأمطرتهم بنادقنا رصاصاً غير بارد ، وسقتهم شراباً غير راو ، وكانت مدافعهم من جهة محطة السيوف ومن طابية الرمل تضرب ، ومدافع مقدمتنا الأمامية وطابية الخضراء الأول تجمع من شرد منهم وترد الهارب ، فإن طوبجيتنا من المشهود لهم أنهم من الطبقة الأولى . وقد أظهروا فى هذا اليوم ما خلد لهم فى تاريخ العسكرية ذكراً جميلا ، كيف لا ورئيسهم البطل الهمام سعادة بدوى بك

كان يطوف حول المدافع ، كأنهم بين يدى أمير مطاع ، يأمر فلا يرى إلا نشاطاً وحركات سريعة .

وعندما تكاثرت نيراننا عليهم تقهقروا ، فانقض عليهم أربعمائة من سوارينا وخمسمائة خيال من فرسان العرب ، وألف وخمسمائة من العرب الراحلة ، انقضاض الشهب المحرقة ، وساقوهم سوق الأغنام ؛ ومدافعهم تضرب من كل ناحية . وهؤلاء الأسود لا تخيفهم نيران العدو ، ولا ترهقهم كثرته ، حتى التجئوا إلى تخيل السيوف والمندرة ، فاتبعهم فرساننا الظاهرون ، وأطلقوا أعنة الخيل خلفهم. وقد سارت العرب الراحلة تبارى جياد الخيل عدواً وجرياً ، حتى تمكنوا من الألوف المنهزمة ، وأذاقوهم المنون حرقاً بنار الرصاص ، وضرباً بالسيف ، وكسراً بسنابك الخيل ، وكلما التجئوا إلى ربوة أو توارطوا فى منخفض ، تبعوهم وشردوهم ، حتى وصلوا بهم محطة السيوف . ورأى العدو أنهم لا يرجعون مع استمرار المدافع من طابية الرمل ، فقصدوا جهة طابيتهم ، وأسود مصر خلفهم تزأر ، وفرسان العرب تصيح بصوت له ضجة عظيمة ، حتى منعوهم من الالتجاء إلى الطابية . فنزلوا على جسر السكة الحديد ، قاصدين سراى الرمل ، فتبعهم صناديدنا تضرب وتذبح ، وحالوا بينهم وبين السراى ، وفروا جهة الإسكندرية والسيوف تنوشهم ، والرصاص يصيدهم ، حتى صاروا أمام الحدراء . ورأى رجالنا أنهم إن تبعوهم إلى الإسكندرية أصابتهم نيران مدافع باب شرق ، فعادوا وجثث القتلى تحت سنابك الخيل ، كأنها ربوات . ومن العجب أن أنفار العملية أخذوا فؤوسهم ونبابيتهم وهجموا مع العسكر ، وتوغلوا فى السير معهم ، وقد تجمعت خلفهم نساء العرب تزغرد وتغنى بألفاظ حماسية وصوت رخيم . وكان فى ساحة القتال سعادة البطل الغيور طلبه باشا عصمت ، قندان كفر الدوار وسعادة محمد رضا باشا . وحضرة مصطفى بك عبدالرحيم حكمدار المقدمة ، وحضرة أحمد بك عبد الغفار أميرالاى السوارى ، وحضرة عيد بك وحضرة سليمان بك سامى ، وحضرة أحمد بك عفت ، ومن البكباشية حضرة محمد أفندى قوده ، وحضرة رزق أفندى حجازى ، وحضرة إبراهيم أفندى هيبة ، وحضرة على أفندى رمزى ، وحضرة على أفندى رضا .

فهؤلاء الأمراء العظام أظهروا فى هذا اليوم ما أعاد لمصر مجداً يشرف به الحاضر ، ويفخر به الآتى من المصريين . وكنا نود لو حضر الإفرنج ، ورأوا عساكرنا وعرباننا وهم كالليوث خلف غزلان تستحى الحرب من نسبتهم إليها ، حتى كانوا يقطعون ألسنتهم بأيديهم ، جزاء لما افتروه على المصريين ، وما كانوا يقولونه من خوفهم من البرانيط التى لم تجد تحتها رؤوساً . ولكنهم وإن فاتهم النظر ، فلا يفوتهم الخبر ..

* * *

ولله در الفارس الضرغام شيخ العرب لملوم السعدى ، والبطل الغضنفر عمر محجوب كيشام . فقد أظهروا من الحماسة والإقدام فى الهجوم ، ما شهدت لهم به القتلى ، واعترف المنهزمون به .

* * *

وبهذه الطريقة السالفة كتب النديم كذلك وهو فى الميدان — مقالا فى جريدة الطائف ، يصف ما سماه يومئذ باسم :

المعمعة الثالثة

وما نريهم من آية إلا وهى أكبر من أختها

« قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين » ، ذلكم العادون المفترون بغاث(١) الإنجليز الذين استنسروا فى الوجود بأوهام وخيالات ، واستضعفونا فجاءوا بالخيل والرجل ، وقد زلزلت أرضهم ، فأخرجت أثقالها ، وثبتت بأقدامنا أرضنا ، فكنا أوتادها . غرتهم مراكبهم ، الحربية ، فتخيلوا أنهم يسيرونها فى البر ، وما دروا أن الأسماك يقتلها التراب ، وتنتنها الشمس . وهى إذ لا تقرب الشاطىء خوفاً من الصياد ، وبين أسود تتبع فريستها أنى سارت . يعلم ذلك من شاهد واقعة يوم الأحد ٥ شوال سنة ٩٩ ، فقد أخذ العدو يهيىء عساكره من الساعة السادسة نهاراً . وفى الساعة التاسعة

---

(١) بغاث الطير صغارها .

ظهر بقوته المركبة من ستة قولات قادمة من جهة الرمل شرقى المحمودية ، وقوانين من جهة حجر النواتية غربى المحمودية ، وقطرين من طريق القبارى ، وكان سعادة طلبه باشا قندان فرقة كفر الدوار قد رتب مقدمتنا من أربع أرط شرق المحمودية تحت حكمدارية عيد بك ، وحضرة أحمد بك عفت ، ألخ .

وعندما صار العدو تحت نيران مدافعنا اشتغلت الطوبجية من الطرقية ، واشتعلت نيران المدافع ، وعلت القنابل فى الجو ، تعارض الصواعق فى انقضاضها وتضارع الشهب فى إحراقها ، وقد أبدى حضرة محمد افندى حشمت البكباشى ، وأحمد افندى فضلى اليوزباشى ، وبقية ضباط وعساكر الطوبجية تحت حكمدارية الهمام حضرة بدوى بك ، من المهارة ودقة الضرب ، ما غطى وجه أرض الميدان بجثث القتلى من العدو .

وقد شاهدنا عدة قنابل فرقعت فى وسط قولات العدو ، فتركت مئات من رجاله صرعى لا روح فيهم ثم وجهت مدافعنا إلى القولات الشرقية ، فأعدمت وأحرقت ، وشتت وبددت ، ووجه بعض المدافع إلى قطورات السكة الحديد ، فكسرت وقتلت ، واستمر الضرب بالمدافع ساعتين ونصفاً ، وعساكر البيادة والسوارى والعربان تتقدم تحت حماية نيراننا ، حتى صارت على قرب ستمائة متر من العدو ، وأطلقت عليه نوبة بلوك إتش ، وأتبعتها بنوبة إتش ، فتقهقر العدو منهزماً ، وكان يود أن يجعل قهقرته بانتظام ، ولكن هجمت عليه سوارينا وفرسان العربان فشردته من النخيل ، وتبعته تضرب بالنار وتذبح بالسيف ، إلى منتصف الساعة الأولى من الليل ، ومن عهد انتشاب الحرب لم يخرج العدو بقوة كهذه ، فانها كانت مكونة من ١٢ ألفاً بما فيهم آلاى الحرس الملكى وكان الدوق (دكينوت) رابع أنجال الملكة مع توفيق باشا جهة الرمل ، ينظرون بالنظارات ، فلما رأوا عساكرهم تقهقرت وتلفت ، عادوا إلى الإسكندرية بالخيبة والندامة .

وفى هذا اليوم حضر أحد عساكر موسيقى وابور المحروسة ، وأخبرنا أن قتلى العدو يوم السبت ألفاً ومائتان ، وأما قتلى يوم الأحد فإنهـــا مضاعفة ، وستأتينا بأعدادها ، فنكتب إليكم بها . فحق للمصريين أن يفتخروا بإخوانهم

المجاهدين الذين أسسوا لهم دعائم مجد يبنى عليها تاريخ العز والشرف . نصرهم الله (كتب فى ميدان القتال بالملاحة) .

هكذا وجدنا النديم يعنى فى تلك المقالات العاجلة بوصف المعمعة ، وليس فى أسلوبه فى هذا الوصف عناية ما بأكثر من العناية بالألفاظ الفخمة الجزلة ذات الوقع فى الآذان ، والحرص على إيراد المصطلحات الحربية الفنية بألفاظها التركية، ثم العناية بالاقتباس من القرآن وخاصة فى مطالع هذه المقالات ، وقد رأيناه يجعل من الآيات القرآنية عنوانات لهذه المقالات . وهو بعد هذا كله ليس معنياً بالترادف الموسيقى للعبارة ، ولا للتوازن بين الميل من حيث الموسيقى ، ولا بالاستعارات إلا فيما ندر ؛ كما فى استعارته التى شبه بها مراكب الإنجليز بالسمك يحيا فى البحر ويموت فى البر ، هذا من حيث الأسلوب الكتابى ، وأما من حيث الدعاية للحرب فقد رأيناه كعادته يتحرق بذكر أوصاف يضيفها إلى الجيش المصرى ويوهم بها جمهور المصريين بأن جندهم هم الغالبون ونحن نعلم أن الحقيقة كانت غير ذلك غير أننا نذكر له بالثناء قصده إلى ذكر أبطال المصريين ممن اشتركوا فى الدفاع عن بلادهم ضد الإنجليز ، وقد رأينا أنه كان يعنى بذكر كبير الضباط وصغارهم على السواء . ولا ريب أنه كان لمثل هذه الطريقة فى الكتابة ، ولقصد الكاتب فى ذكر أسماء الأبطال ، وقع عظيم فى نفوس هؤلاء الجند ، ورنة فرح فى المعسكر المصرى الذى كان بحاجة شديدة إلى مثل هذا التشجيع .

وكان النديم يضمن جريدته الطائف عنوانات مغرية دائماً ، كما فى قوله (الربح الدائم) ثم يأتى بعد ذلك بالآية تبدأ بقوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، . إلخ) . وهكذا كان النديم يستمد من القرآن الكريم قوة يضيفها إلى كلامه ليجمل بها هذا الكلام .

وبينما كان النديم يكتب هذه الكلمات وهو فى وسط الميدان إذا بصحافى آخر هو حسن الشمسى يكتب خارج الميدان فى صحيفة المفيد مقالات لا شك أنها كانت لسان حال الثورة العرابية ، وأنها عبرت عن كثير من معانى هذه الثورة ، كما

عبرت عن البغض الشديد الذى كان يحسه الثوار ضد الإنجليز .

وهاك نموذجا مما كتبته جريدة المفيد فى عددها الصادر فى ٣٠ يولية سنة ١٨٨٢ بعنوان :

مالنا مع الانجليز :

إلى متى توقظنا الحوادث ونحن رقود ؟ وحتام تدهمنا المصائب ونحن قعود ؟ وكيف ينادينا الوحى لنحميه فيجد آذاننا صماء ؟ أم كيف يشير إلينا الوطن لنحفظه من غوائل الطمع ، فيرى أعيننا عمياء ؟ فما للمدافع لا تتدفق ، وما للنفس لا تزهق ، ومن للأعراض تحميها إذا دخلنا تحت صخور الحين [1] ؟ ومن للوطن يمنعه بحوزته إذا تأخرنا عن نصرته ؟ ما رأينا عرضاً حفظ وصاحبه فى سكرات غفلته .

وما منعت دار ولا عز أهلها   من الناس إلا بالقنا والقنابل

أفهل يسرنا أن ننتظم فى سلك الهند التى فتح الله عليها أبواب العذاب فى الدنيا ! إذ أمسك زمام ملكها قوم لا يرقبون للإنسان إلاً ولا ذمة ، ولا يراعون للتمدن حقاً ولا حرمة ، يحسبون توحشهم تمدنا ، وظلمهم عدلا ، وجورهم إنصافا ! ألا وهم الإنجليز .

قد علمتم ما هى الأمة الهندية من بعد الصيت فى التجارة والصناعة . وطرق آذانكم ما جرى فى وطنهم من الثورة . ولكنهم قوم تبكى عليهم العيون دماً ، وتنفطر لسوء حظهم الأكباد . فإن الأمة الإنجليزية قد مسكت الطريق على ثروتهم ، فاستأثرت بها نفسها ! فترى فى الهند الجم الغفير من التجار الذين تضرب الأمثال بعظم تجارتهم ، ولهم الشهرة العالية فى رواج بضائعهم ، ومع ذلك فإنهم فى بلادهم أفقر من الزاهد البطال ، لأن حكومة الإنجليز فى الهند تمر فى آخر كل يوم ، فتأخذ من صاحب الحان أو الدكان ما عنده من النقود فى البنك ، فإن أراد أن يشترى بضاعة يلزم بحكم القانون الإنجليزى الهندى أن الحكومة تتحقق جيداً من

---

(١) الحين ، الموت .

البضاعة التى يريد مشتراها ، ثم تكتب للتاجر تحويلا على البنك بالنقود فإن كان البائع هندياً بقى المبلغ الذى به التحويل فى البنك باسمه كما يقال وإن كان إنجليزياً قبض الثمن نقداً وهكذا . فأنت ترى أن ثروة أهل الهند بيد الإنجليز ، وليس للأهالى منها حظ ، لأنها محتكرة أموالهم ، وواضعة لها فى سجن البنك تحت استعمالها لها كيف شاءت . فأهل الهند بمنزلة المعتوه ، والحكومة الإنجليزية بمنزلة القيم !! وأما غير التجار وأرباب الصنائع فإن الإنجليز لايستعملونهم إلا فى دنىء الصناعة ، ولا يوظفونهم إلا فى سافل الرتب ، ولكون الحكومة الإنجليزية لا تقدر أن تسوى الهنود بالعدل لعدم قدرتها عليه ، قد ضيقت عليهم أشد الضيق حتى إنها جعلت فى كل حارة قره قولا وعلقت فى كل قره قول سكينا فى سلسلة فمن يرد أن يذبح فرخة أو يقطع لحماً أو يقرم بصلا أو نحو ذلك يأت إلى القره قول، فيذبح أو يقطع أو يفرم هناك ، ولا يمكن أن أحداً منهم يكون له سكين مهما كانت ، ولا يخرج أحدهم من الهند أو يدخل منها إلا بأكبر المضايقات .

هذا حال الهنود من الانجليز الذى التهبت أكبادهم بنار الشره قصد الاستيلاء على مصر — لا بلغهم الله ذلك .

فإن جبنا وتفرقت كلمتنا فى المدافعة عن وطننا وعرضنا ، نالت من هذه الأمة الباغية مناها — أحرقها الله بحسرة الخيبة فى مقاصدها .

فيأيها الإنجليز — ما تريدون منا ؟ زعمتم إن مرادكم إصلاح حالنا ، وأنتم أسوأ الناس حالا . هذه الأمة الأرلندية تندبها الإنسانية ، وتبكيها الرحمة ، ويتلهف عليها العدل ، ويتحسر عليها الإنصاف ، قد روت الأرض بعرق جبينها ، وفلحتها بقوة يديها ففتحت أبواب النصب عليها ولم تكتسب لاسوء معاملتكم ، وعظيم تكبركم ، وبأس تجبركم ، وقد فاضت نفوسهم من عسفكم ، فقاموا لطلب الحرية التى بذلتم جهدكم فى رياء السير فيها للأرقاء ، فتركتم خروقكم مفتوحة وأتيتم إلينا مدعين السلم ، ومنادين الأمن وأنتم أحرب من الحرب ، وأخين (١) من الخيانة . وقد هددتمونا وزعمتم أننا نهددكم .

(١) الصواب أخون ، لأن الفعل خان يخون .

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم ... وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا
الله يعلم أنا لا نحبكم ... ولا نلومكم ألا تحبونا

أطبقوا فم الشره عن مصرنا . فإنها باب الحرمين اللذين يبيع كل مسلم روحه فى المدافعة عنهما ، سيما وأن مصر تابعة لدولة لها ذكر عال بين الدول المعظمة . فلا يمكن أن تدعكم وشأنكم هذا . وأيضاً كل مسلم لايترك لكم الميدان فسيحاً تجولون فيه كيف شئتم ، وهذه الأمة المصرية قد خنتموها ، وأطلقتم كل خيانتكم على طوابيها ، ومدنيتكم على غرة منهم حيث سودتم وجه التمدن بالغش ، فقلتم إنا قوم مسالمون . وكان فى ظنكم أنكم تسوقون المصريين بمدافعكم وتهدمون الإسكندرية وطوابيها فى مسافة أقل من الساعة . فها هى كللكم قد استمر إطلاقها فوق العشر ساعات . ومع ذلك فقد نزل على رؤوس مراكبكم القضاء ، وما استطعتم ولن تستطيعوا أن تبرزوا أمام المصريين فى البر . فما أنتم إلا مثل السمك إن قدرتم على خيانة الإنسان فى الماء تنهشون لحمه ، فلا تطول حياتكم فى محاربة البر .

ومع ذلك فإن لكم منا أعوانا اتخذوكم أولياء ، وإنا ولينا الله ، فنعم المولى ونعم النصير . وحاشا لله أن يكون أعوانكم منا ، وإنما هم أناس ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، قاتلهم الله أنىّ يؤفكون .

هذا نموذج من كلام صحف الثورة العرابية خارج ميدان الحرب . فانظر إلى قوة هذا النموذج فى أوله كيف صاغه الكاتب صياغة حسنة من حيث الموسيقى ومن حيث المعنى فى وقت معاً ، فقد بدأ بقوله :

إلى متى توقظنا الحوادث ونحن رقود ؟ وحتام تدهمنا المصائب ونحن قعود ؟ وكيف ينادينا العرض لنحميه ؟ فيجد آذاننا صماء ؟ أم كيف يشير إلينا الوطن لنحفظه من غوائل الطمع ، فيرى عيننا عمياء ؟ . . الخ .

وهكذا مضى المحرر فى مثل هذه العبارات المثيرة يحرك فيها مكان الحمية من قلوب المصريين ، ويحمس فيها الهمم لقتال الإنجليز . ثم لم يقف صنيعة

عند هذا الحد حتى أخذ يزرع فى قلوب المصريين هذه الكراهية المرة والبغض الشديد للانجليز ، ويفضح نواياهم الاستعمارية ، ويكشف عن أطماعهم السياسية ، ثم انظر كيف سلك المحرر سبيله إلى تخويف المصريين من حكم الإنجليز ، وكيف ضرب لهم مثلا واضحاً بالهند ، وكيف صور هذه البلاد بصورة المعتوه لا يملك تصرفا فى ماله ولا فى نفسه ، وإنما يتصرف فيهما غيره وهم الإنجليز .

ثم ضرب لهم مثلا بالأمة الإيرلندية وكيف خدعهم الإنجليز عن أنفسهم وكيف حرموا هذا الشعب من حريته ، وتظاهروا بالدفاع عن هذه الحرية .

وأخيراً يبلغ محرر المفيد غايته فى إثارة بغض المصريين للانجليز بقوله ممثلا بهذا الشعر :

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم　　وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا
الله يعلم أنا لا نحبكم　　ولا نلومكم ألا تحبونا

الفصل العاشر

جريدة الأستاذ

عفا الخديو عباس حلمى الثانى عن السيد عبدالله النديم . فعاد إلى مصر وآلى على نفسه الدفاع عن الخديو الذى منّ عليه ، ونفذ إلى الميدان السياسى من هذه الثغرة ، وصال فى هذا الميدان وجال ، مدافعاً عن الحركة الوطنية حيناً ، ومهاجماً الاحتلال الإنجليزى حيناً آخر . وكان غرضاً من أغراض هذه الصحيفة . ومن أجله كانت (جريدة الأستاذ) معرضاً كبيراً للأشعار التى مدح بها عباس الثانى ووزيره رياض ، فلم تكن تمر فرصة عيد جلوس أو عيد ميلاد أو عيد أضحى أخ إلا وجريدة الأستاذ تنشر القصائد الطويلة فى مدح أمير البلاد والثنــاء عليه والدعاء له .

الخديوى عباس حلمى الثانى

على أن هذا الغرض السياسى لم يكن أول أغراض (الأستاذ) بل كان غرضاً ثانوياً بالقياس إلى أهداف الجريدة الأساسية .

وهذه الأهداف هى : —

أولا — الإصلاح الاجتماعى .

ثانياً — إصلاح التربية والتعليم .

ثالثاً — الدفاع عن الشرق ضد أوهام الغرب .

رابعاً — الحملة على المبشرين المسيحيين .

ولا ننسى أن نقول إن النديم أتم فى مجلة الأستاذ ما بدأه فى مجلة التنكيت والتبكيت من العناية بأمر اللغة العربية باعتبار أنها اللغة القومية ، فدعا إلى احترام هذه المادة فى مناهج الدراسة ، بل دعا إلى المساواة بين مدرس اللغة العربية ومدرسى المواد الأخرى .

ونشر فى مجلة الأستاذ ، مقالا لبعض المدرسين كتبه بعنوان (المساواة بين البنين)[1] وجه فيه الحديث إلى نظارة المعارف وشبهها بالأب الكبير لجميع المعلمين وهذه الأبوة تفرض عليها المساواة بين الأبناء . وإلا فقد بذرت فى قلوبهم بذور الحقد والشقاق ، قال الكاتب « . . . ، فإن قال هأنا الذى قام بحقوق البنوة وقدّرها حق قدرها ، فما علىّ إلا أن أقدم له (نجله العربى) يئن بصوت حزين متمثلا بقول القائل :

وإذا تكون كريهة أدعى لها　　　وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

. . . . يا أبت — أنا يوسف وأنت يعقوب — فلا تكترث بالمفسدين ، ولا يهولنك زخرفة المبطلين . فإنهم أعداء لك ولأبنائك ، ويريدون أن ينزغ الشيطان بينك وبينهم ، فتلاف بعزمك مكرهم ، ورد عليهم كيدهم فى نحرهم لتكون أنت وأبناؤك ممن وصلت سهامهم إلى أغراضهم فبلغوا غاية آمالهم .

فعلق النديم على هذا المقال بقوله :

(الأستاذ) يا يوسف أنت فى غيابة الجب ، وقد تسلى عنك يعقوب بيهودا وشمعون وروبيل وبقية الأخوة الذين يغدون ويروحون أمامه ، فانتظر بعض السيارة يلتقطك ، لعلك تنال العيش فى صورة العبودية ، حتى ينتهى دور الاسترقاق ، ويعطف عليك الأمير العزيز لما يراه فيك من الأهلية إذ ذاك تقول : اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ أمين ! !

وعاد النديم يدافع عن اللغة العربية فى مقال له كبير بجريدة الأستاذ بعنوان

---

(١) مجلة الأستاذ العدد الخامس والعشرون بتاريخ ٧ فبراير سنة ١٨٩٣ .

(مجتمع اللغة العربية بمصر) (١) ذهب فيه إلى أن العربية تتسع لكل معنى وتؤدى كل غرض ، وناقش الكلمات التى أقر المجمع استعمالها ، فوافق على بعضها ولم يوافق على الآخر .

وما دمنا نتحدث عن إنصاف اللغة العربية ومدرس اللغة العربية ، فلنصف بإجمال جهود النديم فى إصلاح التربية والتعليم ، من ذلك أنه فسح صدر جريدته لبحوث القائمين بشئون التعليم من أمثال على باشا مبارك ، فتركه يتحدث عن التعليم فى بروسيا وبقية الدول الأوربية وتعرض صورة دقيقة من التربية فى تلك البلاد وإحصاء أدق عن عدد المدارس والتلاميذ والكتب والحصص والمناهج وما إلى ذلك كله .

وكتب النديم بنفسه بحوثا أخرى فى التعليم بالأزهر والتعليم بمدارس الحكومة ، وكانت هذه البحوث أشبه بلوائح تعليمية كتلك التى وضعها الأستاذ الإمام محمد عبده .

وفى مقالة عن الأزهر بعنوان (العلماء والتعليم(٢)) وهى مقالة طويلة ملأت أكثر من ست عشرة صحيفة من صفحات مجلة الأستاذ وصف النديم طريقة التعليم بالأزهر وصفاً يمتاز بالدقة ومطابقة الواقع ، وقدم فى إصلاح الأزهر أربعة وعشرين اقتراحا قيما ، عمله بها ولاة الأمر ولم يزالوا يعملون بها إلى اليوم .

أما التعليم بالمدارس الحكومية والمدارس التابعة للجمعيات ، فكتب عنه النديم بعض مقالات كان يعمم القول فيها حيناً ويخصصه حيناً ، ومن المقالات التى عمم فيها واحدة له بعنوان :

تربية الأبناء :

عرض فيها الكاتب لطرائق التعليم عند الأوربيين ، فإنهم الآن محل الاختراع ومرجع الترتيب ، فالحسن ما حسنوه والقبيح ما قبحوه ، والرواية إن لم تنته إليهم

---

(١) الأستاذ بتاريخ ٧ مارس سنة ١٨٩٣ .

(٢) مجلة الأستاذ العدد ٢٦ بتاريخ ١٤ فبراير سنة ١٨٩٣ .

فهى باطلة ، والنسبة إذا لم تتصل بهم فهى عاطلة . وهذا الذى لزمنا العدول عن البحث فى طرق تعليم الشرقيين إلى النظر فى طرقهم[١] .

وأبان النديم فى هذه المقالة كيف يحافظ التلاميذ على دينهم ولغتهم وتقاليدهم، وكيف يمجدون عظماءهم ، ويقدسون ملوكهم ، ويحفظون تاريخهم ، وهذه التربية هى التى رفعت ممالك أوربا إلى أوج السعادة والرفعة ، وانتهت بأممها إلى سنام الملك .

وعجب النديم فى هذه المقالة كيف أن العلماء فى الشرق بعيدون كل البعد عن الاشتغال بالسياسة ، وكيف أنهم قصروا أنفسهم على العلوم الدينية ، « فإذا عرض عليهم أمر سياسى أحجموا عن الخوض فيه لجهل طرقه ، وإن تكلموا فيه بالجرأة كان الخطأ أكثر من الصواب لعدم اشتغالهم بمثله ، ولهذا أهملهم الأمراء فى المجامع السياسية ، وأخذوا بآراء من هم دونهم فى الرتبة العلمية » .

كما دعا النديم فى مقاله هذا إلى الإكثار من الجمعيات على نحو ما يفعل القوم فى أوروبا، فماذا على أغنياء الشرق لو عقدوا الجمعيات الخيرية تحت حماية دولتهم ، وفتحوا بها المدارس الوطنية ، وعلموا فيها هذه المبادىء تقليداً لأوروبا ، وساعدتهم الحكومة بحفظ مشروعهم من السقوط الخ » .

على أنه من أجل التربية والتعليم كان النديم يبذل جهداً من نوع آخر وهو التمثيل — من ذلك أنه ألف رواية باسم (الوطن) الغرض منها الحث على التعاون على إنشاء المدارس العلمية والصناعية .

والخلاصة أن عناية النديم بشئون التربية والتعليم ، وتحمسه لهذه الأمور لا يقاس به إلا تحمس أديب إسحق للاصلاح النيابى فى مصر ، ولا فرق بينهما فى ذلك سوى أن أديب إسحق كان أكثر مرارة ، وأدنى إلى السخرية واللذع فى حين أن النديم كان فى مقالاته الجدية لا يصطنع السخرية ولا يميل إلى العنف .

* * *

---

(١) سلافة النديم جـ ٢ ص ١٠٤ .

أما الإصلاح الاجتماعي فقد كان الغرض الأول من أغراض النديم في مجلة الأستاذ . ولذلك كتب فيه كثيراً بحيث لا يكاد عدد من أعداد هذه المجلة يخلو من بحث اجتماعي أو نقد خلقي . أو قصة لها هذا المغزى ، أو حوار له هذه الغاية .

فرة يكتب مقالا في محاربة الخرافات، وأخرى يكتب مقالا في انتقاد بعض العادات ، وفي ثالثة يبحث في موضوع الطرق الصوفية التي تهافت عليها المصريون ، وكانت جزءاً من حياتهم لا تستقيم الحياة نفسها بدونه .

والقارىء لجميع هذه المقالات يقع في روعه أن المصريين كانوا في تدهور خلقي في القرن الماضي ، وأنهم كانوا إلى جانب ذلك مصابين بالجهل الذي حال بينهم وبين فهم الطرق الصوفية على الوجه الصحيح ، فاضطر السيد عبد الله النديم إلى كتابة البحوث الضافية في هذا الموضوع الأخير ولم يسلك في ذلك طريق السخرية والتهكم كما كان يفعل أديب إسحق ، أو كما كان يفعل الأستاذ الإمام في بعض الأوقات (١) .

قال محرر الأستاذ :

« وليس القصد إبطال الطرق نفسها فإنها من أحسن طرق التعليم الديني ، والتربية الأدبية ، فإن الشيخ عندما يلقن المريد لا إله إلا الله محمد رسول الله يشرح له معناه ، فيبين له صفات الله تعالى ، وما يجب له وما يستحيل عليه .

وكذلك تجمعهم في الموالد ، فإنه مظهر ديني لم يتفق لغير المسلمين .

وفي مقال آخر بعنوان (الطرق وإصلاحها) استعرض النديم أقوال أصحاب الطرق أنفسهم ليبين للناس أنهم بعيدون عن الخرافات التي رموهم بها . فأورد كلمة (سيدي أحمد الرفاعي) حيث قال : طريقتنا الكتاب والسنة ، وكلمة (أبي بكر الشبلي) حيث قال : المحبة اتباع أوامر المحبوب واجتناب نواهيه . وكلمة (أبي القاسم السنوسي) : هذا طريق مبني على الغيرة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكلمة (عمرو الزجاجي النيسابوري) من انحرف عن جادة الظاهر فلا باطن له ، وكلمة (جعفر الخواص البغداد) من أخلص لله في المعاملة وطرح حب

(١) اقرأ العدد ٣٤ من السنة الأولى بتاريخ ١١ أبريل سنة ١٨٩٣

الجاه والرفعة والتعالى . . حفظ الله تعالى لسانه من الشطحات وأراحه من الدعاوى الـكاذبة . وهكذا حتى وصل إلى سادة الطرق فى عصره ومنهم (الشيخ الجربى) والسيد البـكرى ثم قال .

« وليـكن فى علم إخواننا المسلمين أن صاحب السماحة السيد البـكرى مستعد لإبطال هذه النحل والبدع . . والأستاذ الفاضل الجربى مستعد كذلك لقبول كل مكاتبة ترد إلى مما يقوله الناس وينسبونه إليه ليظهر البراء منهم » .

وهكذا ملأ هذا البحث خمس عشر صفحة من مجلة (الأستاذ) فدلنا بذلك على أن أهل مصر فى ذلك العصر كانوا بحاجة إلى مثل هذه البحوث المستفيضة لأنهم انحرفوا عن الطريق المستقيم ، ولم يهتدوا فيها إلى الفهم الصحيح . أما أحاديث النديم فى نقد العادات الضارة والأخلاق المعوجة فهى من نوع أحاديثه القديمة فى مجلة التنـكيت والتبكيت تقريباً ، فلا داعى للإتيان بنموذج منها .

* * *

وكان من أهداف جريدة الأستاذ كما قلنا الحملة الشديدة على المبشرين المسيحيين وقد انبثوا فى أوربا وفى الشرق ، واتهموا المسلمين بطائفة من التهم المريضة التى لا أساس لها . والنديم قطعة من العصر الذى عاش فيه وقد كان هذا العصر شديد الحس من ناحية الدين إلى درجة كبيرة . ولهذا وجدنا النديم يتصدى لهؤلاء المبشرين ويصليهم ناراً حامية من ضرباته ويزهق نفوسهم بحملاته وهجماته ويكلف نفسه قراءة كتبهم حتى يتمكن من الرد على ما جاء بها من النزهات والأكاذيب ، والعجيب أنه سلك فى كل ذلك طريق الإقناع والهدوء الذى لم يكن يفارقه إلا فى أحوال قليلة ونادرة .

ومن أبلغ ما كتب النديم فى هذا المعنى مقالته التى نشرها بمجلة الأستاذ تحت عنوان :

هذا عندكم فما مقابله عندنا

بدأ بقوله :

كثيراً ما ترمينا جرائد انجلترا بالتعصب الدينى تشويشاً لأذهان أهلها ، وترويجاً لأفكار سياسييها التى تبعثها المطامع . ولو تأملنا حال المسلمين وقابلنا بين

سكوتهم وعدم تعرضهم لدين غيرهم وبين سعى غيرهم فى تنصيرهم ؛ لرأينا أمراً يذهل العقل كما يحير الأفكار بهذه الدعوى الباطلة فإنا لم نسمع أن مسلماً دخل أوربا لدعوة أهلها للإسلام ، ولاأن جمعية عقد لنشر دين الإسلام بين النصارى ، ولاأن ناساً اجتمعوا للمذاكرة فى كيفية إخراج النصارى من دينهم ، ولكننا نرى ونسمع هذا كله من أوروبا . ومع ذلك يقول عنا ذوو المطامع الملكية إننا متعصبون تعصباً دينياً ، . . الخ .

ثم أتى المحرر بتقرير جمعية التوراه الإنجيلية الإنجليزية عن سنة ١٨٩٣ وفيه أن هذه الجمعية التى أسست سنة ١٩٠٤ بقصد نشر كلمة الله فى الدنيا كلها . وقد صرفت إلى الآن أحد عشر مليونا من الجنيهات فى الترجمة وطبع الكتب ، المقدسة . . . ألخ .

ثم قال النديم . « فهل هذا عمل المتساهلين مع غيرهم ، البعيدين عن التعرض لدين الغير ؟ أما هذا عمل الجادين فى تعميم دينهم ومحو غيره ؟ وهل هؤلاء مع هذا الاجتهاد الغريب غير متعصبين ، والمسلمون مع بعدهم عن هذا كله ، وعدم وجود جمعيات لنشر دينهم كهذه يقال إنهم متعصبون ، سبحانك هذا بهتان عظيم » .

ثم أتى المحرر على فصل من كتاب مبشر يدعى (يوحنا هورى الألمانى) سماه (الإسلام وتأثيره فى تابعيه) ، وهو إجابة عن هذا السؤال .

ما تأثير الدين الإسلامى فى تابعيه . وما واجبات الأمم النصرانية نحو هذا الدين وتابعيه .

وللاجابة عن هذا السؤال قال المبشر ما ترجمته :

حيث أن الدين الإسلامى دين صحيح وأنه لا تأثير له فى حياة تابعيه الدينية ولا على تقدمهم فى العلوم ، ويستحيل إصلاحه ، فحينئذ يلزمنا أن نضع الدين النصرانى محله » .

ورد النديم من جانبه على ذلك ، وبنى رده على أخبار التاريخ وعلى رغبة فلان وفلان من كبار المسيحيين فى الإسلام ، والشهادة له بأنه الدين القيم .

كما رد المحرر فى هذا المقــــال على دعوى المبشرين بأن المسلمين لا يصلحون ،

ما داموا تحت حكم ملوكهم وسلاطينهم ، وأنهم لا يتقدمون ماداموا لا يتعصبون لدينهم ضد مواطنيهم من الأقباط والنصارى ، كما يتعصب المسيحيون فى أوربا ، إلى أن قال « فمن قرأ هذا الفصل ، وعلم سعى الجمعيات فى نشر دينها ، واجتهادها فى تنصير المسلمين خصوصاً ، والعالم عموما ، رأى الفرق بين لطف الشرقيين ، وخشونة قسوس الغربيين ، ولو كتب مسلم مثل هذا لقامت على المسلمين قيامة أوربا ، وقالوا هذا دعاء للحرب الدينية ، وتعرض للدين المسيحى ، وسحبوا قناصلهم ونادوا بين أتباعهم المقيمين فى الشرق بالرحيل . بدعوى فقد الأمن العام ، وتوحش المسلمين ، فنحن نسأل من ملأوا أعمدة (التيمس) وغيرها عن نسبة التعصب إلى المصريين خصوصاً ، والمسلمين عموماً ، هل رأوا المسلمين اجتمعوا لتغيير دين النصارى ليكونوا معهم ؟ أو تعرضوا لمسيحى بالمجادلة والمناظرة ؟ أو طعنوا فى دين غيرهم وقالوا إن دين النصارى أو دين غيرهم غير صحيح ، فلزم أن يمحى كما قال يوحنا ؟ . تالله إنهم لايجدون لهذا السؤال جوابا سوى قولهم : إننا مفترون عليكم . انهيج أفكار أوربا ضدكم ، فيحل لنا مايحرمه الهدوء والسكون . . . إن كل مسلم ممنوع من التعصب بقول الله تعالى « لا إكراه فى الدين » وإذا قابل المخالفين له هش وبش وقال : « لكم دينكم ولى دين » فإن عارضه متعصب أجنبى ذكر له أعمال الجمعيات البروتستانتية وغيرها ، وقال له : هذا عندكم فما مقابله عندنا ، وملأ هذا المقال أكثر من خمس عشرة صفحة ، من مجلة الأستاذ .

هكذا كان النديم ليناً فى محاربة المبشرين المسيحيين ، بحيث لم يؤذ نفوس الأقباط المصريين ، بل أنه كان من دعاة الوحدة والارتباط بين المسلمين والأقباط إلى درجة أنه اقترح أن تعقد جمعية مصرية موضوعها البحث فى الوطن وخصائصه وواجباته ومقومات حياته ، وذلك فى مقال جميل بعنوان : (المسلمون والأقباط[1]) .

ولم يسبقه أحد إلى هذه الفكرة الوطنية البحتة .

---

(١) مجلة الأستاذ — السنة الأولى — العدد ٣١ بتاريخ ٢١ مارس سنة ١٨٩٣ .

الفصل الحادى عشر

قضية الشرق والغرب فى صحيفة الأستاذ

بقى أن نتحدث عن غرض آخر من أغراض مجلة الأستاذ ، وهو الدفاع عن الشرق ضد أوهام الغرب واستنهاض الشرق نفسه ليستيقظ من نومه ويلحق بالغرب الذى سبقه أشواطا بعيدة فى الحضارة والتقدم . وهنا نجد أن النديم يجود أسلوبه ، وتشيع فيه الحماسة ، ويبث فيه الحركة ، ويشعر القارىء بأنه مصارع قوى إنما قذف بنفسه فى ميدان كله أبطال أقوياء ، وصمم فى نفسه مع ذلك أن يخرج منصوراً من المعركة .

إلى هنا نجد المحرر يلبس ثوب الخطيب . ويتدفق فى كلامه تدفقاً يناسب الخطابة أكثر مما يناسب الصحافة . وإن كانت الصحافة ذاتها تؤثر الأسلوب الخطابى فى أكثر الأحيان .

على أن النديم لم تذهب به حماسته بعيداً عن هذا المضمار . لأنه إنما يكتب فى مجلة الأستاذ ، وهذه المجلة الأخيرة إنما تشهد كهولة النديم ، كما تشهد هدوءه عقب حوادث الثورة العرابية . وعقب اختفائه نحو عشر سنوات ، وعقب استقرار الأمور فى مصر استقراراً نسبياً على كل حال ، لذلك نراه ينجح فى هذه المقالات الجانحة إلى السلم ، ويدعو إلى المحبة والوئام فنراه يقول فى مقال له بعنوان :

حرب الأقلام بجيوش الأوهام (١)

فلو ترك الشرقيون والأوروبيون لتمتع الفريقان بثمرة المخالطة ، وتمكنت منهما دواعى المحبة ، وتأكدت روابط الألفة بالاشتراك فى المعاملة والمساكنة . وما أوغر الصدور وأفسد النيات إلا هؤلاء الكتاب الذين قبحوا الشرق

---

(١) العدد ٣٤ السنة الأولى ١١ أبريل سنة ١٨٩٣ .

والغرب وافتروا عليه الأكاذيب . وملئوا بها جرائدهم وكتبهم ، ونشروها بين العالمين الشرقي والغربي ، فظن الغربي أن الشرقي بهيم لا يصلح للملك ، ولا يليق إلا للاستعباد والقهر ، ظن الشرقي أن الغربي عدوه الألد الساعي في سب سلطته ، ونهب ثروته ، وإعدام دينه واستعباد إخوانه ، فوقعت النفرة بهذه المفتريات وختم المقال بقوله :

فنحذر إخواننا الشرقيين من مقاربة المضلين ومخالطتهم . ونطلب منهم أن يقرأوا عواقب ما هم فيه من الشدة ، وينظروا إلى المستقبل بعين البصراء الذين لا تزعزعهم العواصف ، ولا تستميلهم الأباطيل ، وأن يجملوا معاملة الأجنبي بالمعروف ومخالطته بالمثل نصب أعينهم ، مع التزام الهدوء ، والسكون ، وعدم الميل إلى الأوهام وما ينصبه الأعداء من إشراك الهيجان والاضطراب . فإنهم إن لزموا هذه الحالة قاوموا كل تهديد ووعيد ، وأظهروا لأوربا أنهم بقصدهم وحسن تصرفهم في الأمور قد قاوموا بقوة مدنيتهم (حرب الأقلام بجيوش الأوهام) .

وليأذن لنا القارىء أن ننقل له نموذجا كاملا من مقالات النديم في هذا الغرض الأخير من أغراضه في مجلة الأستاذ ، وليكن مقالا له بعنوان :

لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا

هي كلمة أوروبا التي ترددها على أسماع الشرقيين كلما فعلت فعلا يحملها عليه الاستعمار الملكي ، أو الانتشار الديني ، وقد أحكمت التأليف بين القوتين الدينية والملكية ، فجعلت الأولى سفير وداد والثانية فارس جلاد وقد أضاف كل ملك أوربي إلى عنوان الملك حماية الدين ، فيقول في مخاطباته ملك أو إمبراطور كذا وحامي الدين المسيحي ، أو عبارة أشد وقعاً في النفوس من هذه . لعلم الأمم أنه القابض على زمامي السياسة والدين ، فيؤيد رجال السياسة بتنفيذ ما يرونه من لوازم تأييد الملك وأتباعه ، ويساعد رجال الدين بما يبعث فيهم الغيرة على بثه والدعوة إليه ، فترى رجال القوى ماشين على نسق واحـــد ، كل فيما فوض إليه ، لا تفتر لهم همة ، ولا ترقد لهم عين عن وظائفهم التي فيها حياة الدين والملك وزيادة شرف الأمم . والأمم لكونهم أدركوا ما قصده الملوك ورجال السياسة وخدمة

الدين اندفعوا معهم اندفاع السيل فى المنحدرات ، فعقدوا الجمعيات الدينية والعلمية والصناعية والتجارية والزراعية والسياسية وأخذ كل فريق فى إحسان ما كلف به نفسه وأوجبه عليه مجاراة جاره فى الملك ، ومباراة نظيره فى العلم أو العمل ، ومسابقة غيره ممن قصدوا قصده . فاشتغلوا بما اشتغل به . وقد بلغوا القصد فى بلادهم ، وخرجوا من بلادهم محمولين على قوتى الدين والملك ، سائرين على نور العلم والصناعة ، فدخلوا الأقطار الشرقية سائحين ومتجرين واستوطنوها مراقبين ومتغلبين ، وجرائدهم الكثيرة العدد برزت تتسابق فى ميادين الإنشاء بمواضيع مبتكرة ومقالات مطولة وعبارات مزينة ، فأصبحت ناقلة للأخبار ناشرة للآداب معلمة العلوم مؤيدة للمبادىء حاثة على المقاصد منشطة للهمم مرشدة للأمم منبهة على الأغاليط محذرة من التقاعد والتكاسل والغفلة عن وثبة الجار أو مماكسة المتاخم ناشرة للفضائل مؤرخة لرجال الفضل والعمل حافظة لسير الملوك داعية أفراد الأمم إلى ما فيه خير البلاد وتأييد الدين خادعة للشرقيين لاعبة بأفكار رجالهم خاتلة لعظمائهم مقبحة لما هم عليه من دين وسير ومعيشة واتباع وصناعة وتجارة وزراعة منادية بينهم بأن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل لا حياة للأمم إلا بما تأخذه عنه ولا مجد لمن لم ينتم إليه ، ولا فضل لمن لم يتعلم فيه ، ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه ويتعبد بعبادته ويتقيد بعادته هذه كليات تحتاج لبيان جزئياتها التى لا تحتاج لبرهان بعد ظهورها للعيان .

قالت أوروبا إنكم متوحشون لكونكم لا تحسنون صنع الأثاث واللباس وأنكم فى حاجة إلى مصنوعنا ولا تصلون إليه إلا بعقد المعاهدات التجارية وبذا تمكنت من إدخال مصنوعها فى الشرق ، لتحول الثروة إليها فأماتت ما كان يصنعه الشرقيون ، وحجرت على ما لابد منه من صناعة الشرق الهندية وغيرها ، فما يصنع فى الهند والصين والعجم والأناضول وغيره إنما ينفق ويباع على يد الأوروبى كما يباع وينفق مصنوع بلاده ، فالشرقيون أجراء يزرعون ويحصدون ويصنعون ليروجوا تجارة أوروبا ، ويعظموا ثروتها ويؤيدوا قوتها الملكية بالإيرادات المالية فلاحظ لهم فى الوجود ولا رغبة لهم فى الملك . كأنهم أمام أوروبا جنس خلق لخدمتها لقاعدهم عن مجاراة أهلها ومما زادهم بعداً عن الصناعة وثمراتها وجود دخلاء أجراء يزعمون أنهم نصحاء يثبطون الهمم ويرمونهم بالضعف ، ويوهمونهم بعدم صلاح

بلادهم الصناعة ويغرونهم بتعذر ذلك لتعذر المعدات والآلات وهم يعلمون أن كثيراً من الممالك التى لا آلات فيها استعانت بآلات اشترتها من الغير وأحيت صناعتها الوطنية وحتمت على أهلها شراءها لرواج صانعيها ومنعت دخول مصنوع الغير حفظاً لثروة أهلها فهم بصرفهم الهمم بهذه الترهات يريدون بقاء الشرق فى قبضة الغربى احتياجاً إليه وترك الشرق ميداناً لمسابقة رجال أوروبا فلا يجدون مصنوعا يعطل عليهم ولا معرضاً عن صناعتهم فنبور . وضعفاء العقول يغترون بخداع هذا الدخيل ، ويظنون أنه من المخلصين ، فلا يتحركون لعمل من الأعمال لوقوعهم فى اليأس والقنوط بالمفتريات ، ورجال أوروبا تتعجب من تقاعدهم وتقول لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا .

قالت أوروبا إن وقوفكم عند عاداتكم الشرقية وتخلقكم بأخلاق آبائكم بقاء على الهمجية والتوحش فلابد من مجاراتنا فى حركاتنا المدنية لتساوونا فى الرتبة وفتحت لنا البير والخمارات والمقامر وأباحت الزنا والربا ووسعت دائرة اللهو والخسران فغفل الشرقيون عما وراء ذلك ضياع الدين والملك والمجد والشرف وانكب الأغبياء والمغفلون على الخمور فساءت أخلاقهم وضعفت عقولهم وفسدت عقائدهم وتحولوا إلى المومسات ، فارتكبوا الإثم بارتكاب المحرم ، والعار باتخاذهم الوطنية آلة للفحش . وجعلهم عرضة للأجنبى بعدم غيرتهم عليها ، فهم فى رتبة القواد بل هم هم ، ومال فريق إلى القمار ، فباع الغيط والدار ، واضطر لبيع حلى زوجته برضاها أو بسرقته منها والكل عطف على المرابين يقترض ويصرف فى الملاهى ومتلفات العقل والجسم والملك حتى أسكن الأوربى مكانه وصار له خادما بعد أن كان عظيما محترما ، وكلما تهالك الشرقيون على الخمور والملاهى واصلت أوربا رسائل الخمر ، وارتحل إليهم المومسات وأرباب الملاهى ، تحويلا للثروة وإزهاقاً لروح الدين حتى أصبح المتلبسون بهذه القبائح والفضائح لا شرقيين ولا غربيين ، واتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق ؛ وهى تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية وما هى إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة ، إذ لو كان الانغماس فى الملاهى ومفسدات العقل والدين من المدنية لما تحاشته أوربا وعدت مرتكبه همجيا جاهلا ومجنونا ولما وضعت القوانين الشديدة

للمسكرات ومنع التلامذة منها ولما كتبت الرسائل العديدة فى ذم الخمر والفسوق وحرمان ضعفاء العقيدة والمتقاعدين على العبادة وحضور الكنائس وإنما هذه أشراك وفخاخ تنصب فى طريق الشرقى حتى لا يخطىء خطوة إلا وقد وقع فى حبالة أوربا ولما رأت أوربا أن الشرقيين لا ينتبهون من غفلتهم ولا يعقلون مقاصد الدول ، ولا يدركون مكايد الملوك ، ولا يسعون فى صالح بلادهم ، ولا يحافظون على دينهم ، ولا يعرفون شرف لغاتهم ، ولا يحفظون كراسى ملوكهم ، ولا يهمهم ضياع أوطانهم اتخذتهم كرة تلعب بهم كيف تشاء ، وهى تقول لهم لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا .

قالت أوربا أن الشرق فى حاجة لتداخل أوربا لإصلاح إدارته وماليته وتجارته وتهذيب أممه بالتعاليم الأوربية وأجمع رجال أوربا على جعله قسما مقابلا لها وربطوا عزمهم على ضمه إليهم الجزء بعد الجزء والقطعة بعد القطعة على اتفاق معقود بين الدول ، هذا لى وهذا لك ، ثم تلووا فى الدخول فيه تلوى الأفعى ، وملكوا بعضه بالتجارة والبذل ، وبعضه بدعوى مسحق دولة . أو إهانة بواب قنصل أو حفظا لطريق مملكة والداهية الدهياء أن ملوك الشرق وعظماءه ملئوا قلوب أممهم بأوهام ، وخوفوهم من الأوربى ، وأرهبوهم باسم اللورد والبارون والكونت والمركيز والجنرال والأميرال والسير والماجور ، حتى خيلوا لهم أن الأوربى ملك يمكنه قلب المملكة ، أو جنىٌ يقدر على حرقها ،فامتلئوا رعبا وخوفا، ولبسوا ثوب ذل وهوان ، وذلك بسبب المعاملة التى يعاملونهم بها فى وقائعهم مع الأوربيين ، وقد اضطروا كثيراً من الوجهاء والنبهاء الذين ينتفع بهم الوطن والملك إلى الاحتماء بالغير تفادياً من تلك المعاملة فكانوا أقوى يد للأوربى فى تداخله واستيلائه على ممالكهم. فلو ربوا رجالهم على الحماسة ومرنوهم على الأعمال، وبعثوا فيهم روح الحمية بالمحافظة على حقوقهم وترقيهم بحسب استعدادهم وساعدوهم على انتشار الصناعة والتجارة ، وهذبوهم بالأدبيات ، وصانوهم من المفاسد العقلية ، وعلموهم العقائد الدينية . وعودوهم على الشعائر الملية ،ونبهوهم بجرائد وطنية صادقة اللهجة صافية النية عارفة بما يقدمهم وينفعهم ، وأوقفوهم على

تواريخ آبائهم ، ومسابقات الدول فى بلادهم ودسائس أوربا ، وخذروهم من رجال الفتن والأجراء الذين يخدمون أوربا باسم المصلحة الشرقية ، لوجدوا أمامهم رجالا وأى رجال ، ولكنهم أهملوا ممالكهم وأهدروا حقوق رعاياهم فأصبح ملوك أوربا يفخرون عليهم ويعيرونهم بما صاروا إليه من الضعف والاضمحلال ويقولون لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا .

ولا لوم على الأوربيين فى ذلك ، فإنهم إنما يسعون فى مصالحهم واتساع ممالكهم وتجارتهم ، والشرقيون يرونهم يعملون للأعمال العظيمة فى بلادهم ، وهم ينظرون إليهم نظر المغشى عليه من الموت ، ولا يتحركون لمجاراتهم أو لإيقاف تيار تداخلهم ، ويرونهم يسلبون أعمال أمرائهم وولاتهم عملا فعملا ، وهم ناكسو الرءوس ، ومنكمشون فى ثيابهم ، تسمع منهم أصواتا عالية فى خلواتهم ، يظنها السامع أصوات أناس حريصين على المجـــد والشرف ، فإذا خرجوا إلى الطرقات ساقهم أضعف أوربى بعصاه ، وهم بين يديه كأنهم قطعان الأغنام تساق إلى الحظائر . بمن نقيس الجزائرى إذا شاركه التونسى والهندى والمصرى والقبرصى والعدنى والمسقطى والزنجبارى والبرنوى والبخارى والمروى والطاغستانى والزكانى والسرخسى وقابله المراكشى والأفغانى برعدة الخائف الوجل ونظر إليه العجمى والعراقى واليمنى والحجازى والنجدى والسورى والطرابلسى والأناضولى نظر المتوجس الحذر الذى تبعثه الهمة ، وتقعده القلة كلما شموا رائحة السلم من دولة جاءهم إنذار الحرب من أخرى سعياً خلف الدين ، لا طلباً لسعة الملك .

فانه لوكانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التى هى جزء منها فى الحقيقة ، ولكن المغايرة الدينية ، وسعى أوربا فى تلاشى الدين الإسلامى أوجب هذا التحامل الذى أخرج كثيراً من ممالك الدولة بالاســـتقلال أو الابتلاع . وإننا نرى كثيراً من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوربا يذمون الدولة العلية ، ويرمونها بالعجز وعدم التبصر ، وسوء الإدارة ، وقسوة الحكام ، ولو أنصفوها لقالوا أنها أعظم الدول ثباتا وأحسنها تبصراً وأقواها عزيمة ، فإنها فى نقطة ينصب إليها تيار أوربا العدوانى ، لأنها دولة

واحدة إسلامية بين ثمانى عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان ، وكثير من اللغات ، والفتن متواصلة من رجال أوربا إلى من يماثلهم مذهباً أو يقرب منهم جنساً ، وكل دولة طامعة فى قطعة تحتلها باسم المحافظة على حدودها ، أو وقاية دينها ، واتساع أراضيها ، وعدم وجود السكك الحديدية المسهلة للنقل والتحول وعدم وجود أنهر مستمرة الفيضان فى غالب أراضيها ووجودها تحت رحمة الله تعالى إن شاء أمطرها فأخصبت ، أو منعها فأجدبت ، وهذه لو ابتليت بها أعظم دولة أوربية ماقاومت هذه الصواعق أكثر من عام أو عامين وتسقط أو تتلاشى ولكنها تلام على إعطاء السكك الحديدية التزاماً للاوربيين بواسطة أناس يزعمون أنهم من رعيتها ظاهراً وهم فرنسيون أو إنكليز باطنا فإن السكك الحديدية بالنسبة إلى المملكة كالشرايين بالنسبة إلى الجسم ، فهى من أعظم العلل التى ستتخذها أوربا وسيلة للتداخل باسم وقاية أملاك أتباعها ومن لنا بكف يد الوزراء عن مثل هذا التهاون ، ويكفى ما جرى وما ذهب منا سدى ، فإن ارتكنا على الشروط فقد ارتكنا على أوهن من العنكبوت ، فإننا لم نقدر على تنفيذ عهدة برلين فيما يختص بنا وقد وقع عليها الدول ، فكيف تنفذ شروطا بيننا وبين رجال جعلتهم الدول ذرائع للتداخل ، ووسائل لأسوء المقاصد . ولقد أذهلتنا أعمال أوربا التى لم تسمح لشرقى بامتلاك شبر فى أرضها ، وهى تخرجنا من مساكننا ، وتقيم فيها بلا شروط معقودة ، ولا حجة مسجلة ، ولكنها معذورة ، فإنها لم تجد من يعارضها أو يجاريها فهى لا تعترف أننا معها فى ثوب الإنسانية بل تقول لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا .

أن دولة من دول أوربا لم تدخل بلداً شرقياً باسم الاستيلاء ، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنيـــة ، وتنادى أول دخولها أنها لا تتعرض الدين ولا للعوائد ، ثم تأخذ فى تغيير الإثنين شيئا فشيئا ، فلا تقدم على العمل بل تفعل الشىء على قبل التجربة ، فإن نفذ فقد مضى ، وإن عورضت فيه التزمت التأويل ، كما فعلت فرنسا فى الجزائر وتونس ، حيث سنت لهم قانونا فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامى ، بل تنسخ مقابلها من أحكامه ، ونشرته فى البلاد ، واتخذت لتنفيذه

فضاة ترضاهم ، ولما لم تجد معارضاً أخذت تحول كثيراً من مواده إلى مواد ينكرها الإسلام توسيعاً لنطاق النسخ الديني ، ولم يلبث أن جاريناه وأخذنا بقانون يشبهه إن لم يكن هو ، ولم يتطح في إصلاح مواده المخالفة عنزان ، ثم تداخلت في الأوقاف واستولت على غلتها ومنعت المستحقين ، وطردت كثيراً من خدمة المساجد اقتصاداً مالياً ، وتخفيفا دينياً ، ثم رفضت ضباط العساكر الوطنيين الكبار واستبدلتهم برجالها خوفا من ثورة يدفعونها بها عن بلادهم ، أو يحمون بها دينهم ، ثم حجرت على المدارس تعليم بعض علوم شرعية ، وألزمتهم بتعليم لغتها ، والأخذ بالطبيعيات والرياضيات ، حتى لا يشم الأبناء رائحة الدين لئلا يعلموا أنهم يغايرونهم دينا ، فيثورون عليهم ، أو يلتجئون إلى دولة أخرى ، وهذه عواقب الالتجاء إلى دول أوربا والاغترار بوعودها الخلبية ، وشروطها المكتوبة بالماء على صفحة الهوا ، وهذه دولة الروسيا دخلت مرو وهراة وبخارى باسم حمايتها من أعدائها ، وبعثت إليها بتجارتها فنفذت ، ثم برجال يساكنون أهلها فضوا ، ثم بعساكر في الحدود فأقاموا ، ثم بشروط تربطها بها فأمضيت ، ثم هي آخذة في تقدم لغتها هناك توصلا لإعدام اللغات التي يموت بموتها الدين وحمية الجنس والغيرة الوطنية ، وهذه إنكلترة دخلت مصر باستدعاء أهلها ، وأخذتهم بناصرها ، بعلة تأييد المركز الخديوى الشريف ، ثم زيد على تلك العلة بث النظام ، ووضع حكومة ثابتة تشابه حكومات أوربا ، وقد بذلت ما في وسعها في التحسين والتنظيم بما يتراءى لها . ولم تجد غير آذان سامعة وأيد عاملة ، ولكننا مع كثرة سماعنا وتعليمها لنا لم نقلدها في شيء مما دخلت لبثه فينا ، بل تركناها تفعل أفعالها ونحن نتفرج عليها ، كأننا في ساحة سياوى يرينا من أعماله العجائب ، ونحن في حيرة من ألعابه المدهشة ، ومن جهل أعمال إنكلترة في مصر بيناها له ليرى أنه حقيق بما يوجه إليها من النكير .

أولا : أطلقت حرية المطبوعات والأفكار ، فرأينا الجرائد الكثيرة تتكلم بما تريد وتتصرف في أفكارها كيف تشاء . هذه تقول أنا وطنية أنادى بأن

خير البلاد وصلاحها موقوف على جعل الأعمال بيد المصريين ، تحوطهم عناية الحضرة الخديوية ، تحت مراقبة بريطانيا العظمى ، حتى إذا رأتهم قاموا بحكومة ثابتة مؤيدة بالقانون الحق النافذ ، وفت وعدها وأجلت جندها ، وتركتهم يتمتعون بحريتهم فى بلادهم ، كما تتمتع البلغار والجبل الأسود والسرب وغيره مما هو أقل من مصر بكثير . والأمة مرتاحة لها وهذه تقول مصلحة البلاد موقوفة على زيادة نفوذ الإنكليز ووضع الإدارات تحت أيديهم بمساعدة النزلاء حتى يتهيأ المصريون لاستلام أعمالهم ؛ لا تبالى رضى عنها المصريون أو غضبوا منها . وهذه تقول إن فرنسا هى الدولة الوحيدة فى المحافظة على مصر ، وحقوق السلطان فيها ، وتأييد الخديوى،ولا يضرها إلا وجود الإنكليز فيها . وهذه مذبذبة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . وهذه علمية تهذب النفوس وهذه تورد لهم من مصادرات الأديان ما يوقعهم فى الشك والتردد ، وهذه دينية وهذه حقوقية وهذه طبية . ثم تركت المصريين يغدون ويروحون بين هذه المتناقضات وهم يتناظرون ويتجادلون ، لا رقيب عليهم ولا جاسوس ، ولما رأت أن كثرة المؤثرات الفكرية لم تنبههم على طلب حقوقهم وظهورهم أمامها بالتظاهرات الأدبية استدلالا على استعدادهم للقيام بأعمال بلادهم وتركت الجرائد تخوض فى المواضيع المضادة وتلعب بالأفكار الجامدة ، ونحن فى بحار اللهو غارقون .

ثانياً : أنها كفت يدها عن الأعمال عند دخولها مصر ، وسلمتها إلى المصريين ظاهراً لتقيم الأدلة لأوربا أنها ما دخلت إلا لتراقب المصريين ، وتشير عليهم بما فيه التوفيق بين مصالحهم ومصالح الدول ، ولما لم تجد أمامها من يجعل هذا الظاهر باطناً بحصر السلطة فى الذات الخديوية الفخيمة . والإدارات فى الوطنيين ، أخذت تقول وهم يفعلون حتى أصبحت تفعل وهم لا ينطقون ، وكانت تتقى باسمهم المطاعن الأوربية ، حتى خلا الجو وأمنت الاعتراض فأخذوا يذمونها ويرمونها بخلف الوعد ونكث العهد وعدم الصدق وطول الباع فى الخداع ، وهم غير محقين ، فإنها ما دخلت إلا لتتمم عملا أمام أوربا ، فلما فوضوا إليها الأعمال استلمتها بهمة ونشاط . ومثلها ومثلهم كمثل لص دخل دار قوم ، وقال

لهم حملوني ما عندكم من أثاث وحلي وآنية ، فأخذوا يحملونه ما يريد من غير معارضة ، فهل إذا دخل عليه البوليس وأهل الدار يحملونه بأيديهم يقول هـذا لص ؟ كلا بل يقول إنه صاحب الدار وهؤلاء خدمه ، أيرون أن الإنكليز هم الذين نشروا منشور المومسات ورخصوا للنساء أن يخرجن للبغاء تحت حماية القانون ، أم هم الذين سنوا كشف الأطباء على البغايا وإعطاءهن شهادات بأنهن صالحات للزنا . فهتكوا حرمة القرآن والإنجيل والتوراة بتحليل ما حرمه الله تعالى فى كل كتاب . أم هل قالوا للمصريين ستنفق ملايين فى المقاولات والأعمال الهندسية من غير أن نسأل عما نفعل فيها ، فإياكم والسؤال عن مبالغ ستكونون عبيداً مكلفين بسدادها إلى روتشلد وغيره أم هم الذين أعطوا الالتزامات الوابورية والأرضية ، ووسعوا نطاق المعاهدات إلى أن ضيقوا كل عمل مصرى؟ أم هم الذين منعوا المصريين من زراعة الدخان والحشيش لتروج مزارع أوربا بخراب بيوت هؤلاء الضعفاء ؟ أم هم الذين باعوا مهماتهم وآلاتهم بغير ثمن ، وربما أعطوا من أخذها شيئاً يستعين به على نقلها حتى تركوا البلاد محتاجة لمن يحرسها بالعصا أو بالنبوت ؟ أم هم الذين أبعدوا المصريين عن الخدمة . وحشروا الغرباء فى المصالح حتى أصبح ألوف من المصريين لا يجدون القوت ولا يعرفون لاستخدامهم مرة ثانية سبيلا ؟ أم هم الذين قللوا من تلامذة المصريين فى مدارسهم وأكثروا من استخدام الأجانب فيها ، وتدرجوا لإماتة لغتهم الوطنية بفرض المكافآت لمن ينبغ فى الإنكليزية لننسى لغة القرآن فينسى بها الدين الواقف عقبة أمام أوربا ، كما يصرحون بذلك فى مجالسهم وأندية شوراهم ؟ لا والله ما نالوا أملا ولا قارفوا عملا ولا أذلوا رجلا ولاخربوا بيتا ولاهتكوا حرمة إلا بالمصريين . ماذا على الإنكليز إذا سعوا فى ربح تجارتهم واستخدام أبنائهم ، ولم يجدوا عائقا ، أيرجعون وهم لهذا مرتحلون ؟ ومن يلومهم إذا وجدوا طريقاً لتوسيع ممالكهم لا خوف فيه ولا عقبات أيتركونه وهم فى جميع بلاد الدنيا طامعون ؟ كانوا يرون أن المصريين إذا رأوا دولة حرة دخلت بلادهم لتأييد خديويهم وإصلاح بلادهم ، وتعريفهم حقوقهم بين الأمم ، تجمعوا حول

أميرهم حاملين كرسى فخامته على رؤوسهم منادين باسمه . قائمين بتنفيذ أوامره محافظين على حقوقه ، مستميتين فى اختصاصهم بأعمالهم ، والقيام بشعائر دينهم ، مجتهدين فى حفظ الأمن وخدمة البلاد ، حافظين لحقوق الأجانب والغرباء النزلاء والمجتازين ، جاعلين محافلهم التى استخدمتها أوربا فى مصالحها محافل وطنية ، تستخدم أوربا مصلحتهم فكانت تساعدهم على هذه الأمور التى تعهدت لأوربا أن تعلمها للمصريين ، وتؤهلهم إليها ، ولكنها رأت غير ماظنت ، فلالوم عليها إذا وضعت قدمها على عمائمنا لتعلو جواد الفخر والخيلاء .

لماذا نتألم من أعمالها وأمراؤنا اقتصروا على القعود فى القصور وركوب العربيات للتفسح فى المنتزهات ، وعقلاؤنا صامتون لا ينطقون بكلمة رجاء أوصوت استصراخ ، وضعفاؤنا حيارى ينتظرون هؤلاء وهم عنهم لاهون ، ونبهاؤنا فى المحافل يتحاورون ويتناظرون ، بما لا يفيد الوطن والملك شيئاً متعللين بأن محافلهم لا تتعرض للسياسة ولا للدين فإذا انصرف النبهاء عن وجهتى السياسة والدين فبمن تقوم الأعمال ويتقوم أود الحكومة ويبقى عمـــود الدين قائماً كبقية الأديان؟ أبا لأخاء الذى ربطناه بين الأجنبى تتخلى عن مرجع المجد وأصل الشرف ؟ وهل تريد أوربا أن تنتصر علينا فى حرب عوان بأكثر من صرف نبهاء البلاد عن النظر فى الملك والدين ، ليخلو لها الجو فتفعل ما تشاء وتغير ما تشاء ؟ مع أن النبهاء يمكنهم أن يستخدموا محافلهم فى مصالح بلادهم فيتمسكنوا بقواهم العقلية مما لا يمكنهم منه سيف ولامدفع من غير إثارة فتنة أو إراقة قطرة دم ، ويصلحون ماأفسده الاغترار والانخداع ويحدثون فى البلاد عصبية وطنية لاتردها أعظم أمة عن مشربها المصرى وسعيها المؤيد بربط القلوب على عزيمة واحدة صادقة .. وما الذى استفاده النبهاء المصريون من الأخلاط والأمشاج ، غير تقدم الغير وتأخرهم واتخاذنا بيت مال لفقرائهم وعجائزهم ؟ دعونا من المجاملة فى الكلام والتستر بما استهجنه العقلاء ، ما ابتدعت المحافل إلا لتصير الممالك دستورية ، وقد بحثت فى ذلك وقلبت كثيراً من ممالك أوربا ، وحيث أننا بين يدى حكومة دستورية فلم لم نؤيدها بعصبية وطنية ونظهر من أعمالنا ما تفتخر به إنكلترة أمام أوربا ؟

والإقبال بتى الأمراء فى البيوت والنبهاء فى المحافل على ماهم عليه ، والعقلاء صامتين ، والضعفاء طائرين حول أوهام الأجنبي وإرهابه ، والخديوى الأعظم ينظر إلى هذه الجموع نظر الأب الرحيم إلى الأبناء العاقين ، فلا نعترض على برابرة أفريقية فضلا عن الإنكليز إذا جاءوا وأخرجونا من مساكننا وأبعدونا عن عائلاتنا وتمتعوا بما نخلفه لهم من عرض ومال ومتاع وعقار مضت والله أيام التقاعد والاغترار بالترهات ، وصرنا بين يدى خديوى يريد أن نجارى الإنكليز فى الأعمال الإصلاحية والمطالبة بحقوقنا الوطنية ونحن عن إرادته السنية ساهون ويجب أن نتقدم فى التجارة والصناعة والزراعة والمعارف ونقبض على أزمة أمورنا ونحفظ عرشه المصرى بالمصريين ولكننا على نظره العالى عمون يتألم من ضياع المصرى والاستخفاف به وتركه فى زوايا الإهمال أكثر من تألم المبعدين ولو أحسسنا بما عنده من الآلام لبتنا لمضاجعنا جافين إن أوربا تنظرنا من بعيد لترى أعمالنا وما نتقلب فيه من الأحوال وما تهدينا إليه إنكلترة مما تؤيد به الخديوى الأفخم كنشورها التداخلى ونحن عن هذا كله لاهون . كفوا أيها المصريون عن القيل والقال ، فقد عيرتنا الأمم بأننا نقول ولا نفعل وأظهروا بين يدى إنكلترة برجال يسرها تجمعهم حول أميرهم الذى جاءت تؤيده ، واطلبوا منه حقوقكم المقدسة واشكروا إنكلترة على ما أوصلتكم إليه من الحرية التى تركتكم تتظاهرون تظاهراً أدبياً طلباً للحقوق وسعياً خلف الحقائق والامتيازات الوطنية ، فإن كل إنكليزى يراكم فى هذا التقاعد وهو يدأب فى عمله الليل والنهار يقول لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » انتهى المقال » .

تحليل المقال :

يمكن أن تتلخص الملاحظات على هذا المقال فيما يلى :

أولا : شغلت المقدمة نحواً من ثلاثين سطراً أو تزيد ، وهو قدر بسيط ومعقول بالنسبة لطول المقال نفسه ، وفى المقدمة شرح ذكر لهذه الكلمة التى جعلها عنوان المقال (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا) ، ثم شرح للسبب الأول من أسباب ذلك .

وهو نشاط الجمعيات الدينية والعلمية والصناعية المنسوبة إلى الأوروبيين وانتشار هذه الجمعيات فى ربوع الشرق .

ثانيا . يبدأ الجزء الأول من صلب المقال بالرد على التهمة الأولى من تهم أوروبا ضد الشرق ، وهى (تهمة التوحش) أو (التأخر) ودعواهم أن الشرقيين عاجزون عن السير فى مضمار الصناعة والعلم ، ويرد الكاتب على ذلك بأن الأوروبيين هم الذين أرادوا ذلك للشرق حتى يصبح مصرفاً لبضائعهم .

ثالثا : يبدأ الجزء الثانى من صلب المقال بالرد على التهمة الثانية ، وهى أن أخلاق الشرق وعقيدته هما من أسباب تأخره . ومع ذلك فقد انخدع الشرقيون بقولهم هذا ، فارتكبوا كثيراً من المحرمات تقليد منهم للأوربيين لا أكثر ولا أقل . .

وفى هذا يقول النديم :

وبذلك أصبح المتلبسون بهذه القبائح والفضائح لا شرقيين ولا غربيين «ص ١٩٠ » « واتخذتم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق الخ »

رابعاً : يبدأ الجزء الثالث من صلب المقال بالرد على التهمة الثالثة وهى (أن الشرق فى حاجة ماسة إلى تدخل الغرب) وهى حجة تذرع بها الغرب لاستعمار الشرق ويوضح كيف أن ملوك الشرق أنفسهم خوفوا الناس من اللورد والبارون والكونت الخ ، ولم يحاولوا ترقية الأمة وتربيتها على الحمية والدفاع عن حقوق البلاد ولم يمدوها بالجرائد النافعة أو المرشدة فى هذا السبيل وأخذ النديم يوازن فى هذه الفقرة بين جسارة الأوروبى وتحريه المصلحة الذاتية له ولبلاده من جهة ، وجبن الشرقى وتخوفه من الخطر الأوروبى من جهة ثانية .

خامساً . وفى الجزء الرابع من صلب المقال ينتقل الكاتب إلى الدفاع عن الدولة العثمانية فيقول « لو كانت هذه الدولة مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر الخ آخر ص ١٩٢ » ولكن المغايرة الدينية دعت إلى إخراج كثير من الممالك التابعة لها عن طاعتها . مع أن الدولة العثمانية لا تألوا جهداً عن العمل على رخاء هذه

الممالك ومد السكك الحديدية . وهنا يلوم الكاتب الدولة العثمانية على إعطـــاء السكك الحديدية التزاماً الأوروبيين الذين وجدوا فى ذلك الالتزام طريقة من طرق التدخل فى أمم الشرق ! ! !

سادساً . عاد النديم فشرح أساليب الأوروبيين فى الاستيلاء على الشرق بدعوى الإصلاح مرة و نشر المدنية مرة أخرى ، كما فعلت فرنسا بتونس والجزائر وسياستها فيهما معروفة . وكما فعلت كل من الروسيا وإنجلتره .

سابعا . وحين وصل النديم إلى إنكلترة أخذ يفضح أعمالها فى مصر وذلك فى شتى المجالات المختلفة . كمجال حرية الصحافة وكيف اتخذت من هذه الظاهرة أداة للتطاحن بين الصحف ، وهى أى إنكلترة تقف كالمتفرجة وكمجال الإدارة الحكومية فقد تظاهر الإنجليز بالكف عن التدخل منها حتى أمنوا الاعتراض ، فتدخلت بشكل ظاهر ، وبرضى من المصريين أنفسهم حكاية اللص) ص ١٩٧ .

وبعد أن ألقى النديم على القارىء أسئلة استنكارية كثيرة تتصل بتشريعات البغاء والتعليم والربا وغير ذلك قال عن الإنكليز « لا والله ما نالوا أملا ، ولا قارفوا عملا ، ولا أذلوا رجلا ، ولا خربوا بيتا ، ولا هتكوا حرمة ، إلا بالمصريين ص ١٩٨ »

ثامنا : وفى الفقرة التى تلت ذلك أخذ يصب اللوم على المصريين لا على الإنجليز . والمصريون أولى بأن يلاموا فى نظره لأسباب كثيرة :

أولا : لأن أمراءهم غارقون فى اللهو والترف .

ثانياً : لأن عقلاءهم متذرعون بالصمت .

ثالثاً : لأن نبهاءهم أو المثقفين منهم لا يتعرضون للدين ولا السياسة .

ثم قال :

« فإن بقى الأمراء فى البيوت والنبهاء فى المحافل على ما هم عليه ، والعقلاء صامتين . فلا يجوز لنا أن نعترض على برابرة إفريقية فضلا عن الإنكليز ص ١٠٩ إذا جاءوا وأخرجونا من مساكننا وأبعدونا عن عائلاتنا الخ » .

تاسعا : يأتى بعد ذلك فقرة كالخاتمة وليست بخاتمة وفيها يدعو المصريين إلى الانضمام إلى رأى الخديوى عباس فى أعماله الإصلاحية والمطالبة بالحقوق الوطنية، والتقدم فى التجارة والصناعة والزراعة والمعارف ، والإدارة وهكذا طفق النديم يستنهض الهمم حتى ختم كلمته بقوله « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » وهى الجملة التى تعود أن يختم بها كل فقرة من الفقرات التى تألف منها المقال .

عاشراً : ويلاحظ أن النديم كان فى الجزء الأخير من هذه المقالة يضم الإنجليز إلى جناب الخديوى فى الدعوة إلى الإصلاح والمطالبة بالحقوق والعمل على تقدم التجارة والصناعة والزراعة وقد يدل ذلك على أن المقال إنما كتب فى عهد من عهود الوفاق بين السلطتين الشرعية والفعلية فليرجع إلى هذا المقال بجريدة الأستاذ للتحقق من تاريخ صدوره بالجريدة .

حادى عشر : والمقال يسرف فى الطول حتى أنه ليملأ عدداً كاملا من أعداد جريدة الأستاذ (١) ويذكرنا ذلك بما فعلته المقالة الصحفية فى إنجلترة فى بعض أطوارها يوم كانت الحكومة تفرض الضرائب على الأخبـــار ولا تفرضها على المقالات الخ .

ثانى عشر : اعتمد الكاتب فيها على الإسهاب وطول النفس فى العبارة حتى أن الجملة الواحدة لتستغرق أكثر من إثنى عشر سطراً . اقرأ قوله (فدخلوا الأقطار الشرقية . . بعد ظهورها للعيان — ص ١٨٨) .

ثالث عشر : توخى النديم فى كثير من مواضع المقال أن تنتهى كل فقرة من فقراته كما قلنا بالعبارة التى صاغ فيها العنوان (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا) .

وهذا يذكرنا بالطريقة التى اتبعها خطباء الرومان حين كانوا يتحرون مثل ذلك فى خطبهم .

---

(١) هذا الذى نشرناه من كلام النديم إنما هو نصف المقال الذى نشره بجريدة الأستـاذ فيلاحظ ذلك . ومعناه أن المقالة الأصلية تبلغ نحواً من ثلاثين صفحة من صفحات هذا الكتاب وهو قدر أشبه بفصل من فصول كـتاب لامقال أو عمود فى صحيفة من الصحف مهما كان لونها.

رابع عشر : لغة المقال قريبة فى مجموعها من لغة الحديث الراقى أى من لغة الصحافة . والنديم بمثل هذا المقال يعتبر فى منزلة بين منزلتين : الأولى منزلة أديب إسحق وإبراهيم المويلحى وأمثالهما ممن كانوا يسعون وراء التأنق فى الأسلوب الأدبى حتى بلغوا به الذروة ، والثانية منزلة على يوسف ولطفى السيد ممن كانوا يكتبون بلغة الصحافة لا لغة الأدب الصرف . وكأن النديم كان فى الحقيقة إرهاصاً حقيقياً لظهور المدرسة الثالثة من مدارس المقال الصحفى فى مصر .

خامس عشر : فى المقال بعض ألفاظ من ألفاظ البيئة الإسكندرية البحتة مثل لفظ « بير » جمع بيرة ، ويطلق على الأماكن التى تبيع هذا النوع .

ولكن هاهو محرر (الأستاذ) تضطره ظروف صحية ، أو على الأصح سياسية ، إلى مغادرة مصر ، وإلى مفارقة الصحيفة التى أدلى فيها بدلائه ، وكانت خير معرض لأفكاره وآرائه . وفى الثالث من شهر يونيو سنة ١٨٩٣ ودع قراءه فى كلمة له بعنوان (تحية وسلام) شكر فيها للقراء حسن عنايتهم به وإقبالهم عليه (١) .

وذكر لهم أنه صمد لطائفة من التهم التى وجهت إليه ، ومنها التعصب الدينى ، وأنه نصح لأعمال الأوربيين ، وأنه محرر ثورى ، وهو يشكر للصحف التى دافعت عنه ضد هذه التهم كجريدة المؤيد والأهرام والوطن وبعض الصحف الأجنبية فى مصر وفى أوربا ولا ينس فى هذا المقال أن يقدم الثناء عاطراً للخديوى عباس فهو الذى أصدر عفوه عنه ومنحه الحياة فى مصر ، فكان لزاماً على (الأستاذ) أن تخلص له وتدافع عنه ، ثم هو يشكر قنصلى فرنسا والروسيا ، ويشكر جميع المصريين الذين تأثرت نفوسهم وأشفقوا على الجريدة من الغيبة ثم قال :

---

(١) من أجل ذلك تمكن المحرر من توزيع ٢٨٤ نسخة من كل صفحة .

وكنت أود لو دامت لى صحتى فأقوم على خدمتى ، ولكنى أصبت بضعف فيها وأشار علىّ جمع من الأطباء بتغيير الهواء خارج القطر المصرى ، حتى يقوى ضعيفكم ويشفى مريضكم فيعود لخدمة وطنه وأهله وهكذا اختفى الأستاذ بعد أن اقتنى القراء منه مجلداً فيه ألف وثلثمائة صحيفة ، وودع النديم قراءه بقوله فى نهاية الكلمة السابقة :

أودعكم والله يعلم أننى　　　أحب لقاكم والخلود إليكمو
وما عن قلبى كان الرحيل وإنما　　　وداع تبدى والسلام عليكمو

الفصل الثانى عشر

الخصائص العامة للأسلوب الصحفى عند النديم

فرغنا من عرض نماذج قليلة من أسلوب النديم ، وآن لنا أن نلخص السمات العامة لهذا الأسلوب موجزين فى ذلك بقدر ما نستطيع .

ولست أدرى لماذا أريد أن أتعجل القارىء وأصله بالرأى العام الذى تكون لى من قراءة الآثار الصحفية لهذا الأديب الشعبى الكبير . وخلاصة هذا الرأى هو أن محرر التنكيت ، والتبكيت ، والطائف ، ومجلة الأستاذ كان رجلا خطيباً قبل كل شىء ، وأنه لم يستطع أن يتخلص قط من آثار الخطابة فى أسلوبه الصحفى الخالص .

ولا غرابة فى ذلك فمن الأدباء من غلبت عليه صفة التدريس فجاءت كتاباته كلها على شكل دروس أو محاضرات ، ومنهم من غلبت عليه المحاماه فجاءت كتاباته تحمل هذا الطابع ، وهكذا . وليس من السهل على النفس أن تتخلص من هذه السمات .

فإذا قلنا أن الطابع العام لأسلوب النديم هو الخطابة لم يكن ذلك طعناً فيه ولا نقصاً عنده ولا تقصيراً فى العناية به .

من أجل هذا كان الفرق كبيراً جداً بين النديم الأديب والنديم الصحفى . أما النديم الأديب . فهو ذلك الرجل المفتون بالسجع والبديع إلى درجة ربما تفوق فيها على بعض القدماء . وقد كانت فتنته بالبديع مقرونة بالأيام الأولى من شبابه حين كان يكتب الرسائل الاخوانية أو الأدبية على اختلافها . ولعلك تذكر أيها القارىء مقاله بعنوان (نار العدو وثار العدو) وكيف كانت هذه الرسالة غريبة

فى بابها ، وكيف شق الكاتب فيها على نفسه إلى الدرجة التى أعادت إلى الأذهان ماكان يفعله بعض كتاب النثر العربى فى القرن الرابع الهجرى .

ومهما يكن من شىء فقد كان الكاتب فى هذه المرحلة الأولى من حياته الكتابية متأثراً أشد التأثر بأسلوب المقامة العربية ، وللمقامة العربية فضل كبير فى الواقع على كثيرين من الأدباء منذ ظهور هذا اللون الجديد من النثر فى الأدب العربى . ومن الباحثين من يذهب إلى أن هذا الغرض — وهو تعلم اللغة العربية للناشئين — كان من أجل أغراض المقامة وقت ظهورها ما لم يكن الغرض الأول والوحيد لها .

وأما النديم الصحفى فهو رجل الخطابة فى عصره غير مدافع . وفى هذه المرحلة الثانية والأخيرة من حياته كانت الخطابة صفة له وسمة يعرف بها فى الشعب المصرى .

والخطابة نفسها نوعان مسجوع ومرسل ، ولا ريب أن الصحافة لا يناسبها إلا المرسل ومن ثم كان النديم يرسل الكلام إرسالا كأنه الحديث العادى . ثم لايقف الأمر عند هذا الحد ، بل نجد الخطابة تتضح على أسلوب هذا المحرر ببعض خصائصها ومنها كثرة النداء فى الكلام ، ومنها تكرار عبارة بعينها قصد التثبت فى ذهن السامع أو القارىء وليعلم بها القارىء أنها من هذا الحديث أو ذاك (بيت القصيد) . ألا ترى أنه بسبب ذلك كان النديم حريصاً على أن يختم مقاله بنفس العبارة التى اتخذها عنواناً لهذا المقال ؟

وأكثر من ذلك — رأيت أنه كان يكرر عبارة العنوان ويجعلها نهاية لكل فقرة من فقرات المقال — كما فعل بالكلمة التى نقلنا جزءاً كبيراً منها لتكون نموذجاً من أسلوب النديم وهى الكلمة التى عنوانها « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » .

وربما كان من سمات الخطابة أو الحديث العادى فى أسلوب النديم القسم فى التعبير كما فى قوله :

« والعهد وذمته والشرف وحرمته إن قلبى فى خدمته لمن الصادقين ولسانى فى

أخباره لمن الناصحين ناشدتك الحق يا شقيق الإنسانية إلا ما تأنيت على خادم أفكارك حتى يفرغ من حديثه ... الخ(١) .

وأظن القارىء كذلك لم تفته ملاحظة أخرى ، وهى أن المحرر يوجه الكلام للقارىء بلغة المخاطب ، وتلك خاصة من خصائص لغة الحديث أو المحاضرة أو الخطابة ، كثيرة الظهور فى أساليب المعلمين ومن إليهم من الخطباء والوعاظ والمصلحين .

فذلك إذن هو اللون العام لأسلوب النديم أو القالب الذى يصب فيه كلامه فى الصحف . نعم كان أديب إسحق يميل كذلك إلى الأسلوب الخطابى ، ولكنه على كل حال لا ينبغى أن يقارن بالسيد عبد الله النديم فى ذلك بحال ما . كما لا ينبغى أن يقارن به النديم فى القيم الموسيقية التى وفرها أديب إسحق لعباراته فى الصحف .

من أجل هذا كان النديم فى مقالاته الصحفية أقل حرصاً حتى على الزواج فى الكلام من أديب إسحق ، لماذا ؟ لأنه كان يرسل كلامه إرسالا لا تكلف فيه إلا حين يقصد قصداً إلى هذا التكلف ، وذلك حين يتاح له بعض الفراغ لهذا التكلف أو حين تحن نفسه ويهفو قلمه إلى شىء منه .

بل من أجل هذا كان النديم فى مقالاته الصحفية أقل عناية بالبديع أواحتفاء بالزينة اللفظية والمعنوية ، وبالصور البيانية ، والأبيات الشعرية أو التسلق على كلام الغير ، من أديب إسحق .

وليس معنى هذا أن النديم لا يحسن تكلف البديع فى حين أن أديب إسحق يحسنه ، بل معنى ذلك أن النديم أميل فى صحافته إلى المحدث اللبق أو السمير الذى يستطيع أن يقطع معك أطول وقت ممكن دون أن تمل أو تشعر بالسأم . ومن هنا طالت فصول النديم فى صحفه أحياناً إلى درجة قد لا يبلغها فصل من كتاب . وقد تكرر حدوث ذلك من النديم بأكثر مما تكرر حدوثه من أديب إسحق .

---

(١) هكذا ابتدأ مقالا له بعنوان جرائد الأخبار مدارس الأفكار ص ١٠٠ ج٢ سلافة النديم

ثم من أجل هذا كان النديم أقرب إلى نفوس الشعب نفسه من أديب إسحق ومن سواه وساعد على ذلك أن النديم كان كما رأينا أقل ثقافة من أديب إسحق ، أو على الأصح أقل تنوعا فى ثقافته من أديب إسحق ، وهذا ما جعل الأول وهو النديم صحفى الشعب كله لا يستغنى عن قراءته رجل ولا امرأة ، بل إن النساء فى مصر رجونه أن يحرر لهن مجلة خاصة بهن من دون الرجال وقلن له إنك وحدك القادر على ذلك ولم يحدث أن طلب النساء من أديب إسحق شيئاً من ذلك شعوراً منهن بأن لغته أعلى من مداركهن وأرفع من مستواهن فى ذلك الوقت .

وأخيراً من أجل هذا كان النديم أقرب إلى نفوس القائمين بالثورة العرابية وأقدر على التعبير عن رغباتهم وآمالهم حتى حقق لهم النديم كل ذلك وأكثر منه . فى حين أن أديب إسحق كان فى تلك الآونة من دعاة الاعتدال ،أو قل لم يكن راضياً عن الثورة والثوار بحال من الأحوال

ومع هذا وذاك فالقارىء لا يعدم أن يقع من حين لحين فى أسلوب النديم على استعارة رائعة أو تشبيه جميل أو كناية لطيفة ، كما فى قوله يكنى عن القلب ، ويقلد أسلوب المقامة فى الرواية : « روى الواله الولوع عن الساكن بين الضلوع الخ » (١) .

نعم كان النديم يحن حنينا إلى البديع وذلك فى أثناء اشتغاله بجريدة الأستاذ إلى درجة أنه كتب مقالا صحفياً واحداً فى هذه الجريدة كله سجع ، ردّ فيها على خصومه وحساده . بل كان فيه إلى الشعر أقرب منه إلى النثر و بدأ المقال بهذين البيتين من الشعر :

ولو أنى بليت بهاشمى خؤولته بنو عبد المدان
لهان على ما ألقى ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

والمضحك أن النديم فى هذه المقالة جعلها فصولا كثيرة يختص كل فصل منها بموضوع مستقل فوجه الخطاب فى الفصل الأول إلى أعدائه . ثم تطرق من ذلك إلى الحديث . عن أعداء الله والأنبياء ، ثم الحديث عن أعداء السلطان الأعظم

(١) ص ٥٩ ج ١ السلافة .

ثم الحديث عن أعداء الحضرة الخديوية ، ثم الحديث عن أعداء مصر وحكامها ، ثم الحديث عن أعداء المصريين ، ثم الحديث عن أعداء السوريين ، ثم الحديث عن أعداء انجلترة وفرنسا . ثم الحديث عن أعداء الصدق ، وانتهى من ذلك كله إلى فصل من المقال عنوانه قاتل الله الأعداء(١) .

(والخلاصة) فى أسلوب النديم أن القارىء له فى جميع مراحل حياته يلمح فيه ثلاث شخصيات .

الأولى : شخصية الأديب المفتون بالبديع ، وذلك فيما دبج من رسائل وكتب لا صلة لها بالصحافة .

الثانية : شخصية الصحفى المفتون بالكلام المرسل لا يتكلف فيه سجعاً ، وقلما يقصد منه الأنواع البديعية التى لا تتفق والصحافة .

الثالثة : شخصية الأديب الشعبى الذى يكتب باللغة العامية ويستطيع أن يضفى على أسلوبه فى هذه الحالة ما يسميه الأدباء « باللون المحلى » للعبارة . والذى يعنينا من هذه الشخصيات الثلاث إنما هو شخصيته الثانية ، وهى شخصية الصحفى الذى يكتب باللغة العربية الفصيحة . وهنا تلمح فى أسلوب النديم طائفة من الخصائص منها .

أولا — شغفه بالاستطراد على طريقة الجاحظ وقد كان الاستطراد عند الجاحظ وسيلة من وسائل التشويق وإبعاد السأم عن القارىء . وهو كذلك عند النديم . ومن ثم كان خفيف الظل كاتباً . وخفيف الظل خطيباً أو محاضراً . وبقى الناس فى زمانه مفتونين به وبأسلوبه حتى مات .

ثانياً — ميله إلى المقابلة والطباق لا أقول بين الألفاظ ، بل أقول بين المعانى ذاتها ، وأكثر ما يكون ذلك عندما يكتب النديم عن الشرق وأحواله ، ويوازن بينه وبين الغرب وتقدمه ، أو حين يكتب عن المسلمين ويوازن بينهم وبين المبشرين المسيحيين ونحو ذلك .

---

(١) لعل السبب فى اتباع هذه الطريقة العجيبة شعور النديم بأنه يتحدث عن نفسه وأن الصحافة ليست كالأدب فى هذه الذاتية البحتة . تحول بالمقال من موضوع ذاتى إلى آخر غيرى على هذا النحو .

ثالثاً — إيثاره الإسهاب والإطناب على طريقة الجاحظ أيضاً. وقد لاحظنا أن النديم كان ذا نفس طويل فى الخطابة والكتابة، وكان يؤدى المعنى الواحد بعبارات كثيرة فى الفقرة الواحدة، وفقرات كثيرة فى الموضوع الواحد، وما نظن أن كاتباً استطاع مجاراة النديم فى ذلك القرن الماضى، ولا أن خطيباً. تدفق فى عبارته كما تدفق هذا الرجل.

رابعاً — أما ألفاظ النديم فكانت مختارة، وأما مادته اللغوية، فكانت غزيرة، ولا غرابة فى هذا فقد كان النديم يغرف من بحر وكان غيره من الكتاب يمتحون من بئر، وإن غلب عليك الشعور بأن كتابة الجميع كانت أشبه شىء بماء الينبوع برداً وصفاء وحلاوة ومذاق.

* * *

(وبعد) فهؤلاء ثلاثة كانوا رواد النهضة الأدبية الصحفية فى مصر فى القرن الماضى وهم الشيخ محمد عبده، وأديب إسحق، والسيد عبد الله النديم، وإذا جاز لنا أن نفاضل بينهم. أو نرتبهم على حسب إجادتهم الفنية فإننا نقول — ولا نلزم أحداً بما نقول — إن أولهم وأجودهم وأقربهم إلى الفن الأدبى لا الصحفى بالمعنى الصحيح إنما هو أديب اسحق، ثم يليه الأستاذ الإمام، ثم يليه السيد عبد الله النديم.

وأديب اسحق أول الثلاثة بمزاجه الفنى، وثقافته المنوعة، وطريقته التى تنادى على نفسها بأنها طريقة أديب.

والأستاذ الإمام واسطة هذا العقد بقدرته على التعبير، وبحماسته فى النقد، بطريقة تنادى على نفسها بأنها طريقة المعلم الدينى والاجتماعى.

والسيد عبد الله النديم واحد من هذه الحلبة، ولكن جواده لا يتقدم جوادى صاحبيه لأنه لم يجهد نفسه كثيراً فى كتابة المقالات الصحفية إلا بمقدار ما يجهد الخطيب أو المحاضر نفسه فى ترتيب نقط الحديث، وفى تنظيم الأدلة والحجج، وفى الضغط على عبارات من نوع خاص ليتأكد من ثبوتها فى أذهان الجمهور. من أجل ذلك كله لم يصدر عبد الله النديم فى كثير من مقالاته عن ثقافة منوعة أو دراسة متعمقة اللهم إلا فى موطنين.

أولهما : موطن الدين وما يتصل به من البحث فى الطرق والتصوف .

وثانيهما : التربية والتعليم وقد كان فى هذه الأخيرة يستوحى تجاربه الخاصة ويفسح المجال لأمثال على باشا مبارك ، ليحدثوا الفقراء عن هذه الأمور حديثاً علميا فى صحيفة الأستاذ ونحوها .

غير أن هناك احتياطا لابد من ذكره هنا قبل أن نفرغ من الحكم على النديم أوله . وهذا الاحتياط هنا ذو شقين .

أولهما : الحديث عن الموهبة الأدبية التى اختص الله بها كل واحد من هؤلاء الثلاثة على حدة . وهنا لا نحتاج إلى عناء كبير فى البرهنة على أن الموهبة الأدبية عند النديم كانت أعظم منها عند الأستاذ الإمام ، بل أنها لم تكن تقل عن موهبة إسحق نفسه ،

وثانيهما : الحديث عن الأسلوب الشعبى عند النديم ، فإذا كان الأسلوب نوعين . أرستقراطى وشعبى فمن اليسير أن نلاحظ أولا أن للنديم هذين النوعين معاً ، فى حين أن صاحبيه لم يكن لكل منهما إلا نوع واحد فقط . والذى له موهبتان أكبر درجة من صاحب الموهبة الواحدة ، ولهذا الاعتبار الأخير ، ولاعتبارات أخرى سابقة تقدم النديم على أديب إسحق فى ميدان الصحافة ، كما قدمنا هذا الأخير على النديم فى ميدان الأدب .

ونحن إنما وازنا بين الثلاثة فيما اشتركوا فيه جميعاً ، وهو النوع الأرستقراطى فرتبناهم على النحو المتقدم ، ثم لم يمنعنا ذلك من أن نعطى للنديم حقه من التقدم الذى له على صاحبيه .

وبعد : فقد كان النديم أقل حظاً فى ثقافته ، كذلك من هذين الصاحبين ، ولكننا نعجب كيف استطاع النديم أن يبسط هذا القدر القليل من الثقافة على أكبر عدد ممكن من الشعب المصرى ، ومن الشعوب التى كان يعنيها أن تقرأ ما ينتجه العقل المصرى أو القلم المصرى ، وهذه القدرة على البسط إنما يمتاز بها كذلك النديم وترفعه من هذه الناحية درجة أخرى على كل من الأستاذ الإمام محمد عبده والأديب البارع أديب اسحق .

ذلك إذن فصل الخطاب فى ثلاثة من الكتاب لا شك أنهم كانوا زعماء القرن الماضى فى مصر من حيث الصحافة ومن حيث الكتابة ، نرجو أن نكون فيه قد وفقنا إلى الحق ، واجتنبنا الحيف أو التزيد فى القول .

الخاتمة

فى الطابع العـام للمقالة الصحفية

عند تلاميذ المدرسة الثانية فى مصر

يذكر القارىء أننا أشرنا فى ختام الجزء الأول من كتابنا هذا إلى المقصود من كلمة (المقـالة الصحفية) ، عند إطلاقها ، ويذكر القارىء أننا قد انتهينا من ذلك إلى أن المقالة الصحفية لا يمكن أن تكون موضوعاً إنشائياً ، ولا مقامة من المقامات المعروفة فى الأدب العربى ، ولا قصة ولا حكاية . وليست المقالة الصحفية فصلا من فصول كتاب أدبى أو علمى ، ولا محاضرة من المحاضرات العلمية ، أو الأدبية ، ولا ضرباً من هذه الأضراب الأدبية المعروفة . إنما المقـالة الصحفية عبارة عن فكرة تتلقفها الكاتب من البيئة المحيطة به ، وتأثر بها ، ثم عبر عن ذلك بطريقة حظها من النظام قليل ، وحاجتها إلى الترتيب والتمحيص والتدقيق والبحث العميق أقل . فإنما المقالة حديث يوشك أن يكون عاديا . يعرضه الكاتب على قرائه كما يعرض الموضوع من الموضوعات التى يزجى بها وقت الفراغ ، مع بعض جلسائه . فيحسب المحرر الصحفى أن يتحدث إلى قرائه فى الأمور الخاصة والعامة حديثاً فيه سخرية حيناً ، وفيه تفكير غير عميق حيناً ، وفيه استطراد حينـاً ، وفيه مراعاة لمزاج القارىء آخر الأمر .

وليس معنى هـذا أن المقال الصحفى يجب ألا يكون له حظ من نظام أو ترتيب أو تعمق فى التفكير ، ولكن معنى ذلك أن النظام والترتيب والتعمق فى التفكير ليس شرطاً فى الأدب الصحفى ، فإن توافر فيه فمن غير قصد من الكاتب ، وعن غير إلحاح على القارىء . وعن غير رغبة فى أن يتجشم هذا القارىء مشقة التفكير وعناء البحث .

من أجل ذلك خطأ البحث الحديث رجال المدرسة القديمة الذين ظنوا أن المقالة الصحفية قطعة أدبية يجب أن يكون لها مقدمة ، وموضوع وخاتمة ، كما يجب

أن تبنى على عمق الفكرة وحدة العاطفة . ذلك أن الصحافة أدب غير خالد ، لأن الأدب إنما يستمد خلوده من أشياء لها بالنفس الإنسانية أوثق صلة وأقوى رابطة . أما المقال الصحفى ففضلا عن أنه وليد الساعة التى يكتب فيها ، والظرف الذى أنشىء فيه ، فمن فرغ القارىء من قراءته لم يشعر بحاجة إلى العودة إليه ، وفى ذلك فصلنا القول فى نهاية الجزء الأول من كتابنا هذا ، فليست بنا حاجة إلى إعادته .

ولكن لمن أراد التعمق فى هذا الموضوع إلى أبعد من هذا الحد أن يراجع الفصل الثانى من كتابنا (مستقبل الصحافة فى مصر) وعنوان الفصل : لغة الأدب ولغة الصحافة .

فهل حققت المدرسة الصحفية الثانية فى مصر شيئاً من ذلك ؟ وهل يحق لنا أن ننظر إلى كتابها على أنهم صحفيون بهذا المعنى ؟ قد أشرنا فى مقدمة (الجزء الأول من هذا الكتاب) إلى أن الصحافة الشعبية بالمعنى الصحيح إنما تقترن بعهد إسماعيل ، لأن الصحافة قبل هذا كانت وقفاً على محمد على وحكراً له ، أو كانت آلة فى يده يحركها كيف يشاء ، فلم تحرر الصحف فى عهده شيئاً من النقد ، ولم تملك من الحرية ما يجعلها تذكر رأيها بصراحة فى أى أمر من الأمور التى تتصل بسياسة الوالى الداخلية أو الخارجية ، ومضى عهد محمد على ، وتلاه عهد عباس ثم سعيد ، فلم تظفر الصحافة منهما بعناية تذكر . حتى إذا ولى عرش مصر إسماعيل، ووقعت البلاد تحت ضغط التدخل الأجنبى البغيض ، لم ير الخديوى بدأ من الاستعانة بالصحف التى كانت (كما قلت) سلاحا ذا حدين ، فمن الصحف ما كان يؤيد سياسة إسماعيل ، وكان هذا يأجر بعضها على ذلك ؛ ومن الصحف ما كان يتصدى لنقد إسماعيل نقداً وصـــل إلى حد التجريح ، كما وجدنا ذلك فى بعض صحف النديم .

ونخلص من هذا إلى القول صراحة بأن المدرسة الصحفية الأولى لم تتح لأفرادها الفرصة للتعبير عن آرائهم فى حرية وجلاء ، فلا مفر لنا من النظر إلى تلاميذ المدرسة الأولى على أنهم ناشئون فى حرفة الصحافة ، وعلى أنهم كانوا يشغلون أنفسهم بشىء غير الصحافة ، وهو نشر الثقافة فى البلاد ، عن طريق التأليف والترجمة .

ومن أجل ذلك جاءت صحافة المدرسة الأولى فصولا من كتب مؤلفة ، كانت تنشر تباعا فى جريدة الوقائع حيناً ، وروضة المدارس ونحوها حيناً آخر . ومن ثم لم يظفر الباحث فى نتاج المدرسة الأولى بمقال صحفى بالمعنى المراد من هذه الكلمة عند إطلاقها ثم إنه لم يكن للصحافة نفسها موضوع هام على يد تلك المدرسة الأولى ، ولا كان لها أسلوب يصح أن ينظر إليه على أنه صحفى بالمعنى الذى أشرنا إليه فى بداية هذه الكلمة فإذا تركنا المدرسة الأولى إلى الثانية، فثم نجد موضوعا للصحافة ، وثم نجد فكرة تصدر عنها ، وثم نجد أسلوباً يختص به كل واحد من أفرادها ، وثم نجد طابعا عاما تمتاز به هذه المدرسة عن سابقتها؛ وباختصار نجد عناصر كاملة تؤلف لنا مذهباً جديداً من مذاهب الصحافة ، وتجعلنا أمام طائفة من الصحفيين يستحقون احترامنا وتقديرنا ، لا لجهود ثقافى كالذى بذله رجال المدرسة الأولى من لدن رفاعة الطهطاوى وأمثاله ، ولكن لجهود صحفى بحت بذله رجال هذه المدرسة الثانية . حين ارتفعوا بالصحافة المصرية إلى الحد الذى أصبحت فيه منافسة للصحف الأجنبية فى ذلك الوقت .

* * *

على أننا ننظر إلى الطابع العام لهذه المدرسة الصحفية الثانية ، فنرى أن للمقال الصحفى خصائص ومميزات آن لنا أن نذكرها فى هذه الخاتمة .

الخاصة الأولى : غلبة الأسلوب الخطابى على مقالات هذه المدرسة ، وأكثر ما كان ذلك فى مقالات النديم ، وللقارىء أن يستعرض النماذج التى عرضناها من كلامه ، فسيجد فيها ميلا شديداً إلى اصطناع الأسلوب الخطابى . وسيجد فى حياة النديم أصول هذا الميل .

والخاصة الثانية : أن المقالة الصحفية عند رجال هذه الحلبة أخذت كما رأينا — شكل الدرس ، وجاءت أكثر المقالات على شكل المحاضرة . وواضح ذلك فى مقالات الشيخ محمد عبده ، وللقارىء أن يستعرض لذلك حياة هذا الرجل كما عرضنا لها فى هذا الكتاب ، فسيرى منها ومن تحليل نفسيته ، دوافع ميله إلى التدريس ، وحسن استعداده له ، ولقد بدأ الشيخ يكتب المقالات الأولى فى

الأهرام وجريدة مصر ، فجاءت هذه المقالات على شكل ملخصات للدروس التى كان يلقيها أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى ثم تصدى الشيخ محمد عبده للاصلاحين الدينى والاجتماعى ، وكتب كثيراً فى هذا الموضوع، ولم تكن مقالاته فى هذا الميدان أكثر من دروس منظمة ذات هدف معين ، ولا يكاد يخرج عن هذه الخاصة من كتاب هذه الحلبة غير أديب اسحق الذى غلبت على نفسه طبيعة الأديب ، كما غلبت على نفس النديم طبيعة الخطيب ، وغلبت على نفس محمد عبده طبيعة المعلم ، ومن قبل غلبت على نفس الطهطاوى وتلاميذه طبيعة الترجمة ، إن صح أن تكون الترجمة طبيعة بهذا المعنى .

الخاصة الثالثة : شيوع الجد إلى حد الصرامة والحزن ، فقد أحاطت بمصر فى القرن الماضى ظروف عصيبة ، دعت المصريين إلى ترك اللهو واللعب ، وحط الضحك والسمر جانباً ، وانتبه صحفى كالنديم على وجه التمثيل فوجـــد مدينة الإسكندرية غارقة فى جدها ، تاركة لهوها وأسمارها وأحاديثها الفارغة ، فخاض فيما خاض فيه القوم ، ومنذ اشتغل بالصحافة لم يفارقه طابع الجد أو الحزن ، اللهم إلا فى مقالاته التى كتبها فى مجلة التنكيت والتبكيت ، وفى اسم هذه المجلة الأخيرة ما يدل على نوع الضحك الذى كان يضحكه الكتاب وزعماء الإصلاح فى مصر فى ذلك الحين ، والحق أننا لا نكاد نستثنى من نتاج هذه المدرسة غير ما كتبه الصحفى الإسرائيلى المعروف باسم يعقوب بن صنوع .

الخاصة الرابعة : شيوع السخرية فى مقالات هذه المدرسة ، وإن جاءت هذه السخرية ممزوجة دائماً بالحزن الذى أشرت إليه فى الخاصة السابقة ، ومن أجل ذلك قلما انفرجت شفاه الكتاب فى القرن الماضى عن ابتسامة ما فى مقالاتهم الجدية لا الهزلية ، اللهم إلا فى فترات قليلة ، كالتى رأيناها عند النديم ولم نجد لها نظيراً عند صاحبيه . على أن سخرية النديم وصلت إلى حد التهكم المرير، فى مقالاته التى كتبها فى نقد إسماعيل ، وقريباً من هذه الدرجة من التهكم وصلت مقالات أديب إسحق فى نقد المجالس النيابية فى مصر ، أما الأستاذ الإمام فكانت سخريته هادئة كل الهدوء ، خالية فى الوقت نفسه من الضحك خلواً تاماً .

الخاصة الخامسة : شيوع الانفعالات فى مقالات المدرسة الصحفية الثانية أكثر من شيوعها فى مقالات المدرسة السابقة لها . والحق أن ميزان الحساسية يرتفع كثيراً عند أديب إسحق ومحمد عبده وعبد الله النديم ، وأن ثلاثتهم كانوا يكتبون بانفعال شديد ، هو فى الواقع أشد مما ينبغى للكاتب الصحفى ، فقد قلنا أن الفرق كبير من هذه الناحية بين الصحفى والشاعر ، والأديب والخطيب .

تلك أهم الخصائص التى تتصل بالفكرة أو الموضوع . أما ما كان منها يتصل اتصالا مباشراً بالأسلوب ، فأهمه ما يأتى :

الخاصة الأولى : تخلص المدرسة الصحفية الثانية إلى حد كبير من السجع والجناس وغيرهما من الألوان البديعية التى فتن بها أكثر تلاميذ المدرسة السابقة لها وكانوا فى فتنتهم تلك يتأثرون كل التأثر بالميراث الأدبى الذى ورثه العصر العثمانى عن العصور الأدبية التى سبقته ، وفى تاريخ الجبرتى صورة من النثر الأدبى المصرى فى العصر العثمانى ، نرى منها إلى أى حد أولع كتاب ذلك العصر بالبديع ، على صورة فاسدة من طريقة القاضى الفاضل ومن قبله من أدباء العربية ، كالحريرى وبديع الزمان وغيرهما ، ولكننا نلاحظ أن العيب ليس فى اتباع طريقة ما من طرق الكتابة ، ولكن العيب فى الكاتب المتبع لهذه الطريقة . ثم إن لكل مذهب أدبى أجله وحياته التى تشبه فيها حياة الإنسان ، فإذا وصلت حياة مذهب من المذاهب الأدبية إلى الشيخوخة تهدم وأصابه التلف ، ثم إنه لا شىء يضر بمذهب أدبى أو عقلى إلا نقص الثقافة . ونعنى بذلك أنه يشترط فى معتنق طريقة من الطرق أن يكون فوق تحمسه لها قد أعد لها من الثقافة الواسعة والذوق المرهف والموهبة ، ما يعنيه على النبوغ فى الطريقة الكتابية التى اختارها . ونحن نعرف أن الطريقة الفاضلية كانت قد شاخت ، ونهكها المرض ، ومع ذلك بقيت فى مصر إلى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ولم تظفر بكتاب يحسنون تقليدها ، ولا كان لهؤلاء الكتاب ثقافة وذوق ولا موهبة تعينهم على إجادتها ، ولذلك زادت هذه الطريقة سقما على سقم فى نتاج الكتاب الذين ظهروا فى تلك العصور المظلمة . ثم لم يكن أمام المدرسة الصحفية الأولى مثال يحتذى فى الكتابة غير ذلك المثال الفاضلى . فحاكاه بعض تلاميذها ، وفرضوه على أنفسهم ، وتقيدوا

به ، حتى فى ترجمة الكتب والقصص من الأوربية إلى اللغة العربية . وظهر أثر ذلك فى العنوانات التى اتخذوها لتلك الكتب بحيث روعى فيها السجع بدقة تدعو إلى العجب ، فلما كانت المـــدرسة الصحفية الثانية وجدنا كل واحد من تلاميذها يفتن فى مستهل حياته الأدبية بالسجع فتنة لا حد لها ، ثم لا يلبث أن يفارقه هذا السجع إلى غير رجعة على أثر اشتغاله عملياً بالصحف . فهكذا كان أديب إسحاق ولو أنه لم يبرأ من بعض السجع فى حياته الصحفية كلها . وهكذا كان محمد عبده الذى ظهرت أولى مقالاته فى الأهرام مسجوعة من أولها إلى آخرها ثم هكذا كان النديم الذى رأيناه فى أول أمره أكثر من صاحبيه مراعاة للبديع ، ثم غدا أكثر منهما تحرراً منه فى نهايته .

الخاصة الثانية : على أن أفراد هذه المدرسة قد استعاضوا عن السجع بخاصة أخرى هى الازدواج ، أو التقطيع الصوتى ، وجزالة اللفظ ، وحسن اختياره ، ووضعه فى أليق مواضعه . وإن من يتبع أساليب الثلاثة الذين أتينا على ذكرهم فى هذا البحث ، لتهوله هذه الظاهرة ، وهى تقدم كل واحد فيهم تقدماً محسوساً فى الجزالة اللفظية من جهة وحسن انتقاء الألفاظ وقوة دلالتها على المعانى من جهة ثانية . ولاشك أنه كان للمرانة الصحفية أثر كبير فى هذا التقدم الذى نلاحظه ، وأظن أن فيما أشرنا إليه من مقالات أولئك الثلاثة الرجال ما يكفى لإثبات هذه الظاهرة .

الخاصة الثالثة : تأثر المقالة الصحفية بأسلوب القرآن الكريم ، لجميع الكتاب بدون استثناء يؤثرون ألفاظ القرآن وتراكيب القرآن ، وإذا سنحت لأحدهم فرصة الاقتباس منه لم يتأخر فى ذلك ، وربما تكلف فى مقاله حتى يخلق الموقف البيانى المناسب له . والظاهر أنهم كانوا يفعلون ذلك إشباعاً لرغبات فنية فى نفوسهم من جهة ، وتملقاً للقراء من جهة ثانية .

الخاصة الرابعة : تأثر الأسلوب الصحفى كذلك بأسلوب المقامة العربية بشكلها المعروف فى الأداء ، والحق أن لهذا اللون من ألوان الأدب العربى الخالص أثراً فى الأسلوب يأتى بعد أثر القرآن نفسه مباشرة . لكن لا مفر من القول بأن تأثر المدرسة الصحفية الأولى بأسلوب المقامة — ونخص بالذكر من تلك المدرسة

فارساً الشدياق — كان أقوى من تأثر المدرسة الصحفية الثانية بذلك الأسلوب ، كما أنه لا مفر أيضاً من القول بأن تأثر أديب إسحاق بهذا الأخير كان أوضح من تأثر صاحبه به . فقد كان ذلك الصحفي الأديب يتأنق فى ألفاظه ، ويوردها مسجوعة فى بعض الأحيان ، ويحشوها بالتشبيهات والاستعارات ، ويسوق القليل منها على لسان راو يتخيله ، كما يصنع كتاب المقامات .

الخاصة الخامسة : بدأ ظهور الفرق بين لغة المقالة الصحفية من جهة ولغة الأدب الخالص من جهة ثانية . وآية ذلك ما وجدناه من أن كل صحفى من هؤلاء الثلاثة الذين درسناهم ، كان يعنى بعبارته وبتجديد هذه العبارة ، وكان هؤلاء الصحفيون أدركوا فيما أدركوه يومئذ أنه ينبغى أن يكون أسلوب الصحافة غير أسلوب الأدب وكان كل واحد منهم إذا فرغ لنفسه ، أو وجد أمامه متسعاً من الوقت تأنق فى عبارته ، وأمعن فى زينته ، فإذا جاء الجد وضاق الوقت ، وألحت الجريدة أو المطبعة فى طلب المقال ، فهنا يسرع الصحفى فى الكتابة ، ولا يجد متسعاً للاجادة الأدبية الخالصة غير أنه من الحق أن يقال إن صحافة القرن الماضى لم تفارقها كثيراً صفة الأدب ، وهنا يضطر المؤرخ الأدبى إلى الوقوف لحظة للنظر فى هذه المسألة ، وهى ما الفائدة التى عادت على الأدب البحث من الصحافة ؟ وما الضرر الذى أصيب به منها ؟

والجواب عن ذلك أن الأدب أفاد من الصحافة سعة فى الموضوع ، وغزارة فى الأفكار ، وتنويعاً فى المادة ، وحرية فى التعبير ، وانبساطاً فى الأساليب الخ ، غير أن الصحافة أضرت فى الوقت نفسه بالأدب ضرراً بليغاً فيما وراء ذلك . ويتلخص هذا الضرر فى أن الصحافة فى كل زمان ومكان ، انحطت بالأساليب الأدبية إلى أدنى درجاتها الكتابية ، وذهبت بالفن الكتابى إلى حيث أحالته إلى فن باهت اللون ، لاحظ له من جمال الأصباغ التى تفتن العين . . والسبب فى ذلك أن الأديب يتاح له من الفراغ ، ما يمد له فى أسباب التأنق والتحذق والتصنع والتفنن ، على أن الصحفى وراءه مطبعة تطالبه بغذائها كل يوم ، وصحيفة لا تنى عن مطالبته بالمقالات الكثيرة كل ساعة ، فلا مفر له إذن من الإسراع فى التفكير والإسراع فى الكتابة ، فالسرعة إذن هى الطابع العام للأدب الصحفى . والسرعة

إذن هى المسئولة عن إخراج الصحافة من حيز الأدب الخالد . ووضعها فى حيز الأدب الذى لا يبقى أكثر من ساعة .

* * *

تلك إذن بعض خصائص المقالة الصحفية ، التى تركتها لنا هذه المدرسة ، فما مكانة هذه المدرسة الصحفية فى مصر ، وما منزلة أصحابها من رجال الصحافة فى بلد غير مصر ؟ الحق أن رجال هذه المدرسة الصحفية الثانية أثبتوا أنهم كفء للعبء الذى اضطلعوا به ، وأنهم أهل للاشتغال بالحرفة التى رضوا بها ، وكان عندهم من الاستعداد ما أعانهم على النبوغ فيها نبوغا يلفت النظر ، فقد رزقوا قوة الملاحظة ، ورزقوا الانفعال إلى درجة الشعور بالنقمة . ثم بالسخرية التى صدروا عنها فى جميع ما كتبوه للصحف . ثم بصدق التعبير عما أحسوا من نقمة وسخرية فى وقت معاً ، وكانوا يرسلون كلامهم إرسالا لا تقيد فيه بالمنطق ، اللهم إلا عندما يخرج مقال أحدهم على هيئة درس كما رأينا . أو عندما يكون المقال رداً على فكرة ، أو دفاعا عنها ، وهكذا .

وإذا صح ذلك وآمنت معى بأن المدرسة الثانية حققت لنا كل ذلك ، فأنت معى إذن فى القول بنجاح هذه المدرسة ، بالقياس إلى المدرسة السابقة لها ، وإذن فالفضل كل الفضل للمدرسة الأولى ، لأنها نشرت الثقافة التى ارتوى منها كثير ممن وضعوا أسس الصحافة فى مصر فى النصف الأول من القرن الماضى . ثم الفضل كل الفضل للمدرسة الثانية ، التى انتفعت بهذه الثقافة أولا ، ثم اشتركت فى بناء الصرح نفسه آخر الأمر .

ولكن ليس معنى ذلك أن المقال الصحفى ، بلغ أشده على يد هذه الطبقة التى منها أديب إسحق ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم وغيرهم ، بل ما نعنيه هو أن المقال الصحفى قطع شوطا كبيرا . وتقدم خطوات واسعة ، ارتقت بها الطبقة الثانية على الطبقة التى سبقتها . والدليل على صحة ما نقول من أن المقال الصحفى لرجال هذه الطبقة الثانية لم يبلغ حد الكمال ، هو أن هذا المقال لم يبرأ بعد من عيوب المقال عند الطبعة الأولى التى منها رفاعة الطهطاوى وفارس الشدياق وغيرهما وأنت تعلم أن من عيوب المقالة الصحفية عند هؤلاء . أنها جاءت على شكل دروس

وأبحاث، وأنها طالت عند بعضهم أحيانا إلى أن بلغت حد الكتاب وذلك ما وجدناه أيضا عند محرري الطبقة الثانية بوجه عام، وما وجدناه أحيانا — عند النديم من رجال هذه الطبقة بوجه خاص. ويذكر القارىء أني عرضت عليه في غضون بحثي هذا فصلا للنديم عنوانه:

«لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا»، وأن هذا الفصل كان طويلا مسرفا في الطول إلى حد أنه ملأ تسع عشرة صفحة من صفحات «سلافة النديم»، وهو كتاب من القطع الكبير.

أفنجد في الصحف الحديثة مهما كان لونها مقالا صحفياً يبلغ هذا الطول؟. كلا.. بل إن هذا المقال الذي كتبه النديم ليس إلا فصلا أو بحثاً أو خطبة من الخطب الطويلة، التي كان يقضي في إلقائها على مسامع الجمهور ساعات طويلة، لا يمل في أثنائها الجمهور من استماعه.

وقد اتفقنا على أن المقال الصحفي ليس بحثاً ولا فصلا من كتاب، ولا موضوعا من موضوعات الإنشاء، ولا خطبة من الخطب السياسية أو الدينية أو الاجتماعية.

وإذن فلابد أن يكون طول المقال على يد النديم عيباً صحفياً؛ كالعيب الذي ظهر على يد الطبقة التي سبقته إلى ميدان الصحافة. ونعني بهـــا طبقة الشيخ رفاعة.

الحق أن المقال الصحفي على عهد النديم وصاحبيه أديب إسحاق ومحمد عبده إنما بلغ طور الصبا، ولم يتجاوز بعد دور الشباب إلا بقليل، وليست هذه الطبقة الثانية هي التي تمثل الشباب بالمعنى الصحيح، وإنما تمثله طبقات من الصحفيين توالت على مصر تباعا منذ ذلك الحين، وذلك إذن هو التطور الطبيعي للصحافة، والتدرج المعقول في نموها ونضجها ومن الإسراف في القول أن نظفر بالصحافة، أو نزعم لها النضوج دفعة واحدة.

نقول هذا القول ونحن لانغمط فضل هذه المدرسة الثانية من مدارس الصحافة كما قدمنا، ولا نبخسها حقها كما رأيت.

وخلاصة الرأى فى هؤلاء الثلاثة الذين اشتمل عليهم البحث أن (أديباً) غلبت عليه صفة الأديب ، فى حين أن النديم غلبت عليه صفة الخطيب أو النديم، وأن محمد عبده غلبت عليه صفة المعلم .

حقاً كان أديب إسحاق أدناهم جميعاً إلى الأدب ، وكان أكثرهم لطفاً فى الحس ، وحدة فى المزاج، واضطرابا فى الأعصاب ، ولقد خلقت منه هذه الظروف أديباً ممتازاً ، يعنى بعبارته ، ويتخير لها الألفاظ القوية الإيحاء ، والجرس الذى يملؤها أنغاما موسيقية تتلاءم وحدة مزاجه وانفعالاته . فإذا أتى أديب إسحاق بصورة من الصور الكتابية عنى بها عناية تامة ، وأخرج منها للقارىء لوحة من لوحات الفن ، تنقل إليه جميع المعانى التى أرادها الكاتب . وهنا يحسن أن أحيل القارىء إلى المقالات التى كتبها أديب إسحاق — وهو فى باريس — بعنوان (نفثة مصدور) وفى بعضها يقول مخاطباً المصريين :

ياقوم ، ظلمتم غير معذورين ، وصبرتم غير مأجورين ، وسعيتم غير مشكورين فهلكتم غير مأسوف عليكم الخ . وفى هذا المقال أتى الكاتب بهذه الصورة التى لا تستطيع لوحة رسام ماهر أن تأتى بأجود منها ، وهى قوله يصف خوف المصرى من جور حاكمه الذى « يشد رجله بيده ، ويده بعنقه ، وعنقه بالقيد ، وقيده بوتد السجن » إلى مثال هذه الصورة التى تزعج كل الإزعاج فى مواطن الإزعاج ، وتبعث البهجة والسرور فى مواطن البهجة والسرور ، وهكذا .

وأما الأستاذ الإمام فرجل تغلب عليه صفة المصلح الدينى والمصلح الاجتماعى، كما تغلب عليه صفة العالم الذى يحرص على أن يلتقى بالتلاميذ ، ويجد فى نفسه سروراً عظيما بإلقاء دروسه عليهم . ومن ثم جاءت مقالاته وخاصة فى الدور الأخير منها — أدنى إلى الصحافة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة : ألفاظ سهلة فى موضع التعليم ، جزلة فى موضع الإثارة ، قليل الاكتراث بالزينة اللفظية أو المعنوية ، ضعيف العناية بالاستشهاد من القرآن أو الحديث أو الأشعار أو الخطب ونحو ذلك .

وأما السيد عبد الله النديم فالخطابة هى كل صفاته ، وأظهر سماته ، والمسيطرة عليه من جميع جوانبه ، لا يستطيع إفلاتا منها ، ولا يملك فكاكا عنها ، فإذا

كتب مقالا صحفياً نسى أنه يكتب فى صحيفة ، وساقه الطبع إلى الكلام ، فأطال فيه ، حتى لكأنه يخطب فى جمع حافل ، وتستغرق خطبته ساعات متواصلة .

ويريد الناقد الصحفى أن يلخص رأيه فى المدرستين الصحفيتين فيرى بينهما فرقا من حيث الخبر ، وفرقا من حيث المقال .

فأما الفرق بينهما من حيث الخبر الصحفى فالظاهر أن عناية المدرسة الأولى بالأخبار كانت أكبر من عناية المدرسة الثانية بها ، على حين أن عناية المدرسة الثانية بالمقال كانت أشد وأعظم من عناية المدرسة الأولى به . وأكثر من ذلك أن المدرسة الأولى إنما شهدت ميلاد المقال الصحفى ، واقترنت بها المحاولات الأولى لكتابة المقال الذى لم ينضج بعد .

وأما المدرسة الثانية فقد خطت بالمقال خطوات واسعة موفقة ، وبلغ الأمر عند بعض الصحف أنها كانت تخرج الأعداد تلو الأعداد بحيث لايشتمل الواحد منها أكثر من مقال واحد يملأ صفحات العدد من أوله إلى آخره .

غير أن ذلك عيب من عيوب الصحافة كما قلنا . والحقيقة أن هذه المدرسة الثانية من المدارس الصحفية فى مصر — وإن خطت بالمقال الصحفى هذه الخطوات الموفقة على هذا النحو — إلا أنها لم تستطيع أن ترسم فى ذهنها صورة صحيحة للمقال الصحفى كما يفهم من هذه الكلمة عند إطلاقها اليوم .

وقد سبق أن أحلت القارىء إلى فصل من فصول « مستقبل الصحافة فى مصر » عنوان « لغة الأدب ولغة الصحافة » . وفى هذا الفصل أوضحت الكثير بين اللغتين ، وهو كالفرق بين الملابس التى يرتديها الناس فى حياتهم اليومية ، والملابس التى يرتدونها فى المناسبات الخاصة ، مثل مناسبة عرس أوحفل من الحفلات الرسمية أو الدورية . فالملابس الأولى تمثل اللغة التى تكتب بها المقالة الصحفية ، والملابس الأخيرة تمثل اللغة التى يكتب بها الأدب البحت .

فهل أدرك تلاميذ المدرسة الثانية هذا الفرق ؟

الجواب عن ذلك أنهم أدركوه إدراكا جيداً ولكنهم فى تطبيقهم لهذا الإدراك الجيد قطعوا مرحلة واحدة فقط ، هى المرحلة التى مهدت لظهور المدرسة الثالثة . تلك المدرسة التى سنتحدث عنها ابتداء من الكلام عن السيد على يوسف

فى صحيفة المؤيد . أو بعبارة أخرى ابتداء من ظهور الصحافة اليومية فى مصر ، وهى الصحافة التى حلت محل الصحافة الدورية كما تجلت لنا بوضوح على يد المدرسة الصحفية الثانية التى يدور حولها هذا البحث .

ومعنى ذلك أن نوع الصحافة التى ما رسها رجال المدرستين السابقتين تحكم فى اللغة المستخدمة فيها ، ونحن نعلم أن صحافة المدرسة الثانية كانت دورية ، وأن صحافة المدرسة الثالثة كانت يومية . فكان من الطبيعى أن تتاح لتلاميذ المدرسة الثانية من الوقت والإجادة ما لم يتح لتلاميذ المدرسة الثالثة .

(وبعد) فهذا حديث عن ثلاثة فقط من تلاميذ المدرسة الصحفية الثانية فى مصر . وليس معنى ذلك أن هؤلاء الثلاثة لم يكن لهم نظراء فى عصرهم . كلا ، بل إن مصر فى ذلك العصر كانت تنعم بطائفة كبيرة من الصحفيين الممتازين ، وليس فيهم إلا من هو خليق بأن يذكر ويدرس على النحو الذى مضينا فيه . ولقد كنا نود أن يشتمل هذا البحث على مجموعة أخرى من تلاميذ هذه المدرسة عدا الثلاثة الذين عرضنا لهم فى هذا البحث ، ولكنا آثرنا أن نكتفى بهؤلاء الثلاثة مؤقتاً ، وأن نخص رجلا من رجال هذه المدرسة الثانية بجزء من أجزاء هذه السلسلة . وهذا الرجل هو إبراهيم المويلحى الذى ظفر بالطريقة الأدبية إلى الغاية القصوى .

ونظرنا نحن فلم نجد من العلماء والمؤرخين من يكتب عن المويلحى الكبير كتابة وافية إلى اليوم ، فانتهزنا هذه الفرصة لنؤدى واجبنا نحو تاريخ الأدب والصحافة فى مصر من هذه الناحية .

تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث وموضوعه
الكلام عن إبراهيم المويلحى وجريدة مصباح الشرق

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

للمؤلف

وتطلب جميعها من ملتزم طبعها ونشرها

دار الفكر العربى

١١ شارع جوا دحسنى (طلعت حرب سابقا) بالقاهرة

تليفون : ٥٦٤٦٧ — صندوق بريد : ١٣٠

الثمن ٥٠ ص